كوارث التحرر الجنسي على النساء

(الغرب نموذجًا)



لويز بيري

ترجمة محمد رضا

كوارث التحرر الجنسي على النساء

(الغرب نموذجًا)

لويز بيري

ترجمة محمد رضا

الأكاديمية العلمية

الفهرس

مقدمة المترجم

أخبرني أحد أصدقائي الملحدين ذات يوم أنَّ هناك تجمعًا مسيحيًا في مدينة إدنبرة، واقترح أن نذهب معًا، لأنه كان يحب مناظرةَ المؤمنين، ويريد أن يناقشهم ويتحداهم في عقيدتهم. وافقتُ وذهبنا إلى المكان الذي قيل لنا عنه، لكننا فوجئنا بأنَّ الأمرَ مختلفٌ تمامًا عما توقعناه. لم نجد جماعةً مهتمةً بالجدال أو النقاش الفلسفي، بل مجموعة من الأصدقاء المسيحيين يجتمعون في أحد البيوت لقراءة الكتاب المقدس معًا، وقد أعلنوا عن هذا اللقاء على الإنترنت لمن أراد أن ينضم إليهم.

أدركتُ حينها أن الهدفَ الذي جئنا من أجله لن يتحقق، فبدل أجواء المناظرة، كان الجو بسيطًا ووديًا. تعاملتُ معهم بلطف، وجلست أقرأ معهم ما يقرؤون، وشاركتُهم هذا اللقاءَ بهدوء. كانوا حريصين على أن نعود مرة أخرى، لكن صديقي، بعدما لم يجد ما كان يبحث عنه، تجاهلهم ولم يستجب لدعوتهم. أما أنا، فقد وجدتُ فيهم شيئًا جميلًا ومختلفًا؛ فمن النادر أن ترى في بريطانيا مجموعةً من الشباب والفتيات يجتمعون فقط لقراءة الكتاب المقدس.

مع الوقت، توثقت علاقتي بهم، وأصبحنا نلتقي بشكل شبه يومي، ولم يكن يجمعنا سوى الحديث عن الله والدين والأخلاق. هذه الجماعة لم تكن تابعةً لأيِّ طائفة مسيحية معروفة؛ لم يكونوا كاثوليك ولا أرثوذكس، ولا ينتمون إلى الكنيسة الإنجليزية الإنجليكانية، ولا حتى إلى المشيخية الكالفينية في إسكتلندا. بل كانوا يُعرِّفون أنفسَهم على أنهم جماعة غير طائفية، يعتمدون على الكتاب المقدس وحده. كانوا يُسمّون جماعتهم (Edinburgh International Christian Church). وكان يقودهم شابٌ أمريكي يكبرني بعامين فقط يُدعى «كولبي جراي» (Kolbe Gray)، وكان مميزًا في الخطابة، وكنت أتعلم منه الكثير.

في أحد أيام شهر ديسمبر، اتفقنا أن نلتقي في سوق عيد الميلاد (Christmas Market)، حيث تنتشر الأطعمة الخاصة بالمناسبة والألعاب والملاهي. وبينما كنت أسير مع أحد أصدقائي الإنجليز، لاحظت أنه يحمل شيئًا يُسمّى «تقويم المجيء» (Advent Calendar)، وهو صندوق يحتوي على ٢٤ قطعة شوكولاتة، وهي عادة معروفة في بريطانيا خلال شهر ديسمبر، وغالبًا ما تُعطى للأطفال، بحيث يأكل الطفلُ قطعةً واحدةً كل يوم حتى ينهيهم جميعًا في ليلة عيد الميلاد.

كان صديقي — وهو شاب كبير — سعيدًا بهذا التقويم بشكل لافت. فسألته عن سبب فرحته، فأخبرني أن خطيبته هي مَن أهدته له. قلت له إن هذا لا يفسر كل هذا الحماس، فابتسم وقال إن هذا التقويم ليس مجرد عدٍّ تنازلي لعيد الميلاد، بل هو عدٌّ تنازلي ليوم زفافه، لأن زواجهما سيكون في يوم عيد الميلاد نفسه. هنأته على زواجه، فاقترب مني وهمس قائلًا إنه لم يُقبّل خطيبته قط، وإن أولَ قُبلة بينهما ستكون يوم الزفاف.

كانت خطيبتُه صديقةً لي أيضًا، فهي عضوة في الجماعة نفسها التي كنت ألتقي بهم يوميًا. وما أدهشني حقًا أن هذا الشاب إنجليزي، وخطيبته فرنسية، ويعيشان في القرن الحادي والعشرين، وفي علاقة حب، ومع ذلك لم يحدث بينهما أيُّ تلامس جنسي. كان ما منع ذلك هو التزامهما الديني، إذ التقيا داخل جماعة مسيحية تقوم علاقتهم فيها على الدين والأخلاق، وهو ما جذبني شخصيًا للانضمام إلى تلك المجموعة. الدين كان بالنسبة لهما حاجزًا واضحًا يمنعهما من أي علاقة محرّمة.

هذا النوع من الالتزام الديني أصبح نادرًا في بريطانيا اليوم، بل وربما نادرًا حتى في عالمنا الإسلامي. وهنا يفرض سؤالٌ نفسَه: ماذا لو لم يكن الامتناع عن العلاقات الجنسية قبل الزواج حكرًا على المتدينين فقط؟ ماذا لو كان هناك، حتى بين الملحدين، من يرى أن هذا الرفض ليس قيدًا يُكبّل حريةَ الإنسان، بل اختيارًا أخلاقيًا واعيًا؟

*****

إن هذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن عنوانه الأساسي (The Case Against the Sexual Revolution)، أي: «قضية ضد الثورة الجنسية»، غير أنّ هذا العنوان، حين يُنقل حرفيًا إلى العربية، يظلّ مُثقَلًا بالغموض، ويكاد يفقد قدرتَه على التواصل مع القارئ العربي. فمن هو هذا القارئ الذي يُفترض أن يكون معنيًّا بما يُسمّى «الثورة الجنسية»؟ وأيّ ثورة هي؟ ومتى وقعت؟ وفي أي سياق اجتماعي أو تاريخي نشأت؟ بل كيف يُتوقّع من قارئ لم يعايش تلك التحوّلات، ولم تتشكّل تجربته الثقافية في ظلّها، أن يستشعر ثقل هذا المفهوم أو يدرك إشكالاته الفكرية والأخلاقية؟ إن «الثورة الجنسية» ليست حدثًا كونيًا مشتركًا، بل ظاهرة غربية خالصة، نشأت في سياق تاريخي وثقافي محدَّد خلال ستينيات القرن العشرين، واستجابت لتحوّلات اجتماعية وفكرية خاصة بتلك المجتمعات. ومن ثمّ، فإن الاكتفاء بترجمة العنوان ترجمة حرفية لا يوضّح مضمونه بقدر ما يزيده التباسًا، ولا يفتح أفق الفهم بقدر ما يفترض معرفةً مسبقة لا تتوافر لدى

القارئ العربي في الغالب. لهذا كان لا بدّ من اختيار عنوان بديل، لا يكتفي بنقل اللفظ، بل يسعى إلى نقل المعنى؛ عنوان يقرّب الفكرة، ويكشف جوهر الأطروحة، ويضع القارئ منذ الوهلة الأولى أمام الفكرة الحقيقية التي يناقشها الكتاب، بدل أن يتركه حائرًا أمام مصطلح غريب وسياق بعيد.

كاتبة هذا الكتاب هي السيدة «لويز بيري» (Louise Perry)، وهي كاتبةٌ وصحفيةٌ وناقدة ثقافية بريطانية وُلدت عام ١٩٩٢. درست «لويز بيري» الأنثروبولوجيا في جامعة لندن SOAS، وهو تخصّص يُعنى بدراسة الإنسان والثقافة والبُنى الاجتماعية عبر المجتمعات المختلفة. وقبل دخولها عالم الكتابة الفكرية الواسعة، عملت «بيري» لعدة سنوات في مراكز دعم ضحايا الاغتصاب والعنف الجنسي في بريطانيا. وتُعد هذه التجربة الميدانية عنصرًا محوريًا في سيرتها الفكرية؛ إذ واجهت من خلالها النتائجَ الواقعية للثقافة الجنسية المعاصرة، ليس كما تُعرض في الخطاب الإعلامي، بل كما تظهر في حياة النساء المتضررات. وقد صرّحت في أكثر من مناسبة أن هذا العمل كان الشرارة الأساسية التي دفعتها إلى إعادة التفكير في الافتراض السائد بأن «التحرر الجنسي» يخدم النساء ويصب في صالحهن.



لويز بيري

كما عملت «لويز بيري» كصحفية وكاتبة مقالات في عدد من المنصات البريطانية المعروفة، مثل جريدة (New Statesman) وجرائد أمريكية معروفة كجريدة (Wall Street Journal)، حيث تناولت موضوعات تتعلق بالجنس، والعلاقات، والنسوية، والسياسة الثقافية. وتتسم كتاباتها الصحفية بأسلوب تحليلي هادئ، يعتمد على عرض الوقائع والحجج بدل الخطاب الانفعالي، وغالبًا ما تسعى إلى مساءلة المسلّمات الليبرالية السائدة حول الجسد والاختيار والحرية.

إلى جانب الكتابة، تشارك «بيري» في الحياة الفكرية العامة عبر تقديم بودكاست ومشاركات بحثية وإعلامية، كما شاركت في تأسيس مركز أبحاث نسوي يهدف إلى تطوير سياسات واقعية تتعلق بالأسرة والجنس بعيدًا عن الأطر الأيديولوجية الصلبة.

حين بدأت «بيري» كتابةَ هذا الكتاب كانت ملحدةً، غير أنها أعلنت مؤخرًا اعتناقها المسيحية. فقد صدر الكتاب عام ٢٠٢٢، بينما أعلنت تحوّلها الديني قبل نحو ثلاثة أشهر فقط، أي بعد ما يقارب ثلاث سنوات من الانتهاء من كتابته. وقد جاء هذا التحوّل في أعقاب النتائج التي توصّلت إليها خلال بحثها وتجربتها الفكرية؛ إذ لاحظت أن الآثار السلبية للتحرر الجنسي لا تجد علاجًا حقيقيًا في الحلول الحداثية المطروحة، وأن البدائل الأكثر قدرة على الحد من هذه الأضرار هي ذاتها المبادئ التي طالما نادى بها الدين. ومن هنا رأت في الأفكار الدينية إطارًا أخلاقيًا صالحًا لإصلاح المجتمع عمومًا، وحماية النساء على وجه الخصوص، فاختارت اعتناق المسيحية بعد أن أعادت النظر في مواقفها السابقة على ضوء هذه الخلاصات.

*****

لم تكن الثورة الجنسية مجرد تحوّلٍ في بعض العادات أو تبنٍّ لسلوكياتٍ أكثر تحررًا، بل مثّلت انقلابًا عميقًا في نظرة الإنسان الغربي إلى الجسد، والعلاقات، والالتزام، بل وإلى معنى الحرية ذاته. فقد جاءت في سياقٍ تاريخيٍّ تراجعت فيه سلطة الدين، وتصاعدت الفردانية، وتقدّم الطب — ولا سيما مع انتشار حبوب منع الحمل — وارتفع الصوتُ الرافض لكل ما عُدَّ قيدًا موروثًا من الماضي. وضمن هذا الإطار، لم يعد الجنس يُفهم بكونه فعلًا اجتماعيًا تحكمه مسؤوليات واضحة تتصل بالأسرة والاستقرار والإنجاب، بل أُعيد تعريفه باعتباره تجربةً شخصيةً خاصة، تتمحور أساسًا حول المتعة والتعبير عن الذات.

في خطاب الثورة الجنسية، لم تعنِ «الحرية الجنسية» فقط رفعَ القيود القانونية أو الاجتماعية، بل تعني فصل ممارسة الجنس عن أيِّ إطار أخلاقي أو مؤسسي. لم يعد السؤال المطروح: هل هذا الفعل أخلاقي؟ هل لهذا الفعل من تبعات؟ هل هو مناسب للفرد والمجتمع؟ بل أصبح السؤال الوحيد تقريبًا هو: هل هناك رضا بين الطرفين؟ وهكذا تحوّل الرضا إلى المعيار الأساسي، بل شبه الوحيد، للحكم على الممارسات الجنسية، بغضّ النظر عن السياق أو اختلالات القوة أو الآثار النفسية والاجتماعية بعيدة المدى. هذا التحول بدا في ظاهره تحريرًا، لكنه في الواقع نقل الجنسَ من عالم القواعد المجتمعية المشتركة إلى عالم المنافسة الفردية، حيث يستفيد

الأقوى والأكثر جاذبية وخبرة، بينما يُترك الأضعف ليتحمل النتائج وحده، دون حماية اجتماعية حقيقية.

المفارقة اللافتة أنَّ أولَ نقد جاد للثورة الجنسية لم يصدر عن المحافظين أو المتدينين، بل عن تيارات نسوية يسارية. فقد رأت هؤلاء مبكرًا أنَّ إزالةَ القيود لا تعني بالضرورة إزالةَ القوة المهيمنة على المرأة، بل قد تعني إطلاق هذه القوة المسيطرة على بلا ضوابط. فعندما يُفهم الجنس على أنه فعل حرّ بلا التزام، يكون الطرف الأقوى اجتماعيًا ونفسيًا هو المستفيد الأكبر، بينما تجد النساء أنفسهن مضطرات للتكيّف مع قواعد لم يضعنها، رغم أنهن الأكثر عرضة للعواقب الجسدية والنفسية.

تركّز هذا النقدُ المبكر بشكل خاص على الإباحية، بوصفها المثال الأوضح للثورة الجنسية: هل هي تعبير عن حرية فردية، أم إعادة إنتاج لهيمنة ذكورية غير متكافئة؟ وهل يمكن اعتبار «حرية الاختيار» حريةً حقيقيةً في ثقافةٍ تمارس ضغطًا جنسيًا دائمًا؟ هذه الأسئلة كشفت مبكرًا أن الاعتماد على الحرية وحدها لا يكفي لتحقيق العدالة. ومع ذلك، جرى تهميش هذا النقد، لا لأنه قد بان وظهر خطؤه، بل لأن المناخ الثقافي كان يرى أيَّ تشكيك في التحرر الجنسي تهديدًا للمشروع النسوي ككل، فتم إسكات الأسئلة ومنعها من أن تُطرح بدل الإجابة عنها.

مع دخول التسعينيات، خفّ الجدلُ العلني، لكن النتائج العملية بدأت تظهر بهدوء في البيانات والإحصائيات: حيث تراجع معدلات الزواج، وتأخّره، وارتفاع معدلات الطلاق، وانتشار العلاقات غير المستقرة، وزيادة عدد الأطفال الذين ينشؤون دون استقرار أسري، واتساع الشعور بالوحدة والعزلة. ورغم وضوح هذه المؤشرات، لم يكن من المقبول ربطها بالثورة الجنسية، لأنها كانت تُعامَل بوصفها مرحلة «تقدمية» ولا يجوز التشكيك فيها أو الانقلاب عليها. في هذه الفترة، عاش كثيرٌ من الناس تناقضًا واضحًا: حرية أكبر، لكن استقرار أقل؛ خيارات أوسع، لكن شعور أضعف بالأمان. ومع ذلك، لم تكن هناك لغة فكرية شائعة تسمح بربط هذه النتائج بجذورها التي أنتجتها. فالنقد الأخلاقي كان مرفوضًا سلفًا، والنقد الاجتماعي بقي مجزأً في أرقام وإحصاءات دون تفسير شامل، فاستمر النظام القائم ليس لأنه ناجح بالضرورة، بل لأنه بلا بديل آخر واضح.

في العقد الأخير، تغيّر المشهد. عاد النقد، لكن بصوت مختلف. لم يعد يأتي من أجيال عاشت ما قبل الثورة الجنسية، بل من جيل نشأ داخلها ولم يعرف غيرَ عالم «الحرية الجنسية». لذلك لم يعد هذا النقد يُنظر إليه كحنين إلى الماضي، بل كتساؤل واعتراض صادق نابع من

التجربة التي عاشها هؤلاء الشباب. كثير من النساء الشابات بدأن يتحدثن عن الفجوة بين الخطاب والواقع: فهناك ضغط دائم على التحرر الجنسي، وهناك خوف من فقدان العلاقات عند وضع أي حدود أو قيود لها، وهناك تطبيع وقبول لممارسات مؤذية باسم الرضا وحرية الاختيار. ما يميّز هذا النقد المعاصر أنه لا يدعو إلى القمع أو الوصاية الأخلاقية، بل يطرح سؤالًا بسيطًا وهامًا: هل يمكن لحريةٍ بلا معنى ولا مسؤولية أن تكون عادلةً أو إنسانيةً؟ لم يعد الاعتراض على الجنس لأنه «محظور»، بل لأنه أصبح بلا قيمة أخلاقية، وبلا حماية حقيقية، وبلا اعتراف بواقع عدم تكافؤ القوة بين الرجال والنساء.

لا يمكن القول إن هذا تيار منشر في الغرب، بل هو تيار بدأ ينمو مؤخرًا، تيار تيقن أن الحرية الجنسية التي يعيشها الغرب الآن هي مُدمِّرة للنساء، ولعل أصدق تعبير يمكن أن أقوله في وصف التحرر الجنسي الغربي، الذي وعد النساء بإزالة القمع والقيود، وفتح باب الحرية والمساواة والعدالة، أقول: أصدق تعبير هو جملة قالتها جَدَّةُ الكاتبة، فحين شرحت الكاتبةُ «لويز بيري» لجدتها أفكارَ هذا الكتاب وأخبرتها بها، قالت جدتها: «لقد خُدِعت النساء.»

هذا الكتاب موجه بالأساس إلى مَن ينادي بالحرية الجنسية في عالمِنا العربي، لمن يرى في الانفتاح الجنسي الغربي وسيلةً لتحرير النساء. فالكاتب ليس رجلًا؛ إذ لو كان رجلًا لقيل إنه يريد قمعَ النساء. وليس امرأةً شرقية؛ إذ لو كانت كذلك لقالوا إن الثقافةَ الشرقية قامعةٌ للمرأة بطبيعتها. وليس الكاتب امرأةً غربية متدينة؛ إذن لقالوا إنها تريد تطبيق الأخلاق الدينية المتحفظة ضد النساء. بل الكاتبة امرأة غربية إنجليزية وُلدت في لندن، بيضاء البشرة، شقراء الشعر، زرقاء العينين، ملحدةٌ لا تعترف بربٍ ولا دين ولا إله. كما أنها تُعرِّف نفسَها بأنها نسوية؛ إذ لو كانت ضد التيار النسوي لقالوا إنها — أيديولوجيًا — ضد النسويات.

هذا الكتاب موجه إلى من لا يزال يعيش في ستينيات القرن الماضي، إلى الذين يتبنون الخطاب الجنسي الذي تدعو إليه السيدة الراحلة نوال السعداوي ومن هم على شاكلتها، إلى هؤلاء الموهومين، المخدوعين، المفتونين بجمال الألفاظ والعبارات، غير المكترثين بالتبعات التي تُدمِّر المرأةَ بخطابهم وأفكارهم، أقدِّم هذا الكتاب.

محمد رضا

«إن قلة الاكتراث الممنوح لعفّة الرجال هي، في اعتقادي، المصدرُ الرئيسيّ لكثير من الشرور الجسدية والأخلاقية التي تعذّب الإنسانية، وكذلك للرذائل والطيشات التي تحطّ من قدر النساء وتفضي إلى هلاكهن.»

—— «ماري وولستونكرافت»

«قال: «إنهم عثروا على بيت دعارة في موقع الحفر الذي عمل فيه الليلة الماضية.»
سألته: «كيف عرفوا ذلك؟»
فتنهّد وقال: «حفرة من عظام الأطفال... حفرة من عظام الأطفال حديثي الولادة —— هكذا يُكتشَف بيت دعارة.»

—— «هولي مكنيش» (Hollie McNish)، محادثة مع عالم آثار

تمهيد

بقلم «كاثلين ستوك» (Kathleen Stock)

ماذا قدّمت لنا الثورة الجنسية في ستينيات القرن العشرين؟ في هذا الكتاب المتقن، تجادل «لويز بيري» (Louise Perry) بأن الجواب يتوقّف على أيٍّ «نحن» نعني. فقد أسهم اختراع حبوب منع الحمل في تقليص خوف النساء من الحمل غير المرغوب فيه، مما أتاح لهنّ تقديم النوع من الجنس الذي يفضّله كثيرٌ من الرجال: جنسًا كثيرًا وفيرًا، وفي نفس الوقت خاليًا من الالتزام والمسؤولية. وتؤكّد نساءٌ كثيرات أيضًا أنهنّ يستمتعن بهذا النمط من العلاقات. غير أنّ «لويز بيري» توضّح أنّ هناك أسبابًا وجيهة للتشكيك في بعض هذه الادعاءات. فنحن نعيش اليوم في ثقافة لا يُعدّ فيها من المُحرَّم أن يخنق رجلٌ امرأةً أثناء الجنس، أو أن يخترقها شرجيًا، أو أن يقذف على وجهها بينما يصوّر ذلك. وفي الوقت الذي لا يُعَدُّ فيه كثيرٌ من هذه الممارسات الجنسية القاسية أو المهينة مُحرَّمًا اجتماعيًا، يُنظر إلى اعتراض المرأة الشابة عليها بوصف اعترضها أمرًا غير مقبول؛ إذ يُتوقَّع منها أن تقبل بصفقةٍ جنسيةٍ خاسرة، مفادها التضحية بسلامتها ورفاهها من أجل إرضاء رغبات الرجال، باعتبار ذلك شرطًا أساسيًا للمنافسة في سوق المواعدة والتعارف على الجنس الآخر.

وكما توثّق «لويز بيري»، من خلال مشاهد سردية صادمة أحيانًا، فإنّ الآثار السلبية التي خلّفتها الثورة الجنسية على النساء في القرن العشرين قد تضاعفت وتفاقمت في العصر الرقمي للقرن الحادي والعشرين. ولا يكاد يختلف اثنان على أنّ الثقافة الجنسية المعاصرة مُدمِّرة، ولا سيما بالنسبة إلى النساء الأصغر سنًا. فهي تسوِّق لهنّ جماليةَ «الروبوت الجنسي»، وتدفعهنّ نحو التسيّب الجنسي، وتغمرهنّ بصور الأعضاء الذكرية وبالإباحية العنيفة، وتطالبهنّ بأن يستمتعن بالإذلال والاعتداء في السرير. كما تروّج لفكرة أنّ الدعارة أو الاستغلال الجنسي من أجل المال هو «عمل جنسي»، وأن «العمل الجنسي عملٌ كسائر الأعمال». وتحثّ هذه الثقافةُ الجنسيةُ النساءَ على الفصل بين الجنس والحب، وعلى البقاء منفصلات عاطفيًا، منزوعات المشاعر تجاه شركائهن. وتشجّعهنّ على تعديل أجسادهن بما يتوافق مع المعايير الإباحية.

والأسوأ من ذلك كلّه، أنّها تصوّر الامتثالَ لكلِّ هذه المطالب على أنه تمكينٌ للمرأة، متجاهلةً حقيقةً جليةً مفادها أنّ مطالبة النساء بكبح عقولهن وقلوبهن وإخضاع أجسادهن لأشخاص غرباء أقوى منهن جسديًا قد يكون أمرًا قاتلًا لهن.

ولعلّ الأمر يبدو مفاجئًا، لكنّ هذا التحريم المفروض على مناقشة كلفة الثورة الجنسية يجد سنده في النسوية الشعبية نفسها. والسبب أنّ هذه النسوية ليست في جوهرها سوى صيغة مبسّطة من النسوية الليبرالية، التي تركّز — في نسختها الشعبوية — تركيزًا ضيّقًا ومفرطًا على مفهومي «حرية الاختيار» و«الموافقة الجنسية»، كما لو أنّهما كافيان بذاتهما للحكم على أيِّ ممارسة. ووفق هذا المنطق، يصبح كلُّ شيء مقبولًا، ما دامت المرأةُ قد اختارته أو وافقت عليه، دون نظرٍ إلى السياق أو العواقب. غير أنّ ما يُغفله هذا التصوّر، بطبيعة الحال، هو أنّ الناس قد يتعرّضون لضغوط — من الأقران، أو الشركاء، أو القوى الثقافية الأكبر — تدفعهم إلى الاعتقاد بأنهم يريدون أشياء يكتشفون لاحقًا أنها كانت مُضرَّة بهم. وفي مجتمعات تهيمن عليها الثقافةُ الجنسيةُ الذكوريةُ، توجد مصلحةٌ واضحةٌ في إقناع النساء بأنهنّ يرغبن في ممارسة الجنس بالطريقة نفسها التي يرغب بها الرجال، وتمضي كثيرٌ من النساء في هذا المسار، قبل أن يبلغن لحظة الإدراك المؤلم، حيث لا يبقى سوى الندم، ولا تجد الواحدةُ منهنّ إلا أن تعضّ أناملها حسرةً على ما مضى.

وفي هذه المرحلة، قد يعلو صوت «النسوي الليبرالي الكامن» لدى كثير من القرّاء صارخًا: ولكن ماذا لو كنتُ أريد حقًا كلّ ذلك؟ حسنًا، لا بأس إن كنتِ تريدينه عن قناعةٍ صادقة. غير أنّ «لويز بيري» تُبيّن أنّه، حتى لو كان هذا النمطُ من الجنس مناسبًا لبعض النساء، فإنّه لا يناسب كثيرات غيرهن. وهؤلاء النساء لسن «متحفّظات»، ولا «باردات جنسيًا»، ولا «لاجنسيات»، ولا «يرفضن هذه الممارسات بدافع تشدّد أخلاقي أو خوفٍ مبالغ فيه»، ولا أيًّا من تلك النعوت المهينة التي تنتجها الثقافةُ للإبقاء على آلةِ إرضاء الرجال دائرةً بلا توقّف. كما أنّه لا يُشترط فيهنّ أن يكنّ متديّنات. فثمّة أسباب كثيرة للحذر من الأعراف والسلوكيات الجنسية المعاصرة، وهي أسباب علمانية خالصة.

إنّ ضيق أفق النسوية الليبرالية، في تركيزها المفرط على مفهوم «حرية الاختيار»، وعجزها عن معالجة الفروق العميقة بين النساء والرجال، يعودان إلى أصلها الفكري، إلى الليبرالية ذاتها، بوصفها تقليدًا سياسيًا يجعل من حرية الاختيار السمةَ الجوهرية المحدِّدة

للشخصية الإنسانية. ففي هذا التصوّر، تُختزل الذات في فردٍ محايد بلا جسد أو جنس، ويُعرَّف أساسًا بامتلاكه إرادة حرّة غير مقيّدة بروابط الأسرة ولا بتوقّعات المجتمع، ويسعى خلف تفضيلاته الخاصة بأقصى قدر من الاستقلال والانفلات. وأقول «فردٍ محايد بلا جسد أو جنس»، لأن — كما أشارت نسويات الموجة الثانية، وكما أعادت «لويز بيري» طرحَه بصيغة معاصرة — فإن هذه الصورة المثالية لـ «الذات الليبرالية» تشبه، في واقع الأمر، رجلًا يتنقّل في العالم بحريةٍ لإشباع رغباته، أكثر بكثير مما تشبه امرأةً تتشابك حياتها مع الأطفال الذين هم نتاج نشاطها الجنسي، ومع ما يترتّب على ذلك من ارتباطات ومسؤوليات لا يمكن تجاهلها.

فكيف يمكننا، إذن، أن نبدأ الحديثَ عمّا قد يكون صالحًا للنساء على وجه الخصوص؟ هنا تلجأ «لويز بيري» إلى علم الأحياء وعلم النفس التطوري، وتطرح السؤال التالي: ما الذي تميل المرأة إليه وترغبه، بالنظر إلى كونها أنثى من حيث الطبيعة، وبالنظر إلى القدرات الإنجابية المحدّدة التي تمتلكها عادة؟ (والحديث عن الحيوانات ليس إهانة؛ فنحن جميعًا حيوانات، وإن كان الغرور البشري يسعى جاهدًا إلى إنكار هذه الحقيقة). وبالنظر إلى التاريخ الإشكالي والمشحون للنقاش النسوي حول «الطبيعة مقابل التنشئة»،[1] فإن هذا التوجّه نحو الاعتراف بالطبيعة يُعدّ خطوة جريئة. ومع ذلك، فإن مقاربة «لويز بيري» جديرة بالاستماع والإصغاء إليها بشكل منفتح، ولا سيما إذا تذكّرنا أنّ السردية الأكثر رواجًا اليوم تفترض أنّ الأجساد البشرية — شأنها شأن العقول — قابلة للتشكيل والتغيير بشكل تام. نعم، إلى هذا الحدّ بلغ خوف النسوية الليبرالية من أيِّ قيود قد تُفرَض على الحرية الفردية، حتى إنها — متحالفةً مع أقرب شركائها، الرأسمالية — صارت تنظر إلى الحقائق المتعلّقة بالأجساد السليمة على أنها عوائق في وجه الحرية.

لا يعجبكِ صدركِ؟ اشتري صدرًا جديدًا، أو اقطعيه كليًا! (احذفي ما لا يناسبك). والمثير للدهشة أنّ هذا الإنكار يبلغ، لدى بعض النسويات، حدّ الزعم بأن علم الأحياء نفسه ليس سوى خرافة أو مجرّد بناء اجتماعي. ومع ذلك، وكما تجادل «لويز بيري»، فإن الإقرار بـ «الحدود الصلبة التي يفرضها علم الأحياء» يتيح لنا الوصول إلى استنتاجات أكثر وعيًا واتزانًا، ولا سيما

١- مصطلح «الطبيعة مقابل التنشئة» (بالإنجليزية: Nature vs. Nurture) هو تعبير يُستخدم في علم النفس، والفلسفة، والعلوم الاجتماعية، للإشارة إلى الجدل حول مصدر صفات الإنسان وسلوكه: هل هي ناتجة أساسًا عن الطبيعة أم عن التنشئة والتربية؟ فبينما تؤكد «الطبيعة» دور الجينات والاستعدادات البيولوجية، تبرز «التنشئة» أثر التربية والثقافة والظروف الاجتماعية. ويذهب الرأي المعاصر إلى أن شخصية الإنسان وسلوكه لا تُفسَّر بأحد العاملين وحده، بل تنشأ من تفاعل معقّد بين ما يولد به الفرد وما يكتسبه من محيطه. (المترجم)

فيما يتعلّق برفاه النساء؛ استنتاجات متجذّرة في الواقع المادي للأجساد، وليس فيما يُسقِطه الرجال عليها أو يتخيّلونه عنها.

إن الخلفية المهنية للسيدة «لويز بيري»، بوصفها صحفية ومعلّقة وناشطة ضد استخدام «الجنس العنيف» كذريعة للدفاع عن المتهمين في القضايا الجنائية، تضعها في موقع مثالي لمعالجة هذه المسائل، وهي تفعل ذلك بأسلوبها المميّز وبجرأة لا تخطئها العين. فكتابها ينجز عددًا من الأمور غير المألوفة في نص نسوي معاصر؛ إذ يرفض المكاسب السهلة التي يقدّمها نموذج «نسوية الفتاة اللطيفة» (Nice Girl Feminism) — وهي نسوية تحرص على ألّا تُغضِب أحدًا، حتى لو كان الثمن هو تجاهل الأذى الواقع على النساء أنفسهن —، ويسبح عكس التيار الوردي لسطحية الخطاب الجنسي الإيجابي، ليصرّح بحقائق غير مريحة. وهو غير معنيّ بالشعارات الرنّانة للنسوية الليبرالية، من قبيل «الحرية» و«المساواة»، بل يركّز بدلًا من ذلك على حاجات النساء ورفاههن، بمعزل عن اعتبارات الرجال.

وسواء اتفقتَ في نهاية المطاف مع تحليل «لويز بيري» أم اختلفتَ معه، فإن الكتاب يتعامل مع مصالح النساء بمنتهى الجدية، ويفتح أمامهنّ حيّزًا ضروريًا للحديث الصريح عن كلفة الثقافة الجنسية التي يُطلب منهنّ أن ينجون فيها أو يغرقن. وإن القيام بذلك أمرٌ أساسي لرفاه النساء الشابات، ويجدر بنا جميعًا أن نكون ممتنّين لـ «بيري» على دفعها بهذا الحوار المهم إلى الأمام.

الفصل الأول:

لا بدّ من أخذ الجنس على محمل الجد

لم يلتقِ السيد «هيو هيفنر» و«مارلين مونرو» — وهما أيقونتان من أيقونات الثورة الجنسية — وجهًا لوجه قط، غير أنّهما وُلدا في العام نفسه، ودُفنا في المكان نفسه، جنبًا إلى جنب.[1] ففي عام ١٩٩٢، اشترى «هيو هيفنر» القبوَ المجاور لقبر «مونرو» في مقبرة (ويستوود ميموريال بارك) في مدينة لوس أنجلوس مقابل ٧٥ ألف دولار،[2] وقال لصحيفة لوس أنجلِس تايمز (Los Angeles Times): «أنا أؤمن بالأشياء الرمزية... [ولذلك] فإن قضاء الحياة الأبدية إلى جوار «مارلين» أمرٌ لطيف يصعب تفويته».[3] وعند بلوغه الحادية والتسعين، نال «هيو هيفنر» مبتغاه ودُفن بجوارها. أمّا «مونرو»، التي كانت قد رحلت منذ زمن طويل، فلم يكن لها رأيٌ في الأمر. غير أنّها، في الواقع، لم تُمنَح كثيرًا من الفرص للقول أو التصريح عن رأيها فيما كان يفعله الرجالُ بها على امتداد حياتها القصيرة.

كانت «مارلين مونرو» أوّل نجمة غلاف، وأوّل صورة عارية في منتصف المجلة، في العدد الأوّل من مجلة «بلاي بوي» (Playboy) التي أسّسها «هيفنر»، والصادر في ديسمبر ١٩٥٣. وقد وعد الغلاف بـــ «ترفيه للرجال»، ويبدو أنّ المجلة أوفت بذلك الوعد، إذ حقّقت نجاحًا تجاريًا منذ صدور عددها الأوّل.

كانت الصور العارية لــ «مونرو» قد التُقطت قبل أربع سنوات من نشرها. ففي عام ١٩٤٩، كانت «مونرو»، البالغة آنذاك ثلاثةً وعشرين عامًا، قد تقاضت خمسين دولارًا مقابل جلسة تصوير

1- Gianluca Mezzofiore, ‘No, that viral picture doesn’t show Hugh Hefner lighting a cigarette for Marilyn Monroe’ , 28 September 2017, https://mashable.com/2017/09/28/marilyn-monroe-hugh-hefner-fake-picture-playboy/?europe=true
2- Jack Shepherd, ‘Hugh Hefner dead: Playboy founder is being buried next to Marilyn Monroe’ , 28 September 2017, www.independent.co.uk/arts-entertainment/films/news .
3- Jeff Gottlieb, ‘For sale: eternity with Marilyn Monroe’, 14 August 2009, www.latimes.com/archives/la-xpm-2009-aug-14-me-marilyn14-story.html

استغرقت ساعتين مع مصوّر صور الـ «بين-أب» (pin-up)[١] السيد «توم كيلي»، الذي وعدها بأن يجعل ملامحها وهويتها غير قابلة للتعرّف. وقد كاد أن يفي بوعده.[٢] فالمرأة المتكوّرة على غطاء سرير من القماش الأحمر الفاخر لا تبدو، للوهلة الأولى، أنها «مونرو»؛ إذ كان شعرها آنذاك أكثر ميلاً إلى السمرة، وكان وجهها المطليّ بالمكياج نصف مخفيّ خلف ذراع ممدودة، كما أنّ جسدها الشاحب الجميل لم يكن مميّزًا عن أجساد معظم العارضات الأخريات في مجلة بلاي بوي (وهي مجلة لم تنشر صورةً عاريةً لامرأةٍ سوداء في منتصفها حتى عام ١٩٦٥ — وقد وصفت «جينيفر جاكسون»، التي كانت في الثامنة عشرة من عمرها ونالت هذا «الشرف» المشكوك فيه، السيدَ «هيفنر» لاحقًا بأنه: «قوّاد من الدرجة الرفيعة»).[٣]

على غلاف المجلة، كانت «مونرو»، بملابسها، تستدرج القرّاءَ بوعد نشر صورة عارية «بالألوان الكاملة» للممثلة «للمرة الأولى في أي مجلة»، وقال «هيو هيفنر» لاحقًا إن تلك الصورة الوسطى كانت السبب الرئيس في النجاح الأوّلي للمجلة. أمّا «مونرو» نفسها، فقد شعرت بالإذلال بسبب جلسة التصوير، التي لم تلجأ إليها إلا بدافع الحاجة الماسّة إلى المال، ووقّعت أوراق التنازل باسمٍ مستعار.[٤] ولم يدفع لها «هيو هيفنر» مقابل استخدام صورها، ولم يسعَ إلى الحصول على موافقتها قبل نشرها.[٥] ويُروى أنّ «مونرو» قالت لصديقة لها إنها «لم تتلقَّ حتى كلمة شكر واحدة من كل أولئك الذين جنوا الملايين من صورة عارية لمارلين. بل اضطررتُ إلى شراء نسخة من المجلة لأرى نفسي فيها».[٦]

تُظهر مسارات هاتين الحياتين، بشكل قوي جدًا وذات دلالة ظاهرة، طبيعةَ أثر الثورة الجنسية على الرجال والنساء. فقد بدأ كلٌّ من «مونرو» و«هيو هيفنر» في الهامش، وانتهيا إلى الثراء والشهرة، بعد أن بلغا النجاح في المدينة نفسها وفي اللحظة التاريخية نفسها. غير أنّ «هيو

١- صور الـ «بين-أب» (Pin-up) هي نوع من الصور الإغرائية الخفيفة التي انتشرت خصوصًا في الولايات المتحدة وأوروبا منذ أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين. وسُمّيت Pin-up لأن الرجال كانوا يطبعونها ويعلّقونها (pin up) على الجدران، أو في الخزائن، أو داخل الثكنات العسكرية. (المترجم)

2- Brad Witter, 'Marilyn Monroe didn't actually pose for the first issue of Playboy', 8 September 2020, www.biography.com/news/marilyn-monroe-playboy-first-issue-didnt-pose

3- Scott Johnson, 4 October 2017, www.hollywoodreporter.com/news/playboys-first-black- playmate-reflects-hugh-hefners-legacy-1045838

4- Witter, 'Marilyn Monroe didn't actually pose'.

5- 'Hugh Hefner will be buried next to Marilyn Monroe', 29 September 2017, www.telegraph.co.uk/films/2017/09/29/hugh-hefner-buried-next-marilyn-monroe-fans-not-happy .

6- Megan C. Hills, 'How Hugh Hefner built an entire empire without Marilyn Monroe's consent', 29 September 2017, www.marieclaire.co.uk/news/celebrity-news/hugh-hefner-marilyn-monroe-541688

هيفنر» عاش حياةً طويلة، فظة، محاطًا بـ «فتياته» في قصره، بينما قُطعت حياة «مونرو» على وقع البؤس والإدمان على المخدرات. وكما كتبت النسوية الراديكالية «أندريا دوركين» (Andrea Dworkin) لاحقًا:

> كانت تبتسم، وتتخذ وضعيات مدروسة، وتؤدّي دورها. أقامت علاقات مع رجالٍ مشهورين وذوي نفوذ. كما ادّعت إحدى صديقاتُها أنها خضعت لعددٍ كبير من عمليات الإجهاض غير القانونية، أُجريت بأساليب بدائية وخاطئة، حتى ألحقت بأعضائها التناسلية أضرارًا جسيمة. ماتت وحيدة، وربما كانت تلك المرة الأولى التي تصرّفت فيها لمصلحتها الخاصة. لقد مارس عشّاقُها — في الواقع وفي الخيال — الجنس معها حتى الموت. وجاء انتحارُها اتهامًا وجوابًا في آنٍ واحد، ليقول للعالم أجمع: لا، إن «مارلين مونرو»، الأنثى المثالية، لم تكن راضيةً عن ذلك.[١]

اتبعت حياة «مونرو» مسارًا قريبًا من مسار سابقتها في عالم صور الإغراء الجنسي، «بيتي بايج» (Bettie Page)، التي امتد بها العمرُ حتى الشيخوخة، لكنها أمضت عقودَها الأخيرة في مصحّةٍ نفسية. وينطبق الأمرُ ذاته على نجمة البوب «بريتني سبيرز» (Britney Spears)، التي كانت في السادسة عشرة من عمرها حين كانت تتمايل بزيٍّ مدرسي، متوسّلةً المشاهدين أن «اضربوني يا حبيبي مرة أخرى». ومنذ ذلك الحين، عانت «سبيرز» انهيارًا عصبيًا طويل الأمد، جرى على مرأى من الجميع وبصورةٍ متواصلة، شأنها شأن عددٍ لا يُحصى من «نسخ مونرو» الأخريات — بعضهن سنلتقي بهن في فصول هذا الكتاب — ممّن جرى تحطيمهن، على نحوٍ متشابه، بالطريقة نفسها التي حُطّمت بها تلك الأيقونة الأولى.

وعلى نحوٍ خاص، فإن ممثلات الأفلام الإباحية اليوم — ولا سيما الأكثر نجاحًا منهن، واللاتي يشغلن إلى حدّ كبير المساحة الثقافية نفسها التي شغلتها «مونرو» في زمنها — أكثر عرضة بكثير من نظيراتهن لأن يكنّ قد تعرّضن للاعتداء الجنسي في الطفولة، أو عشن في نظام الرعاية البديلة حيث تتولّى الدولةُ من خلاله تربية الأطفال خارج أسرهم البيولوجية، أو وقعن

1- Andrea Dworkin, Right-Wing Women. New York: Perigee Books, [1978] 1983, p. 18.

ضحايا للعنف الأسري في مرحلة البلوغ،[1] وهي مِحنٌ جميعها عانت منها «مونرو» هي الأخرى.[2] إنّ الجمهور الشبِق يطالب النساءَ اللواتي يرغب بهن بالكثير، وحين تنقلب الأمور إلى كارثة — كما يحدث في الغالب — لا يجد هذا الجمهورُ حرجًا في وصم النساء اللواتي كان يشتهيهن بالأمس بالجنون، ثم المُضيّ قدمًا بلا اكتراث. ولا يجري قطّ أيُّ تقييمٍ جادّ للأضرار التي تُلحِقها «التحرّرية الجنسية» بالنساء اللواتي يلتزمن بتوجيهاتها التزامًا كاملًا.

لقد عاش «هيو هيفنر» (Hugh Hefner) تجربة «التحرّر الجنسي» على نحوٍ مختلف كليًا عن «مونرو»، كما هو حال الرجال عادة، وإن لم يكن مثالُه جديرًا بالاقتداء. ففي شبابه، كان التجسيد الحيّ لــ «الشاب اللعوب» — ذلك النمط من الرجال الذي يتعامل مع الجنس بوصفه لعبة بلا مسؤولية؛ فقد كان وسيمًا، ولبقًا، ومحطّ حسد الرجال الآخرين. عاش خيال مراهقٍ غير ناضج على نحوٍ كبير، فكان يقيم حفلات لأصدقائه المشاهير في «كهف» فاخر، ثم ينسحب إلى الطابق العلوي مصحوبًا بحريمه من الشقراوات المتشابهات في أوائل العشرينات. ويُروى أنه قال ذات مرة إن أفضل عبارة افتتاحية لديه للتودّد لم تكن سوى: «مرحبًا، اسمي هيو هيفنر».[3]

وعلى خلاف «مونرو»، فقد امتد العمر بــ «هيفنر» حتى الشيخوخة، ومع ذلك تآكل بريقُه شيئًا فشيئًا. ففي أواخر حياته، كان يُقدَّم علنًا في الغالب بوصفه شخصية مثيرة للشفقة، بينما راحت «فتيات مجلة بلاي بوي» السابقات يمددن الصحافة بروايات غير مُشرِّفة عن الحياة داخل قصر بلاي بوي. فقد كتبت «جيل آن سبولدنج» (Jill Ann Spaulding)، على سبيل المثال، عن الأداء الجنسي البائس لــ «هيفنر» في شيخوخته:

> كان «هيفنر» يتمدّد هناك فحسب، بانتصابٍ سببه الفياغرا. إنه مجرد انتصاب زائف، وتعتلي كلُ فتاة جسدَه لدقيقتين، فيما تحاول الفتياتُ في الخلفية إبقاءه

1- Corita Grudzen, Daniella Meeker, Jacqueline Torres et al., 'Comparison of the mental health of female adult film performers and other young women in California', Psychiatric Services 62 (2011): 639–45.
2- Sam Kashner, 'Marilyn and her monsters', 5 October 2010, www.vanityfair.com/culture/2010/11/marilyn-monroe-201011.
3- 'Hugh Hefner quotes', 28 September 2017, https://heavy.com/entertainment/2017/09/hugh-hefner-quotes-on-life-death-playboy-is-alive-dead

مستثارًا. وكانوا يصرخون بعبارات من قبيل: «افعلها معها يا بابا، افعلها معها يا بابا!».[١]

وتحدّثت نساءٌ أخريات عن فُرُشٍ متّسخة، وزيٍّ غريب لفتيات مجلة بلاي بوي يتكوّن من بيجامات وردية متطابقة الشكل، وسجادٍ مغطّى بفضلات الكلاب.[٢] كما تبيّن أن «هيفنر» اتّخذ موقفًا قهريًا ومتسلّطًا تجاه صديقاته العديدات، فكان يُملي عليهن كيف يصففن شعورَهن ويضعن مساحيق التجميل، ويحتفظ بسجلٍّ تفصيلي لجميع لقاءاته الجنسية،[٣] ويغضب إن رُفض له طلب ممارسة الجنس.[٤] وقد غفر أتباعُه له جميعَ هذه الموبقات ما دام شابًا جذّابًا، لكن مع مرور الزمن انكشف على حقيقته، فإذا به ليس أكثر من رجلٍ عجوز قذر. فبريق «اللعوب» — أو «الفتى المستهتر»، بلغة العصر — لا يدوم إلى الأبد.

وربما تآكلت سمعة «هيفنر» مع مرور الوقت، لكنه لم يشعر يومًا بأيِّ ذنبٍ إزاء الأذى الذي ألحقه بغيره. فعندما سألته مجلة نيويورك تايمز (New York Times)، وهو في الثالثة والثمانين، عمّا إذا كان يندم على أيٍّ من «العواقب المظلمة» لثورة بلاي بوي التي أطلقها، أجاب بثقةٍ مطلقة عن براءته: «إنه ثمنٌ زهيد يُدفَع في سبيل الحرية الشخصية».[٥] وبالطبع، كان يقصد بذلك — كما هو واضح — الحرية الشخصية للرجال من أمثاله.

بعد وفاته عام ٢٠١٧، عاد «الفتى اللعوب» الأصلي ليُوصَف مرارًا في الصحافة بوصفه «شخصية معقّدة». فقد كتبت صحيفة (Huffington Post) عن «إرثه النسوي المتناقض»،[٦] وطرحت هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) السؤالَ التالي: «هل كانت ثورة بلاي بوي في صالح

1- Olivia Bahou, 11 June 2015, www.cosmopolitan.com/sex-love/news/a41845/worst-things-playmates-said-about-playboy-mansion/.

٢- المصدر السابق

3- Sharon Waxman, 28 September 2017, www.thewrap.com/hugh-hefner-legacy-no-feminist-hero/.

4- Graeme Culliford, 'Sickening pimp secret', 2 October 2017, www.thesun.co.uk/news/4585472/brit-model-lured-girls-to-the-playboy-mansion-to-have-orgies-with-hugh-hefner/.

5- Brooks Barnes,'The loin in winter', 23 October 2009, www.nytimes.com/2009/10/24/business/media/24hefner.html

6- Emma Gray, 'The contradictory feminist legacy of Playboy's Hugh Hefner', 29 September 2017, https://www.huffingtonpost.co.uk/entry/playboy-hugh-hefner-feminist-contradiction_n_59cd07c4e4b0210dfdfc822d

النساء؟».[1] وذهب صحفيٌّ بريطاني إلى الزعم بأن السيد «هيفنر» قد «أسهم في دفع النسوية إلى الأمام»، مبيّنًا أن:

> [هيفنر] اتّخذ موقفًا تقدميًا على نحوٍ لافت تجاه حبوب منع الحمل وحقوق الإجهاض، وهي قضايا روّجت لها المجلةُ بكثافة، وحرصت على إبقاء قرّائها على اطّلاع بالتحديات التي كانت تواجه النساء؛ فخلال الفترة التي سبقت تقنين الإجهاض عام ١٩٧٣، نشرت مجلة بلاي بوي ما لا يقلّ عن ثلاثين تعليقًا مختلفًا حول قضية «رو ضد ويد» (Roe v. Wade)،[2] إلى جانب مواد موسّعة بقلم أطباء.[3]

غير أنّ أيًّا من هذه المراثي لم يلتفت إلى حقيقة مهمة جدًا، وهي أنّ التزام «هيفنر» بفصل الإنجاب عن الجنس لم يكن نابعًا من حرصٍ على رفاه النساء وسعادتهن. فلم يخُض «هيفنر» يومًا معركة لا تعود عليه بمنفعةٍ مباشرة، وحين كان الخوفُ من الحمل أحد آخر الأسباب المتبقية التي تُمكِّن النساءَ من قول «لا»، كان لديه كلّ الدوافع لتمنّي تغييرٍ يوسّع دائرة النساء المتاحات له.

لقد خضعت «مارلين مونرو» مرارًا لعمليات إجهاض بدائية على أيدي مُجهِضين يعملون في الخفاء، إذ توفّيت قبل ما يقارب عقدًا من إتاحة حبوب منع الحمل للنساء غير المتزوّجات في جميع أرجاء الولايات الأميركية. وقد استمرّت مجلة (بلاي بوي) في الصدور طوال عشرين عامًا في بلدٍ لم يكن الإجهاض فيه مقنّنًا. بدأت الثورة الجنسية في مجتمعٍ خرج حديثًا من أهوال الحرب العالمية الثانية، ويتمتّع بنمطٍ جديد من الرفاه، غير أنّ طلائعها الأولى أنجبت أعدادًا كبيرة من الأطفال خارج إطار الزواج، وعانت نساؤها عددًا كبيرًا من عمليات الإجهاض الفاشلة. ويُجسّد فيلم «ألفي» (Alfie) الصادر عام ١٩٦٦ هذه المفارقةَ بجلاء؛ إذ يظهر فيه «مايكل كين» (Michael Caine)، الشاب الوسيم، وهو يتنقّل بين الأسِرَّة في لندن، مستمتعًا بأسلوب الحياة المتحرّر الذي وعدت به فترةُ الستينيات. غير أنّ أفعالَه لا تمرّ بلا ثمن، ففي الذروة العاطفية

1- Nalina Eggert, 'Hugh Hefner death: was the Playboy revolution good for women?', 28 September 2017, www.bbc.co.uk/news/world-us-canada-41426299.

٢- هي قضية دستورية أمام المحكمة العليا الأمريكية طعنت فيها امرأة تُعرف باسم مستعار (Jane Roe) في قانون بولاية تكساس يجرّم الإجهاض إلا لإنقاذ حياة الأم. قضت المحكمة، بأغلبية ٧–٢، بأن الدستور الأمريكي يحمي حقَّ المرأة في الإجهاض بوصفه جزءًا من الحق في الخصوصية. (المترجم)

3- Pascale Day, 'Opinion', 28 September 2017, https://metro.co.uk/2017/09/28/hugh-hefner-might-have-been-a-sleaze-but-playboy-helped-push-feminism-forwards-6963213/?ito=cbshare.

للفيلم ينهار «ألفي» باكيًا حين يواجه الناتج المروّع لعملية إجهاض غير قانونية كان قد دبّرها لإحدى «فتياته».

إنّ قصة الثورة الجنسية ليست مجرد حكاية تحرّر النساء من أعباء العفّة والأمومة، وإن كانت كذلك فعلًا. بل هي أيضًا قصة انتصار شخصية «الفتى اللعوب» — ذلك النمط من الرجال الذي يتعامل مع الجنس بوصفه لعبة بلا مسؤولية —؛ تلك الشخصية كثيرًا ما تُنسى ويُغضّ الطرف عنها، على الرغم من دورها المركزي في هذا التاريخ القريب نسبيًا. وكانت نسويات الموجة الثانية محقّات حين جادلن بأن النساء يحتجن إلى وسائل منع الحمل وإلى تقنين الإجهاض كي يمتلكن السيطرة على حياتهن الإنجابية، وكان ظهور هذه التكنولوجيا ابتكارًا ضروريًا ومفيدًا، إذ حرّر عددًا هائلًا من النساء من العمل المُنهِك جسديًا المتمثّل في إنجاب أطفال غير مرغوب فيهم. غير أنّ أمثال «هيفنر» أرادوا هم أيضًا هذه التكنولوجيا، واحتاجوا إليها، إذا كانوا يطمحون إلى تحقيق غاية تحرير نزواتهم الجنسية الخاصة، فيما يتظاهرون — في الوقت ذاته — بأنهم يحرّرون النساء.

*****

الليبرالية الجنسية ومآزقها

في مسرحية «أنتيجونا» (Antigone) لـ«سوفوكليس» (Sophocles) — وهي مسرحية تولي عناية خاصة بواجبات النساء ومعاناتهن — تنشد الفرقة الغنائية وتقول إنّ «لا شيء عظيمًا يدخل حياة البشر من دون لعنة».[1] لقد كان الأثر الاجتماعي لحبوب منع الحمل أثرًا جسيمًا، وبعد مرور جيلين، ما زلنا لم نستوعب على نحوٍ كامل لا وجوهَ بركته ولا أبعادَ لعنته. وقد عرف التاريخُ الإنساني مراحلَ عديدة خفّت فيها القيودُ المفروضة على السلوك الجنسي؛ من أواخر الإمبراطورية

١- مسرحية «أنتيجونا» هي إحدى أشهر مآسي الكاتب الإغريقي «سوفوكليس»، كُتبت في القرن الخامس قبل الميلاد، وتُعدّ من أبرز الأعمال التي تناولت الصراع بين القانون الإنساني والقانون الإلهي. تدور أحداثها في مدينة طيبة بعد حرب أهلية، حيث تصطدم إرادة الملك «كريون»، الذي يفرض سلطة الدولة وقوانينها الصارمة، بإصرار «أنتيجونا» على الوفاء بواجبها الأخلاقي والديني تجاه أخيها الميت. وقد ترجمها العميد طه حسين في كتابه «من الأدب التمثيلي اليوناني». (المترجم)

الرومانية، إلى بريطانيا في العصر الجورجي، وصولًا إلى العشرينيات الهادرة[1] في الولايات المتحدة. غير أنّ تلك الفترات من الانفلات كانت محدودة نسبيًا، بسبب غياب وسائل منع الحمل الموثوقة؛ ولذلك كان الرجال الساعون إلى علاقات خارج إطار الزواج مضطرّين، في الغالب، إلى طلب الجنس إمّا من النساء العاملات في البغاء، أو من عددٍ محدود من النساء غير العاديات اللواتي كنّ مستعدّات للمخاطرة بالإقصاء الدائم من المجتمع المحترم. فعلى سبيل المثال، عُرفت جماعة «بلومزبري» (Bloomsbury) بأنها «تعيش في مربّعات وتحبّ في مثلّثات»،[2] وكانت كثيرة العلاقات الجنسية غير المشروعة، كما أنجبت عددًا كبيرًا من الأطفال غير الشرعيين، ولم تُعصَم من الفقر والعوز إلا بفضل الامتيازات الطبقية التي تمتّعت بها هذه الطبقة.

غير أنّ الثورة الجنسية في ستينيات القرن العشرين صارت أمرًا واقعًا، وأضحت أيديولوجيتها اليوم البحر الفكري الذي نسبح فيه — وقد بلغ من قبولها والعيش معها أن صار من العسير علينا أن نراها على حقيقتها. وقد كُتب لها الاستمرار بفضل ظهور وسائل منع الحمل الآمنة للمرة الأولى في تاريخ البشرية، ولا سيما تلك التي استطاعت النساءُ التحكّمَ بها بأنفسهن، مثل الحبوب والحاجز المهبلي، ثمّ التطويرات اللاحقة كجهاز منع الحمل داخل الرحم. وهكذا، مع نهاية الستينيات، ظهر في العالم كائن جديد تمامًا: امرأة شابة تبدو ذات خصوبة جنسية، بينما في الواقع تكون خصوبتها مُعطَّلة مؤقتًا بفعل وسائل منع الحمل. وقد غيّر هذا كلَّ شيءٍ.

يحاول هذا الكتاب أن يتصالح نقديًا مع ذلك التحوّل، وأن يفعل ذلك دون الارتهان للروايات الجاهزة: ليس لرواية التقدّم التي يتشبّث بها الليبراليون، ولا لرواية الانحدار التي يدمنها المحافظون. فلا أرى أنّ العقود الستة الأخيرة ينبغي فهمها بوصفها زمن تقدّمٍ خالص أو تراجعٍ خالص؛ إذ إنّ الثورة الجنسية لم تحرّرنا جميعًا، بل حرّرت بعضنا، وبصورة انتقائية، وبثمن وتكلفة باهظة. وهذا تحديدًا ما ينبغي توقّعه من أيِّ تغيير اجتماعي «عظيم» — كما هو حال هذا التغيير بلا ريب. ومع أنّني أكتب في مواجهة السردية المحافظة لعصر ما بعد الستينيات، ولا سيما أولئك المحافظين الذين يتوهّمون — بسذاجة — إمكان العودة إلى خمسينيات القرن

١- «العشرينيات الهادرة» Roaring Twenties (وتُعرف أيضًا باسم Jazz Age) هي تسمية تاريخية تُطلق على عقد العشرينيات من القرن العشرين (١٩٢٠–١٩٢٩)، خصوصًا في الولايات المتحدة. كلمة (Roaring) تعني الهادر أو الصاخب. ويشير الوصف إلى الزخم الاقتصادي، والانفجار الثقافي، والتغيرات الاجتماعية السريعة التي ميّزت تلك الفترة. (المترجم)

٢- هي عبارة ساخرة تعني أنهم عاشوا في مساكن راقية، لكن علاقاتهم العاطفية كانت غير تقليدية ومتداخلة؛ فلم تكن ثنائية تقليدية (رجل + امرأة)، بل كانت علاقات مثلثية، حيث يرتبط ثلاثة أشخاص (أو أكثر) بعلاقات عاطفية وجنسية متداخلة، وغالبًا خارج إطار الزواج. (المترجم)

الماضي، فإنّ نقدي موجّه، على نحوٍ أكثر قصدًا وتركيزًا، إلى السردية الليبرالية للتحرّر الجنسي، التي أراها ليست خاطئة فحسب، بل ومؤذية كذلك.

وينصبّ هذا النقد، لأسباب شخصية خالصة، على الليبراليين أكثر مما ينصبّ على المحافظين؛ إذ كنتُ في وقتٍ سابق أؤمن بالسردية الليبرالية. فحين كنتُ امرأةً شابة، تبنّيتُ المواقف السياسية نفسها التي يتبنّاها معظم خرّيجي المدن من جيل الألفية في الغرب — أي، بعبارة أخرى، امتثلتُ لقناعات طبقتي — بما في ذلك الأفكار النسوية الليبرالية حول الإباحية، وممارسات الجنس العنيف (BDSM)،[١] وثقافة العلاقات العابرة، وعلم النفس التطوري، وتجارة الجنس، وهي قضايا سيتناولها هذا الكتاب جميعًا. غير أنّني تخلّيتُ عن تلك القناعات بفعل تجاربي الحياتية الخاصة، ومنها فترة عملتُ فيها مباشرةً بعد التخرّج في مركز لدعم ضحايا الاغتصاب. وإذا كانت النكتة القديمة تقول إن «المحافظ ليس سوى ليبرالي تعرّض للسطو والخداع من قِبل الواقع»، فإنني أفترض — على الأقل في حالتي — أنّ النسوية ما بعد الليبرالية ليست سوى نسوية ليبرالية واجهت واقع العنف الذكوري عن قرب.

أستخدم مصطلح «النسوية الليبرالية» لوصف نمطٍ من النسوية لا يعرِّف أنصارُه أنفسَهم به عادةً، إذ يفضّلون اليوم تسمية «النسوية التقاطعية» (intersectional feminists). غير أنّني لا أرى أنّ أيديولوجيتهم تقاطعية حقًّا وفق المعنى الأصلي الذي صاغته «كيمبرلي كرينشو» (Kimberlé Crenshaw)، لأنها لا تُدرج على نحوٍ وافٍ تحليلَ أشكالٍ أخرى من التراتب والطبقية الاجتماعية، ولا سيما الطبقة الاقتصادية. وتكمن فائدة استخدام مصطلح «النسوية الليبرالية» في أنه يدرج هذه الأفكار، الخاصة بالقرن الحادي والعشرين، ضمن تاريخ فكري أطول، ويُظهر بجلاء أنها ليست سوى صيغة نسوية لمشروع فكري أوسع نطاقًا: الليبرالية.

أما تعريف «الليبرالية» ذاته فمحلّ خلاف؛ بل إن السطر الأول من مدخل موسوعة ستانفورد للفلسفة يقرّر أنّ «الليبرالية أكثر من شيء واحد»، وهو ما يعني أنّ أيَّ تعريفٍ أختارُه للعمل به سيترك بعضَ النقّاد غير راضين. غير أنّني لا أرغب في إثقال القارئ بدفاع مطوّل عن تعريفي الإجرائي، ولذلك سأكون موجزة.

١- تشير ممارسات BDSM إلى طيف من الممارسات الجنسية التي تقوم على التقييد، والسيطرة، والألم، وتبادل أدوار الهيمنة والخضوع، وتُبرَّر عادة بمفهوم «الموافقة». (المترجم)

لا أستخدم مصطلح «ليبرالي» بوصفه مرادفًا لــ «يساري» — بل إن الأمر على العكس تمامًا. فالمُنظّر السياسي الأميركي ما بعد الليبرالي «باتريك دينين» (Patrick Deneen) يصف الليبرالية الاقتصادية والليبرالية الاجتماعية بأنهما متداخلتان على نحوٍ وثيق، تعمل فيهما نخبة ثقافية ليبرالية ونخبة شركات ليبرالية يدًا بيد. ويشير إلى أنّ «الأيديولوجيا المؤسسية السائدة ترتبط اليوم ارتباطًا وثيقًا بأنماط حياة فئةٍ تتّسم بالحركية الدائمة، والمرونة الأخلاقية، والليبرالية — سواء في بعدها الاقتصادي أو الاجتماعي — إلى جانب عقلية استهلاكية تُعلي من شأن حرية الاختيار بوصفها القيمة العليا، ورؤيةٍ «تقدّمية» لا ترى في التغيّر السريع و«التدمير الخلّاق»[١] سوى مصدرَي يقين لا يتطرق إليهما شك».[٢]

ويلفت مفكّرو ما بعد الليبرالية، ومنهم متدينين، الانتباهَ إلى كلفة الليبرالية الاجتماعية، بوصفها مشروعًا سياسيًا يسعى إلى تحرير الأفراد من القيود الخارجية التي يفرضها علينا المكان، والأسرة، والدين، والتقاليد، بل وحتى — وهو الأهم في السياق النسوي — الجسد البشري ذاته. ومن هذه الزاوية، يلتقي هؤلاء مع كثير من المحافظين الاجتماعيين. غير أنّ نقدهم لا يقتصر على هذا الجانب، بل يمتدّ أيضًا إلى الوجه الآخر من العملة الليبرالية، ألا وهي أيديولوجيا السوق الحرّة، التي تهدف إلى تحرير الأفراد من جميع هذه القيود بغية تعظيم قدرتهم على العمل والاستهلاك. فالعامِل الفرداني المعزول، غير المرتبط بمكان أو شخص، هو العامِل الأقدر على الاستجابة السريعة لمتطلبات السوق. وهذه «العمالة الليبرالية» المثالية تستطيع الانتقالَ إلى أيِّ مكان تتوافر فيه فرص العمل، لكونها غير منتمية على وجه الخصوص إلى أي موضع أو مكان بعينه؛ وتستطيع أداء أي عمل يُطلب منها دون اعتراض أخلاقي نابع من إيمانٍ أو تقاليد؛ ومن دون زوج أو أسرة تتطلّب الرعاية، لا تضطرّ إلى المطالبة بإجازات أو بمواقيت عمل مرنة. ثم، وبالأموال المتأتية من هذا العمل منزوع الصلابة والاستقرار، يمكنها شراء سلع استهلاكية تُسكّن مشاعر التعاسة، وبذلك تغذّي محرّك الاقتصاد بأقصى درجات الكفاءة.

وتقوم النسوية الليبرالية بأخذ هذه الأيديولوجيا الموجَّهة بالسوق، وتطبيقها على قضايا تخصّ النساء على وجه الخصوص. فعلى سبيل المثال، حين تعرّضت الممثلة والناشطة «إيما

١- يشير التدمير الخلّاق إلى العملية التي يُنتج فيها التقدّم الاقتصادي والابتكار أشكالًا جديدة من الإنتاج والحياة، ولكن على حساب تدمير الأنماط والمؤسسات القديمة. بعبارة مختصرة: النظام لا يتقدّم إلا عبر هدم ما كان قائمًا وبناء ما هو جديد مكانه. (المترجم)

2- Patrick J. Deneen, June 2015, www.firstthings.com/article/2015/06/the-power-elite.

واتسون» (Emma Watson) لانتقادات عام ٢٠١٧ بسبب ظهورها بصدر مكشوف على غلاف مجلة فانيتي فير (Vanity Fair)، ردّت بعبارة نسوية ليبرالية شائعة: «النسوية تتعلّق بمنح النساء حقّ حرية الاختيار فيما تفعل... إنها تتعلّق بالحرية».[١] وبالنسبة إلى نسويات ليبراليات من طراز «واتسون»، قد تعني هذه الحرية ارتداء الملابس الكاشفة (وتحقيق مبيعات ضخمة للمجلات في الوقت ذاته)، أو بيع الجنس، أو إنتاج الإباحية، أو استهلاكها، أو السعي وراء أي مسار مهني تشائين — تمامًا كما يفعل الرجال.

ومع توفّر «الأدوات المناسبة»، يغدو التحرّر من القيود التي يفرضها الجسد الأنثوي ممكنًا على نحوٍ متزايد. لا ترغبين في إنجاب الأطفال في العشرينيات أو الثلاثينيات من عمرك؟ جمّدي بويضاتك. استُدعيتِ في رحلة عمل بعد الولادة؟ أرسلي حليبك إلى رضيعك عبر شركة شحن. تريدين مواصلة العمل بدوام كامل دون انقطاع؟ استعيني بمربية في منزلك، أو — والأفضل — بأم بديلة تحمل الجنين عنك. ومع إتاحة تقنيات التحوّل الجنسي الطبي، أصبح حتى الخروج الكامل من الجسد الأنثوي خيارًا متاحًا وقائمًا.

تَعِدُ النسويةُ الليبراليةُ النساءَ بالحرية، وحين تصطدم هذه الوعود بالحدود الصلبة الجسدية التي يفرضها علم الأحياء، فإن هذه الأيديولوجيا تُرشد النساء إلى تقويض تلك الحدود تدريجيًا بواسطة المال، والتكنولوجيا، وأجساد أشخاص أقل حظًا.

إنني لا أرفض الرغبة في الحرية — فلستُ معاديةً لليبرالية — ولا ريب في أنّ للنساء أسبابًا وجيهة للاحتجاج على القيود التي فرضتها علينا مجتمعاتُنا وأجسادُنا، سواء في الماضي أو في الحاضر. غير أنّني أنتقد أيَّ أيديولوجيا تعجز عن موازنة الحرية بقيمٍ أخرى، وأنتقد كذلك إخفاق النسوية الليبرالية في مُساءلة مصدر رغبتنا في نمط معيّن من الحرية؛ إذ كثيرًا ما تعود إلى منطق دائري مفاده أنّ اختيارات المرأة صائبة لمجرّد أنّها اختارتها — على نحوٍ يُذكّر بصرخة «شارلوت يورك» في مسلسل الجنس والمدينة (Sex and the City): «أنا أحدد خياري! أنا أحدد خياري!».

في هذا الكتاب، أطرح — وأسعى إلى الإجابة عن — أسئلة حول الحرية تعجز النسويةُ الليبرالية عن الإجابةِ عنها، أو لا ترغب في ذلك، مثل: لماذا ترغب أعدادٌ كبيرة من النساء في نمط من الحرية الجنسية يخدم، بوضوح، مصالح الرجال؟ ماذا لو لم تكن أجسادنُا وعقولُنا قابلةً

1- www.theguardian.com/film/2017/mar/05/emma-watson-vanity-fair-cover-feminism.

للتشكيل بالقدر الذي نحب أن نُصدّقه؟ ماذا نخسر حين نضع الحريةَ فوق كلّ القيم الأخرى؟ وقبل كل شيء: كيف ينبغي لنا أن نتصرف، في ضوء هذه المعطيات كلّها؟

وقد لا تكون بعض استنتاجاتي موضع ترحيب، لأنها تسلّط الضوء على حدود قاسية لحريتنا لا يمكن تجاوزها مهما بذلنا من جهد. وأنا أنطلق من موقف كان، تاريخيًا، مصدرَ نفور لنسويات من شتى الاتجاهات الأيديولوجية، فأنا أقرّ بأن الرجال والنساء مختلفون، وأن هذه الاختلافات باقية. وحين نعترف بهذه الحدود وبهذه الفروق، تتغيّر طبيعة الثقافة الجنسية برمّتها. فبدل أن نسأل: «كيف يمكننا جميعًا أن نكون أحرارًا؟»، ينبغي أن نسأل: «كيف يمكننا، على أفضل نحو، تعزيز رفاه الرجال والنساء معًا، في ظلّ حقيقة أنّ لكلٍّ منهما مجموعات مختلفة من المصالح، قد تتعارض أحيانًا؟».

*****

نزع السحر عن الجنس

أجادل في هذا الكتاب بأن الثقافة الجنسية الغربية في القرن الحادي والعشرين لا تُحسن الموازنة بين هذه المصالح؛ إذ إنها، بدلًا من ذلك، تعزّز مصالح أمثال «هيو هيفنر» على حساب أمثال «مارلين مونرو». كما أنّ هيمنة النسوية الليبرالية تعني أنّ عددًا كبيرًا من النساء لا يتنبّهن إلى هذه الحقيقة، فيتقبّلن بلا اكتراث زعم «هيفنر» القائل إنّ كلّ سلبيات الثقافة الجنسية الجديدة ليست سوى «ثمنٍ بسيط يُدفَع في سبيل الحرية الشخصية».

وهذا الزعم يلائم أمثال «هيفنر» أيّما ملاءمة؛ إذ إن نمط الرجال «اللعوبين» من طينته — الذين يرون الجنسَ لعبةً وليس التزامًا — لديهم الكثير ليجنوه من الثقافة الجنسية الجديدة. ومن مصلحتهم الدفع بفكرة شديدة التطرف عن الجنس خرجت من رحم الثورة الجنسية، وحققت نفوذًا وانتشارًا واسعًا على الرغم من أضرارها. ومفاد هذه الفكرة أنّ الجنس ليس أكثر من نشاط ترفيهي، لا يكتسب أيَّ معنى إلا إذا اختار المشاركون فيه أن يمنحوه هذا المعنى. ويذهب أنصار هذا التصوّر إلى أنّ الجنس لا يتمتّع بأي خصوصية تميزه عن غيره، ولا يختلف في جوهره عن أيّ شكل آخر من أشكال التفاعل الاجتماعي، ومن ثمّ يمكن تحويله إلى سلعة دون إشكال يُذكر. وقد وصف عالم الاجتماع «ماكس فيبر» (Max Weber) «نزع السحر» عن العالَم

الطبيعي الذي أفضى إليه عصرُ التنوير، حين أدّى صعودُ العقلانية إلى تجريد ذلك «العالم المسحور» من الإحساس بالدهشة والمعنى الذي كان يمنحه للإنسان ما قبل الحداثي. وعلى نحوٍ مشابه إلى حدّ بعيد، جرى نزع السحر عن الجنس في الغرب ما بعد ستينيات القرن العشرين،[١] فخلّف مجتمعًا يعتقد — ظاهريًا — أنّ الجنس لا يعني شيئًا.

ويُعدّ نزع السحر عن الجنس نتيجةً طبيعيةً لتفضيل الليبرالية الحريةَ على سائر القيم؛ إذ إن السعي إلى حريةٍ مطلقةٍ يقتضي استهدافَ كلَّ القيود الاجتماعية التي قد تحدُّ الفرد وتقيده، ولا سيما الاعتقاد بأنّ للجنس قيمةً فريدةً غير ملموسة، وأنّ له خصوصيةً يصعب إخضاعها لمنطق العقلنة. غير أنّ هذا الاعتقاد بخصوصية الجنس واختلافه عن باقي الأفعال والممارسات الإنسانية يفضي إلى طيفٍ من الظواهر غير المرغوبة، من بينها أنظمة دينية أبوية. لكن حين نحاول نزعَ السحر أو الخصوصية عن الجنس، ونتظاهر بأن هذا الفعل ليس مميّزًا على نحوٍ خاص ولا منتهكًا للخصوصية على نحوٍ خاص، فإننا نستبدل تلك الكلفة بكلفةٍ أخرى.

وتقع هذه الكلفة، لأسباب بيولوجية سأعود إليها في الفصل التالي، على النساء بصورة غير متكافئة. ويبدو أنّ النسويات الليبراليات يُدركن هذا الأثر غير المتناسب، كما يتجلّى في الشعبية الواسعة التي حظيت بها حركة «مي تو» (Me Too)، والتي انطلقت بجدّية عام ٢٠١٧. فقد كان هذا الانفجار من الغضب والحزن دليلًا على ثقافة جنسية لم تكن تعمل لصالح النساء. وشملت الروايات التي خرجت من حركة (Me Too) كثيرًا من السلوكيات الإجرامية الصريحة، غير أنّها تضمّنت أيضًا شهادات عديدة لنساءٍ وصفنَ لقاءاتٍ جنسية كانت — من الناحية التقنية — قائمة على الموافقة والرضا، لكنها تركتهن، مع ذلك، في شعورٍ بالغ السوء، لأنهن طُلِب منهن التعامل مع ممارسة الجنس بوصفها بلا معنى، مع شيءٍ كنّ يشعرن بأنه ذو معنى عميق. فالمدير الذي يتوقّع خدمات جنسية شرطًا للترقية، أو الموعد الغرامي الذي ينتظر من امرأةٍ أن «تقدّم المقابل» حين يدفعُ ثمنَ العشاء، كلاهما يتبنّى بسهولة مبدأ نزع السحر عن الجنس، ومن ثمّ ينظر إليه بوصفه منتجًا عديم المعنى يُتبادَل في سوق حرّة («أنتِ تفعلين كذا، وأنا أقدّم لك شيئًا ذا قيمة معادلة»). وقد كتبت طالبةٌ، على سبيل المثال، عن تجربة ارتباط عابر مع أحد أقرانها:

١- الفضل يعود للكاتب الأمريكي Aaron Sibarium لأنه هو من صك مصطلح نزع السحر عن الجنس: https://americancompass.org/the-commons/three-theses-about-cuties/.

دخل هذا الشاب في جسدي، ولم أنبس ببنت شفة. في ذلك الوقت، لم أكن أعرف لماذا. ربما لم أُرد أن أشعر بأنني أوهمته. ربما لم أُرد أن أُخيّب أملَه. وربما لم أُرد فقط أن أخوض تلك المجادلة اللفظية من نوع «لنفعله... لا، لا ينبغي» التي كثيرًا ما تسبق ممارسة الجنس مع شخص ما. كان الأسهل أن أتركه فحسب. ثم إننا كنّا أصلًا في السرير، وهذا ما يفعله الناسُ في السرير. شعرتُ بالتزام وبواجب أن أُكمِل الأمر. شعرتُ بالذنب لأنني لا أرغب في هذه العلاقة الجنسية. لم أكن عذراء؛ فقد كنتُ قد فعلت ذلك من قبل. لم يكن ينبغي أن يكون أمرًا جللًا — إنه مجرد جنس — ولذلك لم أُرد أن أجعله كذلك.[١]

إن عبارة «إنه مجرد جنس» تختزل فكرة نزع السحر أو القداسة عن الجنس اختزالًا بالغ الدقة. فهذه الشابة لم تتعرّض للضرب، ولم تحمل، وكانت في الواقع تميل إلى الشاب الذي مارست معه الجنس — على الأقل في البداية. فلماذا، إذن، عاشت هذا اللقاء الجنسي بوصفه حدثًا جسيمًا إلى هذا الحد؟

السبب أنّ نزعَ السحر عن الجنس ليس حقيقة، ونحن جميعًا نعلم ذلك — بما في ذلك النسويات الليبراليات اللواتي يبدّدن قدرًا كبيرًا من الجهد في الدفاع عن الشعار القائل إن «العمل الجنسي عمل». ويتّضح هذا جليًا حين تبيّن أنّ «هارفي واينستين» (Harvey Weinstein) كان يَعرض على النساء فرصًا مهنية مقابل خدمات جنسية؛ إذ أدانتْه النسوياتُ الليبراليات أنفسُهن فورًا — لا بسبب العنف والتهديدات التي استخدمها أثناء ارتكاب جرائمه فحسب، بل أيضًا لمجرّد طلبه أصلًا خدمات جنسية من مرؤوساته.

كان هناك إدراك حدسي واضح بأن طلب الجنس من موظفةٍ ليس، بأي حال، كالطلبِّ منها العمل لساعات إضافية أو إعداد القهوة. لقد أعددتُ في الماضي كثيرًا من فناجين القهوة لمديرين مختلفين، على الرغم من أنّ ذلك لم يكن جزءًا من دوري الوظيفي، وأكاد أجزم أن معظم القرّاء فعلوا الأمرَ نفسه. غير أنّ أيَّ عامل يُعِدّ القهوة لرئيسه لا يتوقّع أن ينتهي به المطاف معتمدًا على المخدرات أو الكحول نتيجة لذلك. ولا أحد يتوقّع أن يصبح حاملًا بطفل، أو أن يُصاب بمرض يسبّب العقم. ولا أحد يتوقّع أن يعاني اضطراب ما بعد الصدمة أو غيره من الأمراض النفسية. ولا أحد يتوقّع أن يصبح عاجزًا عن إقامة علاقات حميمة صحّية لبقية حياته. الجميع يعلم أن ممارسة

1- https://medium.com/@totalsratmove?p=2194a96bdbb6

الجنس ليست كإعداد القهوة، وحين تطالبنا أيديولوجيات «نزع السحر عن الجنس» بالتظاهر بعكس ذلك، تكون النتيجة شكلًا مؤلمًا من التنافر المعرفي.

ولا تمتلك النسوية الليبرالية الإطارَ المفاهيمي اللازم لمعالجة هذا الاضطراب. فعلى سبيل المثال، وصفت «جيسيكا فالنتي» (Jessica Valenti) في صحيفة الجارديان (The Guardian) ظاهرةَ السلوك الجنسي المنتهِك الذي لا يبلغ العتبة القانونية للاغتصاب، في مقال كُتب في ذروة حركة (Me Too) قائلةً:

> صحيح أنّ النساء سئمن العنفَ والتحرّشَ الجنسيين؛ لكن من الصحيح أيضًا أنّ ما تعتبرُه هذه الثقافة سلوكًا جنسيًا «طبيعيًا» يكون، في كثير من الأحيان، مؤذيًا للنساء، وأننا نريد لهذا أن يتوقّف كذلك.[١]

غير أنّ مختارات من المقالات عن (Me Too)، حرّرتها «فالنتي» وصدرَت عام ٢٠٢٠، تُظهر عجز النسوية الليبرالية التي تمثّلها عن الاستجابة الملائمة للمشكلة التي تُحدّدها.[٢] فجميع المساهمين في هذا الكتاب يرغبون — وعن حق — في إنهاء العنف الجنسي. لكنهم يتوجّسون من استخدام سلطة الدولة لاعتقال المغتصبين وسجنهم، ولا يريدون من النساء أن يُجبَرن على تغيير سلوكهن لتفادي التعرّض لرجال خطرين، إذ يُنظر إلى مجرد إثارة هذا الاحتمال على أنه «لوم للضحية».

وعوضًا عن اقتراح بدائل واضحة — العدالة المدنية، مثلًا؟ — يتجنّب الكُتّابُ الخوضَ في الأسئلة الصعبة من الأساس. ويقصرون أنفسَهم على أفكار فاترة ومسالِمة، مثل مساعدة الرجال على تجاوز «هشاشاتهم الذكورية» (كما قال «طاهر دكِت»)، أو إنشاء مساحات مجتمعية يمكن للجناة فيها السعي إلى «الشفاء والعدالة» (كما قالت «سارة دير» و«بوني كليرمونت»). وتكتب مساهِمات أخريات، مثل «أندريا إل. بينو-سيلفا»، عن ضرورة «الحديث الجاد عن إنهاء العنف الجنسي»، لكنها لا تقترح ما هو أكثر ملموسية من ورش عمل في الجامعات تحتفي — ضمن أمور كثيرة أخرى — بـ «تمكين نظرية الكويرية» (Queer Theory): وهي نظرية تنادي

1- Jessica Valenti, '#MeToo is about more than stopping rape', 31 January 2018, www.theguardian.com/commentisfree/2018/jan/31/me-too-we-demand-more-jessica-valenti .
2- Jessica Valenti and Jaclyn Friedman, Believe Me: How Trusting Women Can Change the World. New York: Basic Books.

بالاحتفاء بالهويات والرغبات الجنسية المثلية، أو الاحتفاء بالعلاقات الجنسية التي لا تكون بالضرورة بين رجل واحد وامرأة واحدة.

وترى «بينو-سيلفا» أن مثل هذه الورش لن تنجح ما لم تتصدَّ في الوقت نفسه لكل أشكال القمع الي تحدث تحت الشمس، من الاستعمار إلى كراهية مزدوجي الميول الجنسية. وأنا لا أعتقد أن هذه الورش ستنجح أصلًا؛ ولذا أفترض أن هذا موضع اتفاقٍ واحد يمكننا أن نلتقي عنده.

لا يكتفي بعضُ المؤلفين والكاتبين برفض أفكار قد تُسهم — ولو جزئيًا — في التخفيف من مشكلة العنف الجنسي، بل إنهم يذهبون أبعد من ذلك، فيقترحون أفكارًا من شأنها أن تزيد المشكلة سوءًا. فالسيدة «ساسافراس لوري» (Sassafras Lowrey) تشجّع الناجيات من الاغتصاب على البحث عن شركاء جنسيين ذوي ميل إلى العنف، أي ما يُعرَف بـ «الانضمام إلى مجتمع الممارسات الجنسية العنيفة (BDSM)»، في حين تقدّم «تينا هورن» (Tina Horn) الدعارةَ بوصفها مسارًا مهنيًا حميدًا للشابات.

وهذا هو المبدأ الأساسي للنسوية الليبرالية وقد بلغ منتهاه المنطقي: ينبغي أن تكون المرأةُ قادرةً على فعل أيِّ شيء تشاء، سواء أكان ذلك بيع الجنس وممارسة الدعارة، أم دعوة إلى الموافقة على ممارسة عنفٍ جنسيٍّ، إذ يُفترض أن تكون جميعُ رغباتها واختياراتها صالحةً بالضرورة، بغضّ النظر عن مصدرها أو مآلاتها. وإذا ترتّب أيُّ سوء عن اتّباع هذا المبدأ، فإننا نعود إلى الحلّ الوحيد الذي لا تملك النسوية الليبرالية سواه: «علّموا الرجال ألّا يغتصبوا».

لكن، ماذا عسى النسويات الليبراليات أن ينصحن به غير ذلك؟ لقد ارتكبن خطأ الارتهان إلى أيديولوجيا جنسية خدمت دائمًا أمثال «هيو هيفنر» و«هارفي واينستين» — وريثه الحقيقي. ومن هذه الأيديولوجيا يستمددن الاعتقادَ الخاطئ بأن النساءَ ما زلن يعانين فقط لأن مشروع التحرّر الجنسي الذي انطلق في ستينيات القرن العشرين لم يكتمل بعد، وليس لأنه كان معيبًا في أسسه ومنطلقاته منذ البداية. ومن ثمّ يؤدين إتاحةَ المزيد والمزيد من «الحرية»، ويبدين دهشة متكرّرة حين لا تُشفى العلّة والمرض بهذا الدواء.

يتجلّى هذا الواقع بوضوح حين ننظر إلى الحرم الجامعي في القرن الحادي والعشرين، حيث يُرفَع لواء التحرّر الجنسي بأعلى صوت، وحيث باتت جمعيات الجنس العنيف (BDSM)،[1]

1- https://en.wikipedia.org/wiki/List_of_universities_with_BDSM_clubs

و«أسابيع الجنس»[1] هي الوضع الطبيعي الجديد.[2] ففي مستهلّ الفصل الدراسي، يُلقَى على الطلبة الجدد محاضرة عن أهمية «الموافقة الجنسية»، ثم يُرسَلون في طريقهم وهم يحملون شارات وحقائب كتب عليها «أنا أحبّ الموافقة». والقاعدة التي يتعلّمونها بسيطة بما يكفي: مع وجود الموافقة، كلّ شيء مباح. ومع ذلك، تُنتهك هذه القاعدة البسيطة مرارًا وتكرارًا، سواء عبر الاغتصاب الصريح، أو عبر أشكال الإكراه الأكثر خفاءً التي روتها نساءٌ كثيرات خلال حركة (Me Too). وقليل من النسويات الليبراليات مستعدات للربط بين ثقافة اللذّة الجنسية التي يروّجن لها، وبين القلق المتصاعد بشأن الاغتصاب في الحرم الجامعي، وهما ظاهرتان برزتا في التوقيت نفسه تمامًا.

ولو فعلن ذلك، لاضُطررن إلى الاعتراف بأنهن ارتكبن أمرًا فادحًا حين نصحن شابات قليلات الخبرة بالسعي إلى مواقف يجدن أنفسهن فيها وحيدات، ومخمورات، برفقة رجالٍ متهيّجين لا يتفوّقون عليهن حجمًا وقوّةً فحسب، بل تربّوا أيضًا على نوعٍ من الإباحية يطبّع العدوانَ، والإكراهَ، والألم. غير أنّه في الأوساط النسوية الليبرالية، لا يُفترض بكِ أن تتحدّثي عن تأثير الإباحية الإلكترونية، أو الجنس العنيف (BDSM)، أو ثقافة العلاقات العابرة، أو غيرها من العناصر الخبيثة في ثقافتنا الجنسية الجديدة؛ لأنّ القيام بذلك يعني التشكيك في عقيدة الحرية الجنسية نفسها. وهكذا تُجبَر الشابات على إدراك حقيقة أنّ للحرية الجنسية كلفة باهظة، ويُجبَرن على تعلّم ذلك بالطريقة القاسية — في كل مرة.

*****

الاستعلاء الزمني

بدأ هذا الكتاب ليكون عملًا في التحليل الثقافي للسلوكيات الجنسية، لكنني أدركت، مع الشروع في كتابته، أنه يحتاج إلى المضيّ أبعد من ذلك. فلم يكن كافيًا الاكتفاء بتشخيص مشكلات ثقافتنا الجنسية الجديدة ثم التوقّف عند هذا الحدّ؛ بل كان لا بدّ من تقديم إرشاد حقيقي للقُرّاء حول كيفية التعامل معها. فالنصيحة المتعلّقة بالجنس كثيرًا ما تُهمَّش وتُدفَع إلى

1- https://en.wikipedia.org/wiki/Sex_Week_at_Yale
2- Allie Grasgreen, ‘Fifty shades of crimson’, 5 December 2012, www.insidehighered.com/news/2012/12/05/kink-clubs-harvards-well-established-healthy-students

الصفحات الخلفية من المجلات، بينما تُقابَل الحجج النسوية حول الثقافة الجنسية بالازدراء، وتُختزَل في كونها مجرد «مشاحنات أنثوية». غير أنّ ما يعنينا هنا لا يتعلّق فقط بأهمّ العلاقات في حياة معظم الناس، بل يتعلّق كذلك باستمرار النوع البشري نفسه. ومن ثمّ، حين اخترتُ عنوانَ هذا الفصل، لم أكن أفكّر في مشكلة نزع السحر عن الجنس فحسب، بل أيضًا في دور كاتبة فقرة النصائح في الجرائد، التي نادرًا ما يُؤخذ كلامُها على محمل الجد الذي يستحقه. فممارسة الجنس ينبغي أن تُؤخذ على محمل الجدّ، وكذلك الحديث عنه. إنه شأن جاد.

والنصائح التي أقدّمها هنا تنطبق في الغالب على العلاقات المغايرة جنسيًا وليست العلاقات المثلية، ولا سيما على النساء اللواتي تنجذبن للذكور، لأن أثر الثورة الجنسية في العلاقات بين الجنسين هو موضوع هذا الكتاب. وليس في هذه النصائح ما يُعَدّ ابتكارًا ثوريًا؛ فأي شخص عاش مدةً كافيةً في الحياة، وتعلّم من أخطائه، يمكنه أن يصوغ مجموعةً من القواعد تشبه إلى حدٍّ بعيد ما أطرحه هنا. غير أنّ تجربتي في الحديث المباشر مع رجال ونساء دون الثلاثين من العمر تُظهر أن هذه القواعد — التي قد تبدو بديهيةً لكثيرٍ من القُرّاء الأكبر سنًا — باتت اليوم صادمةً على نحوٍ يكفي أن تكون قلوبُهم واجفة، وأبصارُهم خاشعة. (حرفيًا، في حالات عدّة).

وربما كنتُ سأشعر بالصدمة نفسِها قبل عقدٍ من الزمن، لأنني لم أكن أعرف شيئًا من هذا حين كنتُ امرأةً أصغر سنًا. فقد ظننتُ، بسذاجة، أنني أفهم الحياةَ أكثر من غيري، كما يفعل المراهقون عادةً، ولم أدرك خطئي إلا بعد سنوات، بعد أن تعلّمتُ بالطريقة القاسية، وشاهدتُ أصدقائي يفعلون الشيءَ نفسَه. ولم يكن ذلك لأن والديَّ أو غيرهما من البالغين في حياتي قد خذلوني — بل على العكس تمامًا — ولم أكن بأيِّ حالٍ استثناءً بين أقراني. غير أنّني نشأتُ في بيئةٍ ليبرالية مالت أكثر مما ينبغي إلى سردية تبسيطية عن «التقدّم» التاريخي. ومشكلة هذه السردية أنها تحثّنا على تجاهل أمرين معًا: الطرق التي قد تكون بها الأمور قد ساءت مع مرور الزمن، والنصائح التي قدّمتها الأجيال الأكبر سنًا. وقد صاغ «سي. إس. لويس» (C. S. Lewis) مصطلح «الاستعلاء الزمني» لوصف «القبول المطلق وبلا أي نقد للمناخ الفكري لعصرنا، وافتراض أن كل ما تجاوزه الزمن هو، لهذا السبب وحده، فاقد للمصداقية».[1]

1- C. S. Lewis, Surprised by Joy. London: HarperCollins, 2012.

وفي نظر ليبراليي القرن الحادي والعشرين المتعالين، لا يُعامَل كبار السن بوصفهم حمقى أو مملّين فحسب، بل — وهذا أخطر — بوصفهم «مثيري مشاكل ومتاعب». ففي معظم الثقافات الأخرى، يُنظَر إلى المسنّين على أنهم مصادر للحكمة، ومن ثمّ يُمنحون مكانةً واحترامًا خاصين؛ أمّا في الغرب المعاصر، فالأرجح أن يُقابَلوا بالاستخفاف والتعالي، وأن يُعزَلوا في دور الرعاية، وأن يُفترَض أنهم بلا نفع لأحد.

وفي نهاية كل عام، تتدفّق المقالات في المنصّات الليبرالية لتقديم النصائح لأبناء العشرينيات حول أفضل السبل لمواجهة «الآراء الإشكالية» التي يعبّر عنها الأقارب الأكبر سنًا على موائد عيد الشكر أو عيد الميلاد، اقرأ إن شئت عنوان: «من مسؤوليتكِ أن تتحدّي أقاربكِ المتعصّبين خلال العطلات»، كما نصحت مجلة تين فوج (Teen Vogue) مثلًا عام ٢٠١٩. وقد أدّى تمجيد الشباب في ثقافتنا إلى ترسيخ فكرة زائفة مفادها أن الشباب هم الأقدر على تقديم الإرشاد الأخلاقي للكبار، رغم افتقارهم الواضح إلى الخبرة. أما بالنسبة إلى أولئك الذين يقتربون من سن الأربعين، فليطمئنّوا: جرس كونهم «مثيري مشاكل» سيقرع أبوابهم أيضًا. فالمقالات التي نُشرت بانتظام منذ عام ٢٠١٨ حول «رهاب المثلية، والتمييز الجنسي، والسخرية من الوزن الزائد» في مسلسل فريندز (Friends) تكشف الحاجة الدائمة إلى «تجديد» مستمر داخل نموذج التقدّم.[١] وحين تُدان الثقافة الشعبية التي لم يمضِ على إنتاجها سوى أقل من ثلاثة عقود بوصفها غير مقبولة، فما الأمل المتبقّي للناس الذين تجاوزوا ثلاثة عقود من العمر في مواكبة هذا الإيقاع؟ لا أمل لهم — وهذه هي الفكرة تحديدًا؛ إذ يتطلّب النموذج أن ننبذهم.

ضمن ما نراه ونعايشه في زماننا القريب، شهدنا قطيعةً مفاجئة وحادّة مع معايير الماضي، ويُصار إلى تبرير ضرورة هذه القطيعة على الدوام في الإعلام الليبرالي بالاستحضار المستمر لما يُسمّى «الأيام السيئة القديمة». ويُسخَر من هذا التمركز حول الحاضر بسخرية لاذعة في المسلسل التلفزيوني الصادر عام ٢٠٢٠ والمقتبس من رواية «عالم جديد شجاع» (Brave New World) لـ «ألدوس هكسلي» (Aldous Huxley)، حيث يُعاد تخيّل «أراضي المتوحّشين» — التي كانت في الرواية أقرب إلى محميّة هندية — بوصفها مدينة ألعاب مكرّسة لانحطاط أميركا في القرن الحادي والعشرين. ويصعد زوّار «لندن الجديدة» في القرن السادس والعشرين إلى حافلة سياحية، ويتفرّجون بدهشة على «بيت التقويم» (السجن) و«بيت الزواج الأحادي»

1- www.glamour.com/story/12-friends-moments-that-will-totally-make-you-cringe-now .

(الكنيسة)، ويشهدون إعادة تمثيل لما يُقدَّم على أنه أهم حدث في تقويم «المتوحّشين»: «اليوم الأسود السنوي» (الجمعة السوداء) (Black Friday)، حيث يمزّق المتسوّقون بعضَهم بعضًا في نهمهم للعروض الرخيصة.

وتشرح المرشدة السياحية للزوّار، بمرح، أن العناصر الأساسية لثقافة «المتوحّشين» كانت «الغيرة، والمنافسة، والجشع، والصراع». وهي، بطبيعة الحال، محقّة. فقد صُمّمت مدينة الألعاب هذه لتُظهر لسكان «لندن الجديدة» أخطار أسلوب الحياة القديم، وأُدرجت في العمل الدرامي لتبيّن لنا مدى إغراء القرن السادس والعشرين حين يُقارَن بالقرن الحادي والعشرين. لقد نجح هؤلاء البشر المستقبليون في التخلّص من كثير من عيوبنا: فغياب الخصوصية لديهم يضمن غياب الجريمة؛ وغياب الأسرة يضمن غياب التحيّز للجماعة؛ وغياب الزواج الأحادي يضمن غياب الغيرة الجنسية. أمّا الثمن الذي يدفعه المواطنون لقاء هذا الاستقرار كلّه فهو العيش في ظلّ نظامٍ استبدادي يقمع أيَّ تذمّر بعقار «سوما» الذي يجعل الإنسان سعيدًا. ويشجّع هذا النظام سكان «لندن الجديدة» على زيارة مدينة ألعاب «أراضي المتوحّشين»، لأن شيطنة الماضي تُستخدم لتبرير الوضع القائم. والمحافظون في عصرنا، الذين يُضفون طابعًا مثاليًا على الماضي، يحقّقون الأثر نفسه، ولكن بالعكس؛ إذ يغدو الماضي سلاحًا سياسيًا يُستَخدم بسهولة لتلوين رؤيتنا للحاضر.

وأنا أرفض هذه الثنائية السامّة التي تُصرّ على أن الماضي يجب أن يكون إمّا خيرًا محضًا أو شرًا محضًا. لا أرى أننا ينبغي أن نقلّد أيَّ ثقافة جنسية من الماضي، كما لا أرى أن ما شهدناه خلال العقود الستة الأخيرة كان مسارًا من التحسّن المتواصل بلا انقطاع. وذكاء تصوير «أراضي المتوحّشين» في عالم جديد شجاع يكمن في أن تمثيل مدينة الألعاب صادق — إلى حدٍّ ما. فالقرن الحادي والعشرون عصر «الغيرة، والمنافسة، والجشع، والصراع»، ومن السهل إدانته. غير أنّ في «أراضي المتوحّشين» جانبًا غير نزيه أيضًا؛ إذ إن إبراز شرور الماضي يُستخدَم لصرف الانتباه عن شرور الحاضر. والتمثيل التقدّمي المعاصر للحياة في خمسينيات القرن الماضي يؤدّي الغرض نفسه.

في عام ٢٠١٦، انتشر على نطاق واسع مقتطف من كتاب تدبير منزلي من خمسينيات القرن العشرين يقدّم «نصائح للعناية بزوجك». ونُصِحت ربّة المنزل فيه بأنه، حين يعود زوجُها من العمل، ينبغي أن يكون العشاءُ جاهزًا على المائدة، وأن تخلع مريلتها، وتضع شريطًا في

شعرها، وأن تحرص دائمًا على أن تترك زوجَها «يتحدّث أولًا».[1] ولم تكن هذه النصيحة شاذّةً في كتب الإرشاد المنزلي في ذلك الزمن، ولا في العصور الأسبق، إذ كانت جميعُها تحثّ النساءَ على جعل أعمالهن المنزلية تبدو بلا جهد، مع إخفاء المشقّة والإرهاق عن رجالهن.

كم يبدو لنا هذا اليوم رجعيًا، وغبيًا، ومتخلّفًا! لكن فلنلقِ نظرةً على عيّنة صغيرة من إرشادات مجلة كوزموبوليتان (Cosmopolitan) المنشورة خلال العقد الأخير: «٣٠ طريقة لإرضاء الرجل»،[2] و«٢٠ طريقة لإثارة رجلك»،[3] أو «كيف تثيرينه — ٤٢ شيئًا يمكنك فعلها مع رجل عارٍ»،[4] (ويتضمّن دليل الإرشادات الأخير نصائح من قبيل «داعبي حافته» و«استخدمي مزلقًا منكَّهًا»). بأي معنى لا تشجّع هذه الإرشادات التركيزَ نفسه على رغبات الرجال، باستثناء أن الإرضاء هنا جنسي لا منزلي؟ الفارق الوحيد الذي أراه هو أن التزلّف والتملّق للرجل أصبح اليوم حرفيًا.

ما تزال النساء مُطالَبات بإرضاء الرجال وبجعل ذلك يبدو بلا عناء. غير أنّ «مَلاك البيت» في خمسينيات القرن الماضي كان يُخفي مريلتَه، بينما تُخفي «ملاك غرفة النوم» المعاصرة شعرَ عانتها. فهذه البجعة المنمّقة تبدو وادعة وهي تسبح فوق الماء، لكنها في العمق تكابد جهدًا جهيدًا كي تحافظ على نموذج الكمال الذي فُرض عليها تمثيله. إنها تتظاهر بالوصول إلى النشوة، وتتظاهر بحبّ الجنس الشرجي، وتتظاهر بعدم الاكتراث حين تتسبّب علاقة «أصدقاء مع امتيازات» (friends with benefits) في ألمها. لقد تحدّثتُ إلى نساء عانين من التشنّج المهبلي سنواتٍ طويلة من دون إخبار شركائهن بأن الإيلاج كان مؤلمًا إلى حدٍّ لا يُحتمل. وتحدّثتُ أيضًا إلى نساء أجرين عمليات إجهاض بعد علاقات عابرة ولم يخبرن الرجالَ الذين حمّلوهن، لأن السماح للرجل بالوصول إلى «داخل» أجسادهن كان أمرًا عاديًا، أمّا الإفصاح عن الحقيقة غير المريحة لنتائج هذه العلاقة فكان أمرًا حميميًا وخاصًا أكثر مما ينبغي. لقد انتقلنا بسلاسة من شكلٍ من أشكال خضوع النساء إلى شكل آخر، بينما نتظاهر بأن هذا الشكل الأخير هو التحرّر.

1- Laura House, 'Plan dinner the night before, NEVER complain and speak in a soft voice', 7 December 2016, www.dailymail.co.uk/femail/article-4011366/Cringeworthy-1950s-marriage-advice-teaching-housewives-look-husbands.html

2- http://www.cosmopolitan.com/sex-love/advice/g3765/ways-to-please-a-man /

3- http://www.cosmopolitan.com/uk/love-sex/sex/tips/g1508/turn-him-on-sex-tips /

4- http://www.cosmopolitan.com/sex-love/confessions/advice/g1788/how-to-turn-him-on/

وهذا التظاهر يؤذي «مارلين مونروهات» عصرنا، ولا سيما حين يكنّ فقيرات ووحيدات. وأهمّ ما أبتغيه في هذا الكتاب هو مخاطبة الشابات اللواتي خدعتهن النسويةُ الليبرالية، فيخاطرن باتّباع مثالٍ بالغ الخطورة.

لكن المتشبّهين بـ «هيو هيفنر» يتضرّرون أيضًا من هذا التظاهر، وإن كان ذلك على نحوٍ أقلّ وضوحًا. فالتعفّن البطيء في قصر بلاي بوي الذي كان يعيش فيه لا يقتل الإنسانَ، لكنه يُفسده. والسعادة الحقيقية لا تُوجَد على فراشٍ متّسخ تعتليه امرأة لا تكنّ لك ودًّا.

تُغري الأيديولوجيا الليبرالية عقولَنا بالقول إن رغباتنا جيّدة، وإننا نستطيع أن نجد المعنى في إشباعها مهما كان الثمن. غير أنّ زيف هذا الإطراء ينبغي أن يكون جليًا لكلّ من أدرك، بعد فوات الأوان، أنه أخطأ في اشتهاء شيءٍ ما، فأضرّ بنفسِه أو بغيرِه في سبيله. لذلك أقترح شكلًا بديلًا للثقافة الجنسية — شكلًا يعترف بالبشر الآخرين بوصفهم أشخاصًا حقيقيين، ذوي قيمة وكرامة حقيقيتين. لقد آن الأوان لثورةٍ جنسيةٍ مضادّة.

الفصل الثاني:

الرجال والنساء مختلفون

كتاب «تاريخ طبيعي للاغتصاب» (A Natural History of Rape) لـ «راندي ثورنهيل» (Randy Thornhill) و«كريج ت. بالمر» (Craig T. Palmer) ليس كتابًا يُفترض بالنسويات أن يُعجبهن،[1] بل ليس حتى كتابًا يُفترض بهن أن يقرأنَه. فبعد صدوره عام ٢٠٠٠، تعرّض مؤلّفاه لتنديد واسع في وسائل الإعلام، وتلقّيا، لفترة طويلة، عددًا كبيرًا من تهديدات القتل الجدية إلى حدّ أن الشرطة نصحتهما بتفقد سيارتيهما بانتظام تحسّبًا لوجود قنابل.[2] ولم تُستقبل محاولات «ثورنهيل» و«بالمر» لتقديم تفسير تطوّري للاغتصاب — إن جاز التعبير بلطف — استقبالًا حسنًا عمومًا.

غير أنّني، حين صادفتُ هذا الكتابَ لأول مرةٍ، قرأته بنَهَمٍ في جلسة واحدة، وانتهيت منه وأنا أشعر بالحزن العميق والرضا الشديد في آنٍ واحد. كنت أعمل آنذاك في مركز لأزمات الاغتصاب؛ وكان عملي يقتضي تقديم الدعم الفردي للنساء والفتيات اللواتي تعرّضن للاغتصاب، إلى جانب دورٍ تعليمي يتمثّل في تدريب المتطوّعين الجدد للمساعدة، والذهاب إلى المدارس لتقديم ورش عمل حول «الموافقة الجنسية» (Sexual consent). وكانت الأيديولوجيا التي كان يُنتظر مني تدريسها تعتمد اعتمادًا كبيرًا على نموذج أكاديمي بعينه لتفسير الاغتصاب، وقد بدأتُ، مع مرور الوقت، تُساورني الشكوك حيال هذا النموذج. وكان كتاب «تاريخ طبيعي للاغتصاب» كاشفًا بالنسبة إليّ، لأنه صاغ تلك الشكوك بوضوح ومنحها مضمونًا وثقلًا. وتبيّن لي أنني لم أكن مخطئة حين شعرتُ بوجود مشكلة في الفهم النسوي التقليدي للاغتصاب — فالمشكلة كانت حقيقية، ولم يكن بالإمكان تبديدها بالتمنّي.

1- Randy Thornhill and Craig T. Palmer, A Natural History of Rape: Biological Bases of Sexual Coercion. Chicago: MIT Press, 2000 .
2- Alice Dreger, Galileo's Middle Finger: Heretics, Activists, and One Scholar's Search for Justice. New York: Penguin, p. 124.

يظلّ كتاب «ضد إرادتنا» (Against Our Will) لـ «سوزان براونميلر» (Susan Brownmiller)، الصادر عام ١٩٧٥، النصّ النسوي التأسيسي حول الاغتصاب. وقد غدا عملًا كلاسيكيًا بحق، إلى درجة أنّ «مكتبة نيويورك العامة» اختارته عام ١٩٩٥ واحدًا من أهم مئة كتاب في القرن العشرين.[١] وهذه المكانة مستحقة، إذ جاء تحليل «سوزان براونميلر» ثوريًا ـــ وإن لم يخلُ من عيوب ـــ وفي لحظة تاريخية فارقة خلال ذروة الموجة النسوية الثانية. وعلى وجه الخصوص، كان طرحها القائل بأن الاغتصاب صُوِّر تاريخيًا، في الغالب، بوصفه جريمة اعتداء على «ملكية» أقارب المرأة الذكور، لا جريمةً ارتُكبت بحق المرأة نفسها، طرحًا صحيحًا وفي وقته. ولهذا لم يُجرَّم اغتصاب الزوجة ـــ أي إساءة استخدام «ملكية» الزوج ـــ إلا حديثًا نسبيًا في الغرب، ولا يزال الاغتصاب الزوجي قانونيًا في كثير من البلدان غير الغربية. وكانت المعركة من أجل تجريمه إحدى أعظم حملات النضال النسوي في القرن الماضي، ولم تُحسم بعد حسمًا كاملًا. وقد أسهم كتاب «ضد إرادتنا» في تعبئة هذه الجهود خلال سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، وكان ذلك إنجازًا بالغ الأهمية، يستحق الثناء من هذه الزاوية وحدها.

تتجلّى حُجّة «سوزان براونميلر» في اقتباس شهير من كتاب «ضد إرادتنا»، تصف فيه الاغتصاب بأنه «ليس أكثر ولا أقل من عملية ترهيب واعية يُبقي بها جميعُ الرجال جميعَ النساء في حالة خوف».[٢] ويُصوِّر نموذجُها الاغتصابَ بوصفه تعبيرًا عن هيمنة سياسية بقدر ما هو تعبير عن هيمنة جسدية. وبناءً على ذلك، ترى أن التمثيل المفرط للرجال بين مرتكبي الاغتصاب ليس نتاجًا لعلم الأحياء، بل لهيمنة النظام الأبوي؛ أي نظام اجتماعي يمنح امتيازًا لمصالح الرجال على حساب مصالح النساء. ووفقًا لهذا التصوّر، لا يُولد المغتصبون، بل يُصنَعون ـــ فهم نتاج ثقافة تشجّع الرجال على النظر إلى النساء بوصفهن أدوات جنسية. ومن ثمّ، لإنهاء الاغتصاب، ينبغي أولًا إنهاء النظام الأبوي.

على مدى الخمسين عامًا الماضية، ظلّ هذا الطرح مؤثّرًا بين النسويات على اختلاف توجهاتهن الأيديولوجية. فعلى سبيل المثال، كتبت «جيل فيليبوفيتش» (Jill Filipovic) في صحيفة الجارديان عام ٢٠١٣، معبّرةً عن فكرة نسوية سائدة ومنتشرة، أن الاغتصاب «يتعلّق بالقوة والعنف معًا. يستخدم المغتصبون الأعضاءَ الجنسية أدواتٍ لعنفهم، لكن الاغتصاب ليس

1- http://www.nypl.org/voices/print-publications/books-of-the-century
2- Susan Brownmiller, Against Our Will: Men, Women and Rape. New York: Simon & Schuster, 1975, p. 6. Kindle locations 238–9

متعلقًا بالجنس ولا معنيًا به، على الأقل ليس بمعنى الدافع الجنسي أو الرغبة الجنسية الخارجة عن السيطرة».[1] وغالبًا ما يُختصر هذا المعنى في عبارة موجزة: «الاغتصاب يتعلّق بالقوة، وليس بالجنس».

كنتُ أكرّر هذا الرأي كثيرًا بوصفي عاملة في مجال دعم ضحايا الاغتصاب — وربما استخدمتُ العبارةَ نفسها حرفيًا. وكنت أشعر أنَّ الرأيَ القائل بخلاف ذلك — أي الإيحاء بأن المغتصبين مدفوعون بالرغبة الجنسية، وليس بمجرد الرغبة في السيطرة والقوة — سيكون بمثابة تبرير لهم على هذا الفعل، وهو ما لم أكن أريده بطبيعة الحال، لا سيما وأنني كنت أشهد يوميًا الأذى الفادح والدائم الذي يخلّفه الاغتصاب. وإلى جانب ذلك، لا يخلو هذا الادعاء من قدرٍ من الحقيقة؛ فالتحرّش الجنسي في أماكن العمل، مثلًا، نادرًا ما يُمارَس من رجالٍ أدنى منزلةً ضد نساء أعلى منزلة. بل إنه يتبع تدرّجًا متوقَّعًا: يُرتكب من أصحاب سلطة أكبر ضد مَن هم أقل سلطة.

غير أنّني أدرك الآن أنني رغبتُ في تصديق أن «القوة» هي القصة كاملة إلى حدّ كبير؛ لأن الفرضية البديلة بدت لي قاتمة إلى حدّ يصعب احتماله. ففي مقدمة جديدة لكتاب «ضد إرادتنا» كُتبت عام ٢٠١٣، عرضت «سوزان براونميلر» — على نحوٍ غير منصف — هذا البديلَ على النحو الآتي:

> يؤمن بعض علماء الأحياء التطوريين إيمانًا قويًا بحتميةٍ كئيبةٍ مفادها أن «الرجال سيظلون رجالًا». ويُنظِّر عددٌ كبير من الداروينيين الجدد إلى أنَّ الاغتصابَ استراتيجيةٌ منخفضة الكلفة للذكور — المشحونين بدوافع العدوانية والتعدّد الجنسي والتكاثر — لنشر جيناتهم على نطاق واسع بأقل قدر ممكن من الاستثمار الأبوي. يا لها من حجة متأنّقة لتبرير الاغتصاب، ولتبرير الفشل في دفع نفقة الأطفال، بوصفهما سلوكًا طبيعيًا![2]

إذا اعتبرنا الاغتصاب «سلوكًا طبيعيًا»، فإننا — بحسب تصور «براونميلر» — نكون ملزمين بأن نراه، من باب أولى (١) سلوكًا جائزًا، ومن جهةٍ ثانية، (٢) أمرًا لا مفرّ منه. ويُعدّ هذا الادعاء الأول مثالًا كلاسيكيًا على المغالطة الطبيعية: أي الاعتقاد الخاطئ بأن كون الشيء طبيعيًا

1- Jill Filipovic, 29 August 2013, www.theguardian.com/commentisfree/2013/aug/29/rape-about-power-not-sex.

2- Brownmiller, Against Our Will. Kindle locations 92–3

يجعله بالضرورة حسنًا أو مشروعًا. أمّا الادعاء الثاني فمسألة أكثر تعقيدًا. فإذا كان الاغتصاب بالفعل نتاجًا للتطوّر، فهل يعني ذلك أنه حتمي الوقوع والحدوث؟

ليس بالضرورة ذلك، لكنه يجعله بلا شك أكثر صعوبة على الاستئصال. وأرى أن هذا هو أحد الأسباب الجوهرية وراء التردّد التاريخي لدى النسويات في تقبّل الطرح العلمي الذي تُبدي السيدة «براونميلر» تجاهه ازدراءً شديدًا. وبدلًا من ذلك، تواصل غالبية النسويات تفضيل نظرية التنشئة الاجتماعية بوصفها الإطار التفسيري الأجدر لفهم سلوك الرجال والنساء، في خيره وشرِّه على السواء.

وتحظى هذه النظرية بقبول واسع لدى النسويات الليبراليات — اللواتي تناولتُ مواقفهن بإسهاب في الفصل السابق — كما أنها شائعةٌ أيضًا بين المجموعة النسوية الأخرى التي لا تزال فاعلةً في القرن الحادي والعشرين، أي النسويات الراديكاليات، اللواتي يُعرَّفن عادةً بأنهن الداعيات إلى إعادة هيكلة جذرية لمجتمع يُنظَر إليه بوصفه قائمًا على تفوّق الذكور.

وتنطلق نظرية التنشئة الاجتماعية من افتراض مفاده أنه لا توجد فروق نفسية فطرية بين الرجال والنساء، وأنّ أيَّ فروق نلاحظها إنما هي نتاج التنشئة والتربية والبيئة، وليست نتاج الطبيعة. وهناك بالفعل بعض الأدلة التي تُسند هذا الطرح. ففي كتابها الشهير «أوهام النوع الاجتماعي» (Delusions of Gender)، تستعرض الأكاديميةُ والكاتبةُ الأسترالية «كورديليا فاين» (Cordelia Fine) التاريخَ الطويل لمحاولات الباحثين العثور على دليل قاطع على وجود فروق فطرية بين الجنسين، وتخلص إلى أن الحُجّة المؤيّدة لنظرية التنشئة الاجتماعية هي الحجة الأقوى علميًا. وتبيّن السيدة «فاين» كذلك أنَّ ثمةَ وفرة من الأدلة التي تشير إلى أن الذكور والإناث يتعرّضون لمعاملات مختلفة جذريًا على امتداد حياتهم. فعلى سبيل المثال، تصف «فاين» دراسةً نموذجيةً فتقول:

> عُرض فيها على أمهات ممرٌّ مائلٌ قابل للتعديل، وطُلب منهن تقدير درجة الانحدار التي يستطيع طفلُهن الزاحفُ، البالغُ أحدَ عشر شهرًا، التعامل مع هذا المرر ومحاولة اجتيازه. ولم تظهر فروق بين البنات والأولاد، لا في القدرة على الزحف ولا في الاستعداد للمخاطرة عند اختبارهم على الممر. غير أنّ الأمهات قلّلن من تقدير قدرات البنات، وبالغن في تقدير قدرات الأولاد — سواء من حيث القدرة على الزحف أو من حيث محاولات الزحف — ما يعني أنهن في الواقع العملي قد

يعتقدن خطأً، في كثير من الأحيان، أنَّ بناتِهن غيرُ قادرات على أداء أو حتى محاولة بعض الإنجازات الحركية، بينما يعتقدن، وبالقدر نفسه من الخطأ، أن أبناءهن قادرون على إنجاز غيرها.[1]

وتبدأ هذه الفروق في التنشئة الاجتماعية منذ لحظة الولادة، ولا نعرف على وجه الدقة مقدار تأثيرها طويل الأمد. غير أنّ الأرجح أن يكون لها بعض الأثر، وأن تكون الفروق النفسية الملحوظة بين الجنسين قابلة للعزو والإرجاع — ولو جزئيًا — إلى التنشئة الاجتماعية في الطفولة. ولهذا أولت النسويةُ في مرحلة ما بعد الموجة الثانية اهتمامًا خاصًا بتربية الأطفال، فعارضتْ الحركة النسوية، على سبيل المثال، الألعابَ أو الإعلانات التي تعزّز القوالبَ النمطية الجندرية.

ويقوم في صميم هذا المشروع لإعادة التنشئة تصوّرٌ طوباوي مفاده: إذا كانت الفروقُ التي نلاحظها بين الجنسين مُنشأةً اجتماعيًا بالكامل، فلا بدّ أن تكون قابلةً للإصلاح بالكامل عبر التغيير الثقافي. وهذا يعني أنه لو استطعنا جميعًا، هنا والآن، أن نقبل هذه الحقيقة ونشرع في تربية أطفالنا على نحو مختلف، لأمكننا خلال جيل واحد إعادة تشكيل العالم.

إنها فكرة جذّابة، وقد آمنتُ بها بصدق في السابق. غير أنّ الأدلة التي قدّمها مؤلفو «تاريخ طبيعي للاغتصاب»، إلى جانب عددٌ كبير من العلماء الآخرين، تُجبرنا على مواجهة احتمال أقل طمأنةً بكثير: ماذا لو لم يكن الأمرُ بهذه البساطة؟ ماذا لو كانت الهرميةُ، والعدوانيةُ، والعنفُ عناصرَ مغروسةً في البنية البشرية نفسها؟ وماذا لو كانت المهمّةُ النسوية أصعبَ بكثير مما كنا مستعدّين للاعتراف به حتى الآن؟

*****

الحيوانات البشرية

تكتب «سوزان براونميلر» في كتابها «ضد إرادتنا» (Against Our Will) أن «لا يوجد عالِمَ مختصٌ في علم الحيوان، على حدّ علمي، سبق له أن لاحظ حيواناتٍ تمارس الاغتصاب في

1- Cordelia Fine, Delusions of Gender. Cambridge: Icon, 2013, p. 198.

أماكنها الطبيعية، أي في البرية».[1] غير أن هذا الادعاء خاطئ — بل خاطئ على نحوٍ فادح — إذ إن عددًا كبيرًا من الحيوانات الأخرى يمارس الاغتصاب، كما أنه يتصرّف بطرائق فظيعة أخرى تشبه تلك التي يتصرّف بها البشر أحيانًا. وقد كشفت دراساتٌ عديدة نُشرت خلال السنوات السبع والأربعين الماضية هذه الحقيقةَ القاتمةَ، لكنها كانت معروفةً ومنتشرةً على نحوٍ جيّد بحلول عام ١٩٧٥. فعلى سبيل المثال، كان عالِم الرئيسيات البريطاني «جون ماكينون» (John MacKinnon) قد نشر قبل ذلك ببضع سنوات دراستَه الرائدةَ التي أمضى فيها خمسة عشر شهرًا ونصف الشهر يراقب إنسان الغاب في البرية، ووثّق خلالها حالات عديدة لـ «إناث غير راغبات يتعرّضن للاغتصاب على يد ذكور عدوانية».[2]

وقد لاحظ باحثون آخرون السلوكَ نفسَه لاحقًا بين إنسان الغاب،[3] وكذلك بين حيوانات أخرى.[4] ولسنا نحن البشر النوع الوحيد الذي يمارس الاغتصاب.

تعتمد نظرية التنشئة الاجتماعية على صيغة مضللة من الاستثنائية الإنسانية، تُفترض فيها إن الكائنات البشرية حالة فريدة: كائنات منفصلة بشكل مختلف، عن المسارات الاعتيادية للانتقاء الطبيعي، وفي الوقت نفسه شديدة القابلية للتشكّل بفعل الثقافة. ووفقًا لهذا التصوّر، لا نرتكب الأفعالَ الشريرةَ لأننا — مثل سائر الحيوانات — كائنات قابلة للخطأ، بل لأننا اخترنا، بوعي، أن نُنشئ ثقافات تُفسد «أطفالًا أبرياء» وتحولهم إلى كائناتٍ شريرة. وتُفضي هذه الرؤية، المعروفة باسم نظرية «الصفحة البيضاء»، إلى منح المجتمع سلطة شبه مطلقة في تشكيل الطبيعة الإنسانية، صعودًا نحو الخير أو انحدارًا نحو الشر، باعتبار الإنسان مادة خام قابلة لإعادة الصياغة والتشكُّل والتغيُّر.

غير أن هناك طريقة أكثر مصداقية لفهم العالم، وإن كانت تترك حيّزًا أضيق بكثير لفكرة قابلية الإنسان للوصول إلى الكمال، ولذلك فهي أقل جاذبية لدى الطوباويين. وبدلًا من أن نقلّد — من حيث لا نشعر — الأصوليين الدينيين في القرن التاسع عشر الذين قاوموا أفكار «داروين»، يمكننا أن نفهم البشر بوصفهم حيوانات — وبصورة أدق، أفراد في فصيلة

1- Brownmiller, Against Our Will. Kindle location 199
2- John MacKinnon, 141–91, at p. 175. 'The orang-utan in Sabah today ', Oryx 11 (1971)
3- B. M. F. Galdikas, Reflections of Eden: My Life with the Orangutans of Borneo. London: Indigo, 1996; John C. Mitani, 'Mating behaviour of male orangutans in the Kutai Game Reserve, Indonesia', Animal Behaviour 33 (1985): 392–402
4- Thornhill and Palmer, A Natural History of Rape, pp. 82–3

(Hominidae)، أي القِرَدة العليا — وهي فصيلة تصنيفية من الرئيسيات تضم سبعة أنواع أخرى لا تزال موجودة. وكما تكتب النسوية وعالِمة الأحياء التطورية «سارة بلافر هردي» (Sarah Blaffer Hrdy):

> لسنا مخلوقين جاهزين صُنعنا من ضلع أحدٍ ما، بل نحن حصيلة موروثات تطورية متعددة، تراكمت من بقايا عملية تطوّر استمرت بلايين السنين. وحتى هرمونات الإندورفين التي جعلت آلامَ المخاض والولادة محتملةً لم تنشأ من فراغ، بل تعود إلى جزيئات لا يزال البشر يشتركون فيها مع ديدان الأرض.[١]

وبفعل هذه التراكمات التطورية المتعددة، مقترنةً بضغوط الانتقاء الطبيعي التي تُفضِّل بعض هذه السمات، فإننا نظهر أحيانًا تعاطفًا، ولطفًا، وودًّا. وفي أوقات أخرى، نقتل، ونعذّب، ونغتصب. وكما هو الحال لدى سائر فصيلة القردة العليا، يختلف الذكور والإناث من نوعنا في نواحٍ مهمّة معيّنة — جسديًا وسلوكيًا على السواء.

فلنبدأ ببعض الفروق الجسدية. فالنساء البالغات يتمتعن، في المتوسط، بنحو نصف قوة الرجال البالغين في الجزء العلوي من الجسد، وبنحو ثلثي قوتهم في الجزء السفلي.[٢] وبصورة عامة، يستطيع الرجال رفعَ أوزان أكبر على مقاعد الضغط بنحو مرّة ونصف إلى مرّتين ونصف مقارنة بالنساء.[٣] كما يستطيعون توجيه لكمات أقوى بنسبة مماثلة.[٤] وفي قوة القبضة، تُنتج ٩٠٪ من النساء قوة أقل من تلك التي يُنتجها ٩٥٪ من الرجال.[٥] بعبارة أخرى، فإن معظم النساء أضعف جسديًا من معظم الرجال، وأي تحليل نسوي لديناميات القوة بين الرجال والنساء لا بدّ أن ينطلق من الاعتراف بهذه الحقيقة.

1- Sarah Blaffer Hrdy, Mother Nature: A History of Mothers, Infants, and Natural Selection. New York: Pantheon, 1999.
2- A. E. Miller, J. D. MacDougall, M. A. Tarnopolsky and D. G. Sale, 'Gender differences in strength and muscle fiber characteristics, European Journal of Applied Physiology and Occupational Physiology 66 (1993): 254–62.
3- Tal Amasay, Constance M. Mier, Katelyn K. Foley and Tonya L. Carswell, 'Gender differences in performance of equivalently loaded push-up and bench-press exercises' , Journal of Sport 5 (2016): 46–63
4- Paul Gabrielsen, 'Why males pack a powerful punch' , 5 February 2020, https://phys.org/news/2020-02-males-powerful.html .
5- D. Leyk, W. Gorges, D. Ridder et al., 'Hand-grip strength of young men, women and highly trained female athletes' , European Journal of Applied Physiology 99 (2007): 415–21.

ويستطيع الرجال أيضًا الجري أسرع من النساء، فضلًا عن توجيه ضربات أقوى. صحيح أن الفروق بين الجنسين تكون أقل حدّة في الرياضات والألعاب التي تُفضّل القدرة على التحمّل مقابل القوة البدنية الخالصة، لكنها تظلّ مع ذلك كبيرة. ففي السباحة وألعاب القوى الأولمبية، تبلغ إنجازات النساء في المتوسط نحو ٩٠٪ من إنجازات الرجال، وهي نسبة يُشار إليها أحيانًا باسم «النسبة الذهبية» في الأداء الرياضي.[1] وقد يبدو هذا الفارق ضئيلًا، لكنه يُترجم إلى فروق مذهلة عند الطرف الأعلى من التوزيع، حيث يوجد الرياضيون النخبة. ففي أولمبياد صيف ٢٠١٦، على سبيل المثال، فازت اللاعبة الجامايكية «إلين طومسون» (Elaine Thompson) بالميدالية الذهبية بزمن قدره ١٠,٧١ ثانية، بينما فاز مواطنها «يوسين بولت» (Usain Bolt) بزمن ٩,٨١ ثانية. وعلى الرغم من أن الفارق بين الزمنين يقلّ عن ثانية واحدة، فإن «إلين طومسون»، لو كانت قد شاركت مع الرجال في السباق نفسه، لما بلغت حتى النهائي. بل إن فتيانًا جامايكيين دون سن السابعة عشرة كانوا سيتفوّقون عليها بسهولة.[2] تمامًا كما هُزم المنتخب الوطني الأميركي لكرة القدم للسيدات عام ٢٠١٧ أمام فتيان أطفال دالاس دون الخامسة عشرة،[3] وهم فتيان كانوا قد تجاوزوا لتوّهم عتبة سن البلوغ، وبدأوا يكتسبون قوة الرجال البالغين وقدرتهم. ولهذا جرت العادة على حماية فئة النساء في الرياضات والألعاب النخبوية، لأنه لولا هذه الحماية، لما وُجدت نساء في الرياضات النخبوية أصلًا — إذ كان الرجال سيتفوّقون عليهن في كل مرة.

بالنسبة إلى معظم الناس، تُعدّ هذه الملاحظة من قبيل البداهة، ولا سيما أولئك الذين لديهم أي خبرة في التنافس الرياضي، أو حتى أولئك الذين خاضوا عراكًا بريئًا أثناء اللعب مع إخوة من الجنس الآخر. غير أنّه في القرن الحادي والعشرين، تبدو المجموعة الوحيدة التي تدفع في اتجاه إنكار حقيقة الفروق الجسدية بين الجنسين هي النسويات الليبراليات، إذ تقترح بعضُهن أن تُفتح فئةُ النساء في الرياضة أمام رياضيين متحولين جنسيًا انتقلوا من الذكورة إلى الأنوثة، وخضعوا لدرجة ما من التدخل الطبي بهدف الحدّ من آثار البلوغ الذكري. وتذهب بعض النسويات الليبراليات إلى أبعد من ذلك، إذ يجادلن بأن فئة النساء في الرياضة ينبغي حلّها بالكامل.

1- http://www.theatlantic.com/technology/archive/2012/08/the-golden-ratio-the-one-number-that-describes-how-mens-world-records-compare-with-womens/260758/
2- https://en.wikipedia.org/wiki/CARIFTA_Games#Boys_Under_17
3- http://www.truthorfiction.com/was-the-u-s-womens-national-team-defeated-by-teenaged-boys-in-a-2017-soccer-match /

فعلى سبيل المثال، كتبت النسوية البريطانية «لوري بيني» (Laurie Penny) عام ٢٠١٦ عن الجدل الدائر حول إشراك الرياضيين المتحولين جنسيًا في أولمبياد ذلك العام الصيفي، قائلة:

> إن الفصل الصارم بين الجنسين نادرًا ما يُناقش، وهو ما يسمح بتهميش منافسات النساء، مع ضمان ألا يُهزم أيُّ رياضي رجل على يد امرأة. لكن تقسيم الرياضة بحسب الجنس ليس أمرًا طبيعيًا ولا حتميًا.[١]

وقد عارضت هذه الفكرة بشدة رياضيات بارزات، من بينهن «باولا رادكليف» (Paula Radcliffe)، و«شارون ديفيز» (Sharron Davies)، و«كيلي هولمز» (Kelly Holmes) — وهنّ نساء لا تمثّل الفروق الجنسية بالنسبة إليهن مسألة فلسفية مجرّدة، بل واقعًا عمليًا مباشرًا — إذ اعترضن بقوة على هذا التوجّه.[٢] وقد شدّدت «ديفيز»، على سبيل المثال، على أنه «من أجل حماية رياضة النساء، ينبغي ألّا يُسمح لأولئك الذين يتمتعون بميزة جنسية ذكورية بالمنافسة في رياضة النساء».[٣]

وعلى خلاف ما تزعم «لوري بيني»، لا يسعى أيُّ رياضي إلى الإبقاء على الفصل الجنسي في الرياضة بدافع الخوف من أن تهزمه امرأة — فكل من يملك أدنى خبرة عملية بالرياضة يعلم أن مثل هذا الخوف ضربٌ من الخيال.

غير أنّ الاعتراف بهذه الأنواع من القيود الجسدية لا ينسجم مع المشروع النسوي الليبرالي، الذي يهدف إلى الطعن في أيِّ قيود تُفرض على الحرية الإنسانية. فإذا أقررنا بوجود فروق غير قابلة للإزالة بين الجنسين من حيث القوة والسرعة، فإننا نُجبر أيضًا على الإقرار — ليس فقط بأن الذكور بحسب الجنس عند الولادة لا يستطيعون المنافسة بعدالة في رياضة النساء — بل كذلك بأن الإناث بحسب الجنس عند الولادة يعانين من عجز جسدي دائم.

ولا تقتصر تبعات هذا العجز على مجال الرياضة فقط، بل تتجاوزه إلى مجالات أوسع بكثير، ولا سيما حين توضع قوة الجزء العلوي من جسد الرجل إلى جانب هشاشة حنجرة المرأة وجمجمتها. وفي هذا الزمن المعاصر، بات الإنسانُ قادرًا على تجاهل الفروق الجسدية بين الذكور

1- http://www.newstatesman.com/politics/sport/2016/07/olympics-one-question-will-hang-over-female-athletes-are-you-real-woman
2- http://www.bbc.co.uk/sport/47608623
3- https://www.theguardian.com/society/2019/mar/03/sports-stars-weigh-in-on-row-over-transgender-athletes

والإناث في حياته اليومية، طالما أنه لا يعمل في وظائف تتطلب جهدًا بدنيًا، ولا يشارك في منافسات رياضية، ولا يمرّ بتجربة الإنجاب؛ إذ في مثل هذه السياقات فقط يظهر أثر الجسد واختلافاته البيولوجية بوضوح. غير أن الحقيقة غير المريحة ستظلّ قائمةً دائمًا، سواء احتملنا النظر إليها أم لا: فمعظم الرجال قادرون على قتل معظم النساء بأيديهم الخالية من أي سلاح أو أدوات، لكن العكس ليس صحيحًا. وهذا أمرٌ له أهميته.

*****

الاختلافات فوق العنق

على خلاف نظيراتهنّ من النسويات الليبراليات، تُبدي النسويات الراديكاليات استعدادًا كاملًا للاعتراف بوجود فروق جسدية فطرية بين الجنسين. غير أنّه، وعلى نحوٍ متوقع، لا الليبراليات ولا الراديكاليات يرغبن في الذهاب خطوة أبعد من ذلك وقبول حقيقة أكثر إرباكًا: وهي أن هناك أيضًا فروقًا فطرية «فوق العنق». فالنسويات الراديكاليات الملتزمات بنظرية التنشئة الاجتماعية يمكنهن الإقرار بوجود قوة الجزء العلوي من جسد الذكور، لكنهن يرفضن الاعتراف بأسباب هذه القوة.

إن نمو الأكتاف العريضة والعضلية لدى الصبيان يستهلك طاقة جسدية كان يمكن توجيهها إلى عمليات طبيعية أخرى. وهذا يشير إلى أنه، خلال تاريخنا التطوري، كان الصبيان الذين طوّروا أجزاء علوية قوية من أجسادهم يتمتعون بميزة انتقائية. وفي الوقت الحاضر، نعلم أن الرجال ذوي الأجسام العلوية شديدة العضلية يُنظر إليهم بوصفهم أكثر جاذبية لدى النساء عبر طيف واسع من الخلفيات الثقافية،[1] كما نعلم أيضًا أن هذا النمط الجسدي يمنح أصحابه ميزة قتالية — سواء في مواجهة الحيوانات الأخرى أو في مواجهة رجال آخرين. ولا يمكن تفسير هذه الحقيقة إلا إذا اعترفنا بأن القتال قد لعب دورًا مهمًا في التاريخ التطوري للرجال، وهو ما يفرض علينا، بدوره، الاعتراف بأن السلوك المرتبط بالذكور والإناث لا بدّ أنه خضع للانتقاء الطبيعي.

1- Aaron Sell, Aaron W. Lukazsweski and Michael Townsley, ‘Cues of upper body strength account for most of the variance in men’s bodily attractiveness’, Proceedings of the Royal Society B: Biological Sciences 284 (2017) , https://royalsocietypublishing.org/doi/10.1098/rspb.2017.1819

غير أننا كثيرًا ما نصطدم بصعوبات حين نحاول إسقاط هذه الرؤية على العالم الواقعي، لأن القرّاء المتشككين في التفسير التطوري للسلوك الجندري سيستحضرون على الأرجح أمثلة لرجال يعرفونهم لا يتمتعون بأكتاف عريضة على نحو ملحوظ، ولم يُبدوا يومًا اهتمامًا بالقتال من أي نوع. ومن السهل جدًا أن نسمع عبارة «الرجال والنساء، في المتوسط، يكونون على نحوٍ ما»، فنفهمها خطأً على أنها تعني «الرجال والنساء دائمًا على هذا النحو»، وهو ما يعرف أيُّ شخص لديه أدنى خبرة بالحياة أنه غير صحيح. فهناك كثير من الرجال والنساء الذين يختلفون جسديًا عن غيرهم من أبناء جنسهم، كما أن عددًا كبيرًا منهم لا يندرج ضمن القوالب النمطية للذكورة أو الأنوثة من حيث الاهتمامات والسلوك. بل أذهب أبعد من ذلك لأقول إن أحدًا تقريبًا ليس تجسيدًا مثاليًا وكاملًا لقالب جندري نمطي؛ فلديّ أنا نفسي بعض السمات التي تُعدّ نمطية أنثويًا، وأخرى تُعدّ نمطية ذكوريًا، وأنا واثقة بأن الأمر نفسه ينطبق عليك.

لكن هذا النوع من الأدلة القصصية لا يُفنِّد الادعاءَ بوجود فروق متوسّطة مهمّة بين الجنسين، ولا ينفي أن لهذه الفروق أثرًا ملموسًا على مستوى الجماعات السكانية. ويمكننا في آنٍ واحد أن نؤكد كثرة الاستثناءات، وأن نقرّ بأنه لا خطأ في أن يكون المرءُ استثناءً، مع الاعتراف في الوقت نفسه بوجود القاعدة.

نحن نوع يتميّز بازدواجية جنسية، وإن لم تكن هذه الازدواجية بالحدّة التي نراها لدى بعض الأنواع الأخرى. فعلى سبيل المثال، ذكر فقمة الفيل الشمالية، الموجودة في شرق المحيط الهادئ، يزيد وزنُه على وزن الأنثى بنحو ثلاثة أضعاف، كما يُظهر الذكور والإناث في هذا النوع أنماطًا سلوكية مختلفة اختلافًا لافتًا من حيث الغذاء والهجرة. وليس من قبيل المصادفة أن يكون هذا النوع شديد التعدد الزوجي، إذ يقوم ذكر واحد بتلقيح ما يصل إلى خمسين أنثى خلال موسم تزاوج واحد. وعلى النقيض من ذلك، فإن ذكر فقمة المرافئ، المنتشرة على السواحل القطبية والأوروبية، يقارب وزن الأنثى إلى حدّ كبير، ويغلب على هذا النوع نمط أحادي التزاوج، مع تشابه واضح في سلوك الذكور والإناث. ونحن أقرب إلى فقمات المرافئ مما نحن إلى فقمات الفيل؛ إذ إن إناث البشر يزنّ، في المتوسط، أقل بنحو ٢٥٪ فقط من الذكور، كما أن البشر لا يمارسون تعدّد الزوجات على نطاق واسع. ومع ذلك، تبقى هناك درجة من الازدواجية الجنسية في التعامل مع الرجال والنساء التي، وإن كانت قد تُخفَّف بفعل الظروف الثقافية، تظلّ واضحة وموجودة في كل مجتمع بشري.

وتكمن الإشكالية في أننا نختلف عن فقمات المرافئ وفقمات الفيل الشمالية في جانبٍ حاسم واحد: فنحن، بوصفنا نوعًا، نتمتع بذكاء فريد. وهذا يعني أننا، بخلاف الحيوانات الأخرى، قادرون — إلى حدّ ما — على مخالفة غرائزنا، كما أننا استطعنا، بخلافها أيضًا، الانتشار في شتى أنحاء الكوكب والتكيّف مع نطاق واسع من البيئات. وقد يؤدي هذا التنوّع في الظروف المادية أحيانًا إلى تطور المجتمعات البشرية في اتجاهات متباينة جدًا. فعلى سبيل المثال، تبدو عادات التزاوج في بعض الثقافات غريبة بالنسبة إلينا؛ فشعب «نا» (Na) في الصين معروف بعدم وجود مؤسسة للزواج لديه وبقمعه المتعمّد للارتباط الزوجي طويل الأمد،[١] كما تعتقد بعضُ الجماعات في الأمازون أنَّ الطفلَ يمكن أن يكون له أبوان بيولوجيان أو أكثر. أما عادات التزاوج غير المألوفة في الغرب المعاصر في القرن الحادي والعشرين — وهو موضوع هذا الكتاب — فهي ليست نتاج المناخ أو الجغرافيا، بل ثمرة تقنيات جديدة لم تكن متاحة للبشر في الماضي، كما ذكرتُ في الفصل الأول.

لكن كلّ هذا التنوّع يقوم، في نهاية المطاف، على أساسٍ بيولوجي. وقد تبذل النسوياتُ الليبراليات والناشطون المتحولون جنسيًا جهدَهم لإنكار ذلك، إلا أنّ الحقيقة تبقى أن نصف الجنس البشري فقط هو القادر على الحمل، وهذه الحقيقة — ما لم تُخترَع أرحام اصطناعية — ستظل قائمةً إلى أن يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها. وما يزيد الأمرَ تعقيدًا أنّه، حتى لو افترضنا أننا استطعنا، بطريقة ما، إقصاء الجسد البشري تمامًا من عملية التكاثر، فسيبقى لدينا الدماغ البشري، الذي يظل نتاجًا لتاريخنا التطوري. فالانتخاب الطبيعي لم يواكب وتيرة التغيّر الاجتماعي السريع، وأدمغتنا الحالية لا تختلف كثيرًا عن أدمغة أسلافنا في القرن التاسع عشر، بل ولا حتى عن أدمغة أسلافنا من الصيادين وجامعي الثمار، إذ إن نمط الصيد والجمع كان أول تكيف بشري وأشدّها نجاحًا، واستغرق ما لا يقل عن ٩٠٪ من تاريخ البشرية.

إن تأثير الانتخاب الطبيعي في الفروق النفسية بين الرجال والنساء مسألة شائكة سياسيًا لسبب وجيه: إذ يسهل إساءة استخدامها. وغالبًا ما يُتَّهم علماء النفس التطوريون من قبل منتقديهم بسرد «حكايات تبريرية» (Just So Stories) تبدو مقنعةً للإنسان لكنها تفتقر إلى أدلة حقيقية، ولا يخلو هذا الاتهام من قدر من الصحة. فقد أطلق بعضُ المنظّرين الهواة — بل

١- شعب نا (أو الموسو) في جنوب غرب الصين يُعدّ من أكثر المجتمعات تفرّدًا في العالم لأنه لا يعرف مؤسسة الزواج التقليدية، بل يقوم نظامه الاجتماعي على ما يُسمّى بـ «الزواج السائر»، حيث تُبنى العلاقات العاطفية دون سكن مشترك أو عقد زواج، ويظل كل فرد يعيش في بيت عائلته. أما الأطفال فينتمون إلى أسرة الأم، ويتولى تربيتهم الأخوال والنساء، بينما لا يكون للأب دور قانوني أو اقتصادي مباشر. يقوم هذا النظام على القرابة عبر الأم، وتنتقل الملكية والاسم عبر النساء، مما يجعل المجتمع أموميًا لا أبويًا. (المترجم)

وحتى بعض المحترفين ــــ العنانَ لخيالهم، وكان من المؤسف أن أكثرهم استفزازًا في هذا الصدد هم المعادون للنسوية.

ومن الآثار السلبية لرفض النسويات لعلم النفس التطوري أن معظمهن قد تعمّد الابتعاد عن هذا الحقل، فكان دورهن في تشكيله هامشيًا للغاية. بل إن مجرّد فكرة وجود فروق نفسية تطورية بين الجنسين أصبحت من المحرّمات في بعض الأوساط، إلى درجة أن مجرد طرح هذا الاحتمال يُعدّ دليلًا على نزعة معادية للنسوية. ففي عام ٢٠١٧، نشر أحد مهندسي شركة جوجل «جيمس دامور» (James Damore) مذكرةً داخلية اقترح فيها أن نقص تمثيل النساء في الشركة قد يكون، جزئيًا، نتيجة لما سمّاه «الاختلافات في توزيعات السمات بين الرجال والنساء».[١] وقد كان البحث العلمي الذي استند إليه «دامور» سليمًا من الناحية العلمية، ومع ذلك فُصل من عمله لانتهاكه لائحة السلوك الخاصة بشركة جوجل، مما أثار عاصفةً إعلاميةً واسعةً.

وتكمن نتيجة هذا الحظر والمنع في أن الأشخاص المستعدين علنًا لدعم التفسير التطوري يقعون غالبًا في إحدى فئتين: إما أنهم غير واعين أصلًا بوجود هذا الأمر الممنوع والمحظور (وكان «دامور» ــــ بحكم إصابته بالتوحّد ــــ على الأرجح من هذه الفئة)،[٢] أو أنهم معادون للنسوية بالفعل. ومن اللافت أن كثيرًا من المتحمسين غير المتخصصين لعلم النفس التطوري يركّزون تركيزًا مفرطًا على قضية واحدة بعينها: سياسات التمييز الإيجابي الهادفة إلى زيادة تمثيل النساء في مجالات العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات (STEM). وقد كان جزء من الهجوم على «دامور» نابعًا من واقع أن النساء العاملات في مؤسسات يهيمن عليها الرجال، مثل جوجل، يتعرّضن يوميًا لإهانات جنسية تتراوح بين الاستعلاء والتحرّش الجنسي الصريح، ومن ثم أصبح من المفهوم تمامًا أن يتحسسن من الحديث الركيك عن «عقول ذكورية» و«عقول أنثوية»، لما قد يوفّره من غطاء لادعاءات دونية النساء وفوقية الرجال.

وأجدني أميل إلى الاتفاق مع «دامور» في أن نقص تمثيل النساء في مجالات (STEM) يعود جزئيًا إلى فروق بيولوجية فطرية، غير أنّ هذه الفروق ــــ كما كتب «دامور» نفسه في مذكرته الأصلية ــــ «صغيرة في كثير من الأحيان، وهناك تداخل كبير بين الرجال والنساء، بحيث

1- https://web.archive.org/web/20170809021151/https://diversitymemo.com/
2- http://www.theguardian.com/technology/2017/nov/16/james-damore-google-memo-interview-autism-regrets

لا يمكن الجزم بشيء عن الفرد استنادًا إلى هذه التوزيعات على مستوى السكان».[1] وما نتحدث عنه، حين يتعلق الأمر بالاهتمام في عالم التكنولوجيا شديد التخصص، هو منحنيان جرسيّان متداخلان، وكما هو الحال في الرياضات والألعاب التي تعتمد على قوة التحمل وليس القوة البدنية، لا تظهر الفروق المتوسطة بوضوح إلا عند الأطراف القصوى للتوزيع.

ومع أن الفروق الجنسية في مجالات (STEM) ذات أهمية فعلية لمن يعملون في تلك الميادين، فإنها، في الصورة الأوسع، مسألة ثانوية. فهناك فروق نفسية أكبر وأكثر أهمية بين الجنسين تستحق اهتمامنا وتركيزنا. غير أنني كثيرًا ما ألاحظ، حين أتحدث مع نمط معيّن من المتحمسين الذكور لعلم النفس التطوري، أنهم غير مهتمين بمناقشة هذه القضايا. فإذا قلت إنني أعتقد أن «دامور» عومل بظلم، أومأوا موافقين بسرور؛ لكن ما إن أطرح مسألة عنف الرجال ضد النساء حتى يختفوا فجأة من المشهد، لأن هذه القضية لا تضع الرجال في صورة مُرضية.

أو الأسوأ من ذلك، أنهم يقعون في مغالطة الطبيعة. ففي عام ٢٠٢٠، استقطب «ويل نولاند» (Will Knowland)، وهو مدرس لغة إنجليزية في كلية إيتون — أقدم وأرقي مدرسة في المملكة المتحدة — قدرًا كبيرًا من الاهتمام الإعلامي حين فُصل من عمله بسبب إنتاجه مقطع فيديو بعنوان «مفارقة النظام الأبوي» ضمن دورة في التفكير النقدي موجهة للطلاب الكبار سنًا.[2] وقد زعم «نولاند» لاحقًا أن معاقبته جاءت لأن «مدير المدرسة رأى أن بعض الأفكار التي طرحتُها في محاضرتي — مثل القول إن الرجال والنساء يختلفون نفسيًا، وأن هذه الفروق ليست كلها نتاجًا للتنشئة الاجتماعية — كانت خطيرة جدًا بحيث لا ينبغي تعريض الفتيان لها».[3] ولا أشك في أن هذا كان بالفعل سببًا رئيسيًا لتعثر «نولاند» مع سلطات كلية إيتون، ولو جزئيًا. غير أنني، على الرغم من تعاطفي مع «دامور» بالنظر إلى ما تعرّض له من شركة جوجل، لا أشعر بالتعاطف نفسه مع «نولاند».

فبعض ادعاءاته كانت خاطئة بشكل فجٍّ وواضح، كما أنه قليل المعرفة والفهم للنسوية، ويتجلّى ذلك مثلًا في استخدامه مصطلح «النسوية الراديكالية» بمعنى «النسوية المتطرفة» — وهو خطأ دالّ في حد ذاته على قلة علمه ومعرفته. ومع أن مقطع الفيديو الذي قدّمه يغطي بعض

1- Google's ideological echo chamber.
2- http://www.youtube.com/watch?v=wTHgMxQEoPI
3- http://www.telegraph.co.uk/news/2020/11/26/exclusive-eton-college-dismisses-teacher-amid-free-speech-row /

الأرضية نفسها التي تناولتها في هذا الفصل، مثل الفروق في القوة والعدوانية بين الرجال والنساء، فإن «نولاند» يستخدم علم الأحياء التطوري ليدلل على أن النساء أدنى شأنًا من الرجال بطبيعتهن (لا أصغر وأضعف فحسب، بل أيضًا أقل إبداعًا وابتكارًا)، وبأن الرجال كانوا الضحايا الحقيقيين على امتداد التاريخ البشري، في حين جرى تدليل النساء.

وأفهم تمامًا لماذا ينفر هذا العدد الكبير من النسويات من أي ارتباط بأيديولوجيا معادية للنسوية من طراز ما يقدّمه «نولاند». غير أننا لا ينبغي أن نردّ على إساءة استخدام دليل علميّ ما برفض هذا العلم برمّته. فالأدلة العلمية في ذاتها محايدة أخلاقيًا، ويمكن توظيفها في شتى الأغراض السياسية، بما في ذلك الأغراض النسوية. وقد كان كتاب «التاريخ الطبيعي للاغتصاب» (A Natural History of Rape) صادمًا لي لأنه نبّهني إلى الإمكانات النسوية الكامنة في علم النفس التطوري، وهو حقل كنت قد رفضته سابقًا لكونه مثيرًا للريبة.

*****

الاغتصاب بوصفه تكيّفًا تطوريًا

كنتُ قد كتبتُ في الفصل الأول أن السؤال النسوي المركزي لا ينبغي أن يكون: «كيف يمكننا جميعًا أن نكون أحرارًا؟»، بل بالأحرى: «كيف يمكننا على أفضل وجه تعزيز رفاه الرجال والنساء معًا، في ضوء كون هاتين المجموعتين تمتلكان مصالح مختلفة، قد تكون متعارضة أحيانًا؟». ويلفت علم النفس التطوري الانتباهَ إلى مواطن التوتر بين مصالح الرجال والنساء، وهو ما يجعل هذا الحقل المعرفي صعب التوفيق مع تركيز النسوية الليبرالية على الحرية، أو مع تركيز النسوية الراديكالية على الطوباوية. غير أنّه إذا تخلّينا عن السعي وراء الحرية المطلقة أو المدينة الفاضلة، وبدأنا التفكير بصورة أكثر برجماتية في كيفية حماية مصالح النساء على أفضل نحو في هذا الواقع الراهن، فإننا نستطيع إعادة النظر في علم النفس التطوري بوصفه أداة مفيدة.

لقد سعيتُ إلى قراءة كتاب «التاريخ الطبيعي للاغتصاب» (A Natural History of Rape) لأنني كنتُ منزعجة من أسئلة معيّنة عجزت نظريةُ التنشئة الاجتماعية عن الإجابةِ عنها — مثل: لماذا تشكّل المراهقات نسبة مرتفعة إلى هذا الحد من ضحايا الاغتصاب؟ لقد منحتني

خبرتي الشخصية في العمل مع الضحايا لمحةً عن التركيبة الديموغرافية، ثم جاءت أبحاثٌ أكثر منهجية لتؤكّد ما كنت أشتبه فيه: إذ توجد ذروة واضحة جدًا في تعرّض الإناث للاعتداء الجنسي، حيث يرتفع الخطر بسرعة كبيرة بعد سن الثانية عشرة تقريبًا، ثم ينخفض — وبوتيرة شبه مماثلة — بعد سن الثلاثين تقريبًا. وقد تُستهدف الفتيات الصغيرات جدًا والنساء الكبيرات جدًا في السن أحيانًا، لكن ذلك نادر؛ فالضحية النموذجية هي فتاة في الخامسة عشرة،[١] كما أن نسبة الضحايا الإناث اللواتي تجاوزن الثلاثين عند تعرّضهن للاغتصاب تقع ضمن القلة النادرة.[٢] وتساءلتُ حينها: هل يمكن حقًا أن يكون من قبيل المصادفة أن يكون العمر الذي تبلغ فيه ضحايا الاغتصاب ذروته هو نفسه العمر الذي كنتُ فيه شخصيًا أكثر عرضة للتحرّش الجنسي في الشارع؟ اتّضح أن الأمر ليس مصادفةً، كما يكتب عالِما الاجتماع «ريتشارد فيلسون» (Richard Felson) و«ريتشارد موران» (Richard Moran) وقالا:

> لقد أظهرت العلوم الاجتماعية وجودَ علاقةٍ قوية بين العمر والجاذبية الجنسية. فالرجال ينجذبون جنسيًا إلى النساء الشابات، في حين ينجذب الرجالُ المثليون إلى الرجال الشباب. وتفسّر تفضيلاتُ العمر هذه سببَ كون نجمات أفلام الإباحية، والعاملات في الجنس، والراقصات الاستعراضيات، وكذلك عارضات الإغراء، غالبًا شابات، ولماذا تتراجع أرباحهن مع التقدّم في السن.[٣]

وتبلغ معدلات تعرّض النساء للاغتصاب، وكذلك جاذبيتهن الجنسية، الذروةَ في العمر نفسه تمامًا — إذ تتطابق المنحنيان تقريبًا بصورة كاملة. ولا تستطيع نظرية التنشئة الاجتماعية تفسير ذلك، لأنّه إذا كان «الاغتصاب يتعلق بالسلطة وليس بالجنس»، فلماذا يصادف أن يستهدف المغتصبون الفئةَ العمرية نفسَها التي تصادف أيضًا أنها الأكثر جاذبية جنسيًا للرجال؟

ثم هناك مسألة أعمار المغتصبين أنفسهم. فمع أن هذا الانحراف العمري ليس حادًا كما هو الحال لدى الضحايا الإناث، إلا أنّ هناك ذروة واضحة بين الرجال الشباب: فقد وجدت إحدى الدراسات أن ٤٦٪ من المغتصبين دون سن الخامسة والعشرين، و١٧٪ دون سن الثامنة عشرة،

1- Richard B. Felson and Patrick R. Cundiff, 'Sexual assault as a crime against young people' , Archives of Sexual Behavior 43 (2014): 273–84.
2- Thornhill and Palmer, A Natural History of Rape, p. 72.
3- https://quillette.com/2016/01/02/to-rape-is-to-want-sex-not-power/

و١٥٪ دون سن الخامسة عشرة.[1] ويتوافق هذا النمط ليس فقط مع التوزيع العمري لمجرمي العنف عمومًا — الذين يشكّل الرجال الشباب الغالبية الساحقة منهم — بل أيضًا مع ذروة الدافع الجنسي للذكر.[2] ومرة أخرى، إذا كان «الاغتصاب يتعلق بالسلطة وليس بالجنس»، فلماذا يكون الأمر على هذا النحو؟

وكانت هناك مسألة أخرى أثارت شكوكي عندما فتحتُ كتاب «التاريخ الطبيعي للاغتصاب» للمرة الأولى. ففي استطلاعات الضحايا، تتراوح نسبة ضحايا الاغتصاب من الذكور عادة بين ٢ و٥٪، ويُرتكب معظم هذه الاعتداءات على يد رجال آخرين. وقد لاحظتُ، عند مراجعة البيانات، أن هذه النسبة تقارب تقريبًا نسبة الرجال الذين يعرّفون أنفسهم بأنهم مثليون أو ثنائيو الميول الجنسية — وهو ما يُعدّ، وفق نموذج «براونميلر»، مجرد مصادفة، لكنه يصبح ذا دلالة كبيرة إذا تجاوزنا هذا النموذج. فبالنظر إلى أن الرجال المثليين وثنائيي الميول الجنسية يرتكبون الاغتصاب بمعدلات مماثلة للرجال المغايرين، فإن ضحايا هؤلاء المغتصبين تشمل، بطبيعة الحال، رجالًا وفتيانًا آخرين. وبناءً على ذلك، هل ينبغي لنا الاستمرار في فهم الاغتصاب بوصفه تعبيرًا عن هيمنة سياسية متجذّرة في النظام الأبوي؟ أم ينبغي لنا، بدلًا من ذلك، النظر في احتمال أوضح بكثير: أن الاغتصاب هو تعبير عدواني عن الرغبة الجنسية؟

تأتي مقاومة هذه الأدلة البحثية من جماعتين مختلفتين جدًا، تميل كلتاهما إما إلى تجاهل البيانات العلمية أو إلى المجادلة الشكلية حولها، وتنتهي — على نحوٍ مفارق — إلى ترديد صدى بعضهما بعضًا. الأولى هي ناشطو «حقوق الرجال» المعادون للنسوية، والثانية هي بعض النسويات اللواتي، سعيًا إلى أقصى درجات الشمول، يتعمّدن تجنّب إطلاق أي تعميمات تتعلّق بالمغتصبين أو بضحاياهم.

فأثناء تقديم ورشات تدريبية، كان أحد زملائي في مركز أزمات الاغتصاب يستخدم — على سبيل المثال — عبارة: «أشخاص من جميع الجندرات يعتدون جنسيًا على أشخاص من جميع الجندرات»، وهي عبارة صحيحة تقنيًا، بمعنى أنه يمكن العثور على أمثلة لكل تركيب ممكن من الجاني والضحية، لكنها جملة مضلِّلة في طريقة تأطيرها ووصفها للمسألة.

1- T. A. Gannon, R. M. Collie, T. Ward and J. Thakker, ‘Rape: psychopathology, theory and treatment’, Clinical Psychology Review 28 (2008): 982–1008.
2- Thornhill and Palmer, A Natural History of Rape, p. 134.

ففي كل أنحاء العالم، تتراوح نسبة المدانين بجرائم الاعتداء الجنسي من الذكور بين ٩٨ و٩٩٪، أما النساء اللواتي يشكّلن النسبة المتبقية (١ إلى ٢٪) فيرتكبن الجرائم عادةً على نحوٍ مختلف تمامًا. فالنساء، على سبيل المثال، أكثر ميلًا إلى ارتكاب الاعتداء بالاشتراك مع جانٍ ذكر (غالبًا زوج أو شريك)، ونادرًا ما يعتدين على غرباء. ولا يعني هذا أنه لا توجد أي حالات لنساء ارتكبن اغتصاب غرباء أو جرائم نمطية «ذكورية» أخرى — ففي عالم يتجاوز عدد سكانه سبعة مليارات نسمة، تقع أحداث نادرة يوميًا — لكن الادّعاء بعدم وجود نمط واضح هنا يبلغ حدّ السذاجة، بل عدم الأمانة.

أنا أتأسف أن الاغتصاب جريمة ذكورية، وليس فقط في نوعنا البشري، بل في أنواع كثيرة أخرى أيضًا. وقد تطوّر هذا السلوك لسبب بالغ الوضوح؛ فكما يعبّر «رانجهام» و«بيترسون»: «دخل الاغتصاب ضمن الذخيرة السلوكية لبعض الأنواع لأنه قادر على زيادة نجاح الذكر الفرد في تمرير جيناته إلى الجيل التالي (كما يجب، في نهاية المطاف، أن تفعل كل السلوكيات المتطوّرة)».[1] وبعبارة أخرى، هو أحد الأساليب التي يستطيع بها الذكور التكاثر — وهو يمنح، في بعض السياقات، ميزةً انتقائية.

وهذه هي الأطروحة المركزية لكتاب «التاريخ الطبيعي للاغتصاب» (A Natural History of Rape)، وهو كتاب يطبّق النظرية التطورية على فهم أسباب الاغتصاب، وأفضل السبل لمنعه. وينطلق المؤلفان من الإقرار بأن التكاثر يفرض متطلبات جسدية أكبر بكثير على النساء مقارنةً بالرجال (وأنا أكتب هذا وأنا في الشهر السادس من الحمل، وأستطيع أن أشهد بذلك شخصيًا). فالحمل يستمر أكثر من تسعة أشهر، يعقبه مخاض خطير، ثم سنوات إضافية من الرضاعة الطبيعية ورعاية الرضيع.

أما الرجال، فلا يحتاجون — من حيث المبدأ — إلى بذل أكثر من الجهد اللازم للوصول إلى النشوة من أجل التكاثر. وقد يكون من المفيد أيضًا أن يبقى الآباء إلى جانب الأم بعد الحمل، بما يزيد من فرص بقاء الأم والطفل، لكن هذا ليس ضروريًا دائمًا؛ إذ يمكن لرجل «التحايل على النظام» عبر تلقيح امرأة ثم التخلي عنها، والانطلاق لتلقيح نساء أخريات، وبذلك ينجح هو الآخر في نشر مادته الجينية. صحيح أنه يعرّض نفسه لخطر الانتقام، بما في ذلك العنف من أقارب

1- Richard Wrangham and Dale Peterson, Demonic Males: Apes and the Origins of Human Violence. London: Bloomsbury, 1997, p. 140.

المرأة الذكور، لكن في بعض الحالات قد تفوق الفوائدُ المخاطرَ. وبصيغة أخرى، هناك أنماط مختلفة من الطبيعة الجنسية الذكورية: نمط يشجّع على الالتزام، ونمط يشجّع على التعدّد الجنسي (وسنعود إلى هذا بتفصيل أكبر في الفصل الرابع).

عندما نُشر كتاب «التاريخ الطبيعي للاغتصاب» لأول مرة، واجه قدرًا كبيرًا من النقد النسوي، وقد أساء بعض النقاد تمثيل محتواه.[1] وأساء كثيرون فهمَ الحجة المطروحة، أو رفضوا تصديق أن «ثورنهيل» و«بالمر» كانا صادقين في إدانتهما للاغتصاب، رغم حرص المؤلفين طوال الكتاب على إبراز الضرر الذي يسببه الاغتصاب، واختيارهما إهداء العمل إلى «النساء والفتيات في حياتنا».

وقلّة قليلة فقط من هؤلاء النقاد النسويين أدركوا مدى الفائدة التي يمكن أن يقدّمها الكتاب في تصميم سياسات فعّالة حقًا لمنع الاغتصاب، بل وفي التفكير بصورة أوسع في الكيفية التي قد تؤثر بها الثقافة الجنسية في الرجال والنساء على نحوٍ مختلف. وأنا أؤمن بقوة أن هذا العداء لعلم الأحياء التطوري خطأ، ولهذا السبب سأواصل، في بقية هذا الكتاب، الاستعانة بأعمال علماء الأحياء التطورية في صياغة حجج نسوية. فبمجرد أن نقبل بأن الرجال والنساء مختلفون، تترتب على ذلك نتائج كثيرة أخرى.

*****

كيف نحتمل ذلك

ما نسبة الرجال الذين لديهم رغبة في الاغتصاب؟ ليسوا جميعًا، ويسعدني أن أقول ذلك، وإن كانت النسبة — مع الأسف — لا تزال مرتفعةً على نحوٍ مُقلِق، كما يكتب عالم الأحياء التطوري «ديفيد باس» (David Buss):

> يختلف الرجال في ميلهم إلى الاغتصاب. ففي إحدى الدراسات، طُلب من الرجال أن يتخيلوا أن لديهم إمكانية فرض الجنس على امرأة ضد إرادتها من دون أي احتمال للقبض عليهم، ولا أي فرصة لانكشاف الأمر، ولا خطر للإصابة بمرض، ولا أي احتمال لتضرر سمعتهم. فأشار ٣٥٪ إلى وجود احتمال — ولو ضئيل في

1- Dreger, Galileo’s Middle Finger, pp. 118–20.

معظم الحالات — لأن يُقدموا على فرض الجنس على المرأة في ظل هذه الظروف. وفي دراسة أخرى استخدمت منهجية مماثلة، أشار ٢٧٪ من الرجال إلى وجود احتمال لأن يُقدموا على فرض الجنس إذا لم يكن هناك أي احتمال للقبض عليهم. وعلى الرغم من أن هذه النسب مرتفعة على نحوٍ مُقلِق، فإن أخذها على ظاهرها يشير أيضًا إلى أن معظم الرجال ليسوا مغتصبين محتملين.[١]

وتُقرّ نسبة أصغر من الرجال بأنهم ارتكبوا فعلًا اغتصابًا، وغالبًا ما تُصاغ الأسئلة في الاستبيانات بعبارات من قبيل «إجبار شريك غير راغب على ممارسة الجنس». وفي الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، تدور هذه النسبة حول ١٠٪. وفي عملها، تستخدم عالمة النفس الاجتماعي وخبيرة العنف الأسري «دينا ماكميلان» (Dina McMillan) كذلك نسبة ١٠٪ بوصفها تقديرًا تقريبيًا لنسبة الرجال الذين يُعدّون خطرين بشكل مؤكد.[٢] فهناك أقلية ستكون عدوانية جنسيًا في معظم الظروف، وأقلية أكبر ستكون عدوانية جنسيًا في بعض الظروف. ومع ذلك، يعني هذا — ولحسن الحظ — أن غالبية الرجال ليسوا مغتصبين محتملين؛ وأن هاشتاج #NotAllMen سيئ السمعة هو صحيحٌ بالفعل.

لكن، للأسف، ليس من السهل على الضحايا المحتمَلات التعرّف إلى المغتصبين المحتملين. ويشير «ثورنهيل» و«بالمر» إلى أنه، كما هو متوقّع، «يُظهر المغتصبون المسجونون استثارةً جنسية أعلى بكثير عند مشاهدة صور الإكراه الجنسي المصحوب بالقوة الجسدية مقارنةً بالرجال الذين لم يُدانوا بجرائم جنسية ولم يسجنوا».[٣] ويضيف «باس» أن المغتصبين، من حيث السمات الشخصية، يميلون إلى أن يكونوا أكثر اندفاعية، وعدائية، وصعوبة في التعامل، وأكثر ميلاً لتعدّد العلاقات الجنسية، ومبالغة في الذكورية، وأقل تعاطفًا مقارنةً بغيرهم من الرجال.[٤] وبعبارة أخرى، قد يكون من الممكن أحيانًا تمييز المغتصبين — أو على الأقل تعميم بعض السمات عليهم — لكن ليس دائمًا.

فكيف نتجنبهم إذن؟ يكره معظمُ النسويات — الليبراليات والراديكاليات على السواء — هذا السؤالَ، وأنا أفهم السبب. فمن حين إلى آخر، تطلق الشرطةُ حملةً ما حول الوقاية من

1- David Buss, The Evolution of Desire: Strategies of Human Mating. New York: Basic Books, [1994] 2016, p. 256.

2- https://singjupost.com/unmasking-the-abuser-dina-mcmillan-at-tedxcanberra-full-transcript /

3- Thornhill and Palmer, A Natural History of Rape, p. 76.

4- Buss, The Evolution of Desire, p. 256 .

الاغتصاب؛ ففي عام ٢٠١٥، على سبيل المثال، أصدرت شرطةُ مدينة «ساسكس» في بريطانيا ملصقات نصحت النساء بالخروج معًا ليلًا والحرص على سلامة الصديقات،[١] وكانت هذه الجهود، على الدوام، تستجلب ردّ فعل نسوي غاضب. وقد قوبلت ملصقات شرطة مدينة ساسكس بعريضة تطالب بإزالتها، كتب فيها مؤلفو العريضة من النسويات أن «الأشخاص الذين يملكون أكبر قدر من القدرة على منع وقوع الاغتصاب والاعتداء الجنسي ليسوا الأصدقاء أو المارة، بل مرتكبي الجريمة أنفسهم — أي المغتصبين».[٢]

وهذا صحيح بالطبع! لكن جوهر المسألة هو الآتي: المغتصبون لا يكترثون بما تقوله النسويات. وأنا أتعاطف مع الغريزة النسوية التي تعترض حتى على أدنى إيحاء بإلقاء اللوم على الضحية، ولا سيما حين يأتي ذلك من الشرطة، إذ إن أجهزة الشرطة في أنحاء العالم لها تاريخ طويل من التجاوزات، ولا تزال منظومة العدالة الجنائية تعاني من مشكلات شتى، وهو ما يفسر أنني قضيت معظم حياتي في فترة الشباب أناضل من أجل تحسين قوانين العنف الجنسي وتطبيقها. غير أن الملصقات التي تقول «لا تغتصب» لن تمنع حرفيًا أيَّ اغتصاب، لأن الاغتصاب غير قانوني أصلًا، والمغتصبون يعلمون ذلك. ويمكننا أن نصرخ «لا تغتصب» حتى ازرقاق وجوهنا، ولن يُحدِث ذلك أدنى فرق.

لا بد أن يكون من الممكن أن نقول في آنٍ واحد إن الاغتصاب فعل مشين، وإنه من الطبيعي — بل من الضروري — تقديم نصائح قد تساعد على تقليل حدوثه. ولا أظن أن في وسعي أن أكنّ ازدراءً أكبر للمغتصبين؛ أمزح أحيانًا مع أصدقائي بأنني أرغب في شراء مجموعة من المقصات الصغيرة للتعامل مع المغتصبين بطريقة مباشرة جدًا وإخصائهم. ومع ذلك، أشعر بالإرهاق من خطاب نسوي لا يستطيع تجاوز تكرار القول، مرة بعد مرة، إن الاغتصاب أمر سيئ. نعم، الاغتصاب سيئ. نحن نعلم ذلك. والآن، فلنبدأ فعلًا في القيام بشيءٍ حياله.

ثمّة طريقتان للحدّ من الاغتصاب. الأولى هي تقييد المغتصبين المحتملين، مثلًا عبر سجنهم، والثانية هي تقليص الفرص المتاحة لهم لتنفيذ رغباتهم. إن معدلات الملاحقة القضائية للجرائم الجنسية متدنية على نحوٍ فادح في جميع أنحاء العالم — ففي المملكة المتحدة، على سبيل المثال، لا ينتهي أقل من ١٪ من حوادث الاغتصاب بإدانة — ويعود ذلك جزئيًا إلى

1- http://www.bbc.co.uk/news/uk-england-sussex-32216176
2- http://www.change.org/p/sussex-police-withdraw-your-rape-prevention-posters-which-blames-victims-of-sexual-assault

انخفاض معدلات الإبلاغ، وجزئيًا إلى إخفاقات داخل منظومة العدالة الجنائية، وجزئيًا إلى حقيقة أن ملاحقة الاغتصاب قانونيًا تكون صعبة بطبيعتها حين لا يكون الجاني غريبًا، أو حين لا تكون الضحية طفلًا. وسيظل من الصعب دائمًا — حتى في أفضل الأنظمة الممكنة، وهو ما لا نملكه — إثبات وجود الموافقة الجنسية أو غيابها بما لا يدع مجالًا للشك المعقول.

أودّ أن يقضي المغتصبون المُدانُون فترات أطول بكثير في السجن — طوال حياتهم إن لزم الأمر — لأن ثقتي بفعالية برامج إعادة تأهيل مرتكبي الجرائم الجنسية ضئيلة جدًا. وقد تبيّن فعلًا أن أحد هذه البرامج، الذي طُبّق في سجون إنجلترا وويلز لأكثر من عقد، رفع معدلات العود إلى الجريمة قليلًا بدلًا من خفضها.[١]

غالبًا ما يُدان موقفي هذا بوصفه «نسوية عقابية» (carceral feminism) من قِبل من يدعون إلى إلغاء السجون والشرطة، عادةً باسم العدالة العرقية. وردّي على هذا الاتهام هو أن النساء والأطفال — الذين يشكّلون الغالبية الساحقة من ضحايا الاغتصاب — هم أيضًا، على نحوٍ غير متناسب، أكثر فقرًا وسود البشرة. وإذا كان السعي إلى حماية هؤلاء الضحايا المحتملين من العنف يجعلني «نسوية عقابية»، فأنا أتقبل هذا الوصف بفخر.

النسويات اللواتي يصفنني بـ «العقابية» لا يقدّمن سوى بديل واحد عن السجن: إعادة التنشئة الاجتماعية، وغالبًا ما تُجرَّب عبر ورشات «الموافقة الجنسية» للأطفال والشباب. وقد صمّمتُ ودرَّستُ هذه الورش بنفسي، ولا أظن أنها عديمة الفائدة تمامًا، إذ يمكنها تحقيق أمرين: تعليم المشاركين (بمن فيهم الضحايا المحتملين) ما هو قانوني وما هو غير قانوني، ومنح المدارس والمؤسسات الأخرى فرصة إعلان سياسة «صفر تسامح» تجاه السلوكيات الجنسية غير المقبولة. فإذا ضُبط طالب — مثلًا — وهو ينشر مواد إباحية بشكل انتقامي من فتاة بعد حضوره ورشة رسمية عن الموافقة الجنسية، فلن يكون بمقدوره الادعاء بشكل معقول أنه لم يكن يعلم أن ما فعله غير قانوني ويستوجب العقوبة بالفصل.

لكن ورشات الموافقة الجنسية غير مرجّحة إطلاقًا لمنع الاغتصاب، لأن الاغتصاب لا ينجم عن نقص في المعرفة. إن مئات آلاف السنين من وجود العنف الجنسي — ليس في نوعنا الإنساني وحده، بل في أنواع أخرى كثيرة — ليست نتيجة سوء فهم يمكن تصحيحه في ورشة

1- http://www.theguardian.com/uk-news/2017/jun/30/sex-offenders-on-group-treatment-programme-more-likely-to-reoffend

مدتها ٤٥ دقيقة يُقال فيها للأطفال، بكلمات من مقطع واحد، «لا تغتصبوا بعضكم بعضًا». نعم، للتنشئة الاجتماعية دور تلعبه — وكما سنرى في الفصل الخامس، مثلًا، هناك أسباب وجيهة للاعتقاد بأن الإباحية العنيفة يمكن أن تضخّم أنماط استثارة قائمة أصلًا — لكن التعويل على إعادة التنشئة وحدها ليس أمرًا ساذجًا فحسب، بل خطير أيضًا.

إذا قبلنا بالأدلة القادمة من علم الأحياء التطوري وتجاوزنا نموذج «براونميلر»، أمكننا أن نفهم أن المغتصبين هم في الحقيقة رجال يُثارون بالعنف، ضعيفو السيطرة على الدوافع، وتُتاح لهم ضحية مناسبة ومجموعة مناسبة من الظروف. وقد تشمل هذه الظروف ضحية ثملة، أو مخدَّرة، أو ضعيفة بأي شكل ما، أو غياب الشهود، أو انعدام الخوف من العواقب القانونية أو الاجتماعية. ويُعدّ كلٌّ من النساء والرجال العاملين في تجارة الجنس عرضةً على نحوٍ بالغ للخطر (وسنتوسع في هذا لاحقًا). كما أن النساء الشابات بين نحو الثالثة عشرة والخامسة والعشرين هنّ الفئة الأكثر ترجيحًا للاستهداف.

ولو أردتِ تصميم البيئة المثالية لمغتصِبٍ مُحتَمل، فلن تجدي أفضل من حفلةٍ أو نادٍ ليلي مليء بنساء شابات يرتدين كعوبًا عالية (تقيّد الحركة) ويشربن الكحول أو يتعاطين المخدرات (تقيّد الوعي). هل من المقزز أصلًا التفكير في الاعتداء على هؤلاء النساء؟ نعم. لكن هل يوفّر هذا الحكم الأخلاقي أيَّ حماية لهن؟ لا. لقد ارتكبتُ هذا الخطأ مرات كثيرة حين كنت شابة، وأنا أفهم الضغط الثقافي. لكن بينما ينبغي أن تشعر الشابات بالحرية في الثمل وشرب الخمر مع صديقاتهن أو مع رجالٍ موثوقين للغاية، فإن القيام بذلك وسط رجال غرباء سيظل دائمًا محفوفًا بالمخاطر.

نحن جميعًا نعرف هذا، تمامًا كما نعرف أن من الخطر على النساء الشابات السفر وحيدات، أو التنقل بالسيارة مع غرباء، أو الذهاب إلى منزل رجل غريب. الحقيقة المؤلمة هي أن نحو ١٠٪ من الرجال يشكّلون خطرًا، وهؤلاء الرجال ليسوا دائمًا قابلين للتعرّف إليهم من النظرة الأولى، ولا حتى بعد معرفة طويلة. لذا فإن نصيحتي للشابات يجب أن تكون هذه: تجنّبي وضع نفسك في موقف تكونين فيه وحدك مع رجل لا تعرفينه، أو مع رجل يثير لديك شعورًا سيئًا في نفسك. فهو على الأرجح أقوى منك وأسرع، ما يعني أن الشيء الوحيد الفاصل بينك وبين الاغتصاب هو ضبطه لنفسه.

وأنا أدرك تمامًا أن هذه النصيحة لا ولن تحمي من جميع أشكال الاغتصاب، بما في ذلك الاغتصاب داخل الأسرة، واغتصاب السجون، واغتصاب الأطفال، والاغتصاب الزوجي. أتمنى لو كان بوسعي تقديم نصيحة تحمي من هذه الفظائع كلها، لكنني لا أستطيع.

قد تصرّ نسويات أخريات على اتهامي بلوم الضحية، ويصررن على أن العبء يجب أن يقع على المغتصبين وليس على ضحاياهم لمنع الاغتصاب. لكنهن لا يملكن حلولًا أخرى يقدمنها، لأن الجهود الواهية في إعادة التنشئة لا تنجح فعليًا. ما ينجح أحيانًا هو حل غير موثوق، وغير عادل، وباهظ الكلفة على نحوٍ مؤلم: تقليص الفرص المتاحة للمغتصبين المحتملين، وسجن أولئك الذين لا يستطيعون — أو لا يريدون — مقاومة دوافعهم الجنسية العدوانية. لأن الاغتصاب ليس مسألة سلطة فحسب، بل هو أيضًا مسألة جنس.

الفصل الثالث:
بعض الرغبات سيئة

يعمد عالم النفس الاجتماعي الأمريكي «جوناثان هايدت» (Jonathan Haidt) إلى ابتكار سيناريوهات تهدف إلى اختبار حدسنا الأخلاقي. فهو يطلب من المشاركين في أبحاثه أن يستمعوا إلى قصة، ثم يبدوا رأيَهم فيها، وبعد ذلك يشرحوا الأساسَ الذي بنوا عليه حكمَهم. ومن بين هذه السيناريوهات ما يلي: تخيّل رجلًا يذهب إلى متجرٍ كبير، يشتري دجاجة ميتةً كاملةً، يأخذها إلى منزله، يمارس الجنس معها، ثم يأكلها. لا يعلم أحدٌ غيره بما حدث. فهل ارتكب هذا الرجل فعلًا خاطئًا؟

لدى «هايدت» سيناريوهات أخرى تتعلّق بالأخلاق الجنسية. فمثلًا: هل يُعدّ من المقبول أن يمارس أخٌ وأختٌ الجنسَ إذا استخدما وسائل متعددة لمنع الحمل ولم يعلم أحدٌ بالأمر؟ أو — في مثال واقعي — هل يجوز لرجل أن يوافق على أن يُؤكَل على يد رجل آخر بدافع الإشباع الجنسي؟[1]

وقد وجد «هايدت» أنَّ ردودَ المشاركين تتأثر إلى حدٍّ كبير بانتماءاتهم السياسية. فالمحافظون اجتماعيًا غالبًا ما يقدّمون إجاباتٍ سريعةً وحاسمة، لأنهم يستندون إلى قيم مثل القداسة والسلطة. وبالنسبة إليهم، فإن ممارسة الجنس مع دجاجة ميتة أو مع أحد الأقارب تمثّل انتهاكًا واضحًا لمبادئ أخلاقية دينية أو تقليدية، ولذلك فهي مرفوضة بلا نقاش. انتهى الأمر.

أما الليبراليون فيجدون أنفسَهم في موقفٍ أكثر إرباكًا. فهم يريدون القولَ إن هذه الأفعالَ خاطئةٌ، لأنهم يشعرون بنفور غريزي تجاهها، غير أن السيناريوهات صُمّمت بحيث تمنعهم من الاستناد إلى مبدأ الضرر عند «جون ستيوارت ميل» (John Stuart Mill)، القائل إن «الغاية الوحيدة التي تبرّر استخدام القوة على أي فرد ضد إرادته، هي منعه من إلحاق الضرر بالآخرين».

1- Jonathan Haidt, The Righteous Mind: Why Good People Are Divided by Politics and Religion. London: Allen Lane, 2012, pp. 170–6.

في مثال الدجاجة، يصعب تحديد من الذي لحقه الضرر: فالدجاجة ميتة ولا يمكن إيذاؤها، والآخرون لا يعلمون بما حدث، وبالتالي لا يتضررون. والرجل، في هذا التصوّر، لا يفعل سوى ممارسة استقلاليته وحريته الجنسية. وكما يعلّق «هايدت»: «إذا كانت منظومتك الأخلاقية محصورة في أخلاق الحرية والاستقلالية وحدها، فإنك تكون عرضة بدرجة كبيرة لأن تُربكك هذه الحالة».

لكن ليس الجميع يشعر بهذا الارتباك. فعلى سبيل المثال، من المرجّح أن «جايل روبين» (Gayle Rubin) — عالمة الأنثروبولوجيا الأمريكية وأحد الأسماء المؤسسة لتخصّص نظرية الكوير (Queer Theory)[١] الذي برز في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين — لن تنزعج من سيناريو الدجاجة، تمامًا كما لا تنزعج عمومًا من السلوكيات الجنسية غير المألوفة. إذ تكتب:

> في الثقافة الغربية، يُؤخَذ الجنس على محمل الجد أكثر مما ينبغي. لا يُعدّ الإنسان غير أخلاقي، ولا يُسجن، ولا يُنبذ من أسرته لمجرد استمتاعه بطعامٍ حار. لكن قد يمرّ بكل ذلك وأكثر إذا استمتع جنسيًا بجلد الأحذية. فماذا يولي المجتمع اهتمامًا بالغًا بأن يستمني شخص على حذاء؟[٢]

تتبنّى «روبين» موقفًا ليبراليًا واضحًا؛ فهي ترفض أصلًا فكرة وجود سلوك جنسي «جيّد» أو «سيّئ»، وتعدّ هذا النوع من التقويم الأخلاقي قمعيًا ومقيدًا. وفي تصورها، لا ينبغي أن يرتبط الجنس بالحب أو الالتزام، ولا أن تكون له أيُّ صلة بالزواج أو الإنجاب. المعيار الوحيد الذي تعترف به النسوية الليبرالية من هذا المنظور هو الموافقة والرضا: هل جميع الأطراف قادرة وراغبة في إعطاء موافقتها على ممارسة الجنس أم لا؟ وما عدا ذلك، ينبغي طرحه جانبًا بوصفه أخلاقًا متقادمة عفا عليها الزمن. وقد عبّرت إحدى الجماعات المبكرة الداعية إلى رفع الوصم عن الجنس مقابل المال عن هذا الموقف بوضوح فجٍّ في اسمها نفسه: «كيويوت» (COYOTE)، وهو اختصار لعبارة (Call Off Your Old Tired Ethics) «ألغِ أخلاقياتك القديمة البالية».

١- نظرية الكوير (queer theory) هي مقاربة نقدية ترى أن الهوية الجنسية والجندرية ليستا طبيعيتين أو ثابتتين، بل تُنتَجان اجتماعيًا عبر تغيرات القوة والتقاليد، وتهدف إلى تفكيك كل ما يُقدَّم بوصفه «طبيعيًا» أو «سويًا» في الجنس والهوية والرغبة. (المترجم)

2- Richard Guy Parker and Peter Aggleton, eds, Culture, Society and Sexuality: A Reader. London: Psychology Press, 1999, p. 171.

تدين نظرية الكوير (Queer)، كما صاغتها «روبين»، بالكثير لكتاب «تاريخ الجنسانية» (History of Sexuality) لـ «ميشيل فوكو» (Michel Foucault)، الذي نُشر جزؤه الأول عام ١٩٧٨، كما كان «فوكو» نفسُه متأثرًا بعمقٍ بكتابات «سيجموند فرويد» (Sigmund Freud) حول الكبت الجنسي. ويرى أنصارُ هذا التوجه الفكري فيه مشروعًا تقدميًا يهدف إلى تقويض الأعراف الجنسية البرجوازية التي أدّت تاريخيًا إلى إقصاء أصحاب الرغبات الجنسية غير المألوفة عن المجتمع «المحترم»، أو إلى دفعهم للعيش في تعاسة دائمة بسبب اضطرارهم إلى إخفاء ذواتهم الجنسية الحقيقية.

ويختصر شعار احتجاجات طلاب باريس في مايو ١٩٦٨ — « Il est interdit d'interdire!» (ممنوع أن تُمنَع الأشياء) — هذا المنحى ببلاغة شديدة، وقد أصبح هذا الشعار، في العقود اللاحقة، جزءًا من الخطاب السائد، متداخلًا مع المشروع النسوي الذي سعى إلى تحرير النساء من الأعراف الجنسية التقليدية التي قيّدت فاعليتهن ومتَعتهن. وهكذا، تفترض النسوية الليبرالية أن قضية «فوكو» و«روبين» و«فرويد»، وقضية النساء عمومًا، هي قضية واحدة: «نحن» الثوريون في مواجهة «هم» التقليديين.

حرية، مساواة، سلوك جنسي!

غير أنني أودّ أن أقترح إطارًا مختلفًا لفهم هذا الصراع: صراعًا طبقيًا، لا بين ثوريين وتقليديين، بل بين فئتين بشريتين مختلفتين جذريًا، لكل منهما مجموعة مصالح مغايرة للأخرى.

*****

السوق الجنسية الحرة

لاحظ نُقّادُ الرأسمالية القائمة على السوق الحرّة أنّه في المجتمعات التي تمزّقها فوارق فادحة في الثروة والسلطة، لا تتوزّع «متع الحرية» بالتساوي بين الجميع. وكما كتب المؤرّخ الاقتصادي والاشتراكي البريطاني «تاواني» (R. H. Tawney) عام ١٩٣١:

> إن المساواة تستلزم قبولًا واعيًا بفرض حدود على اندفاع الفرد، كما تتطلب منع التراكمات المفرطة في الثروة والسلطة عبر تدخلٍ عام يخدم الصالح المشترك.
> أمّا الحرية التي تتيح لكل فرد، بحسب قدرته، أن يُشبع شهوته ورغبته للثروة أو

النفوذ بلا قيود، فهي حرية لا تتناقض مع المساواة الاجتماعية والاقتصادية فقط، بل أيضًا مع المساواة المدنية والسياسية، لأن ترك الأقوياء بلا ضوابط يعني تمكينهم من استغلال قوتهم إلى أقصاها. فحرية القوي لا تكون إلا فناءً للضعفاء. كما أن «حرية السمكة المفترسة تعني هلاك الأسماك الصغيرة».[١]

ومن البديهي، بالطبع، أن يؤيّد مالكُ المصنع تحريرَ السوق، وأن يعارضه العاملُ الذي يتقاضى أجرًا زهيدًا؛ فالحوت والسمكة الصغيرة يملكان مصالح اقتصادية متباينة. وينطبق الأمر نفسه على السوق الجنسية، التي كانت خاضعةً في السابق لضوابط صارمة، ثم جرى تحريرها اليوم إلى حدٍّ كبير.

غير أنّ الانقسام الطبقي هنا لا يقوم بين طبقتي العمّال والبرجوازية، بل بين الرجال والنساء. أو، بتعبير أدق، بين فئةٍ من الناس استفادت استفادةً استثنائية من تسليع الجنس، وهم في الغالب رجالٌ يتمتّعون بدرجة مرتفعة من سمةٍ نفسية يسمّيها علماء النفس السوسيوجنسية (Sociosexuality)، أي الميل إلى التنوّع الجنسي. ويشرح عالم النفس «ديفيد شميت» (David Schmitt) أهمية هذه السمة على النحو التالي:

> الأشخاص الذين يحصلون على درجات منخفضة نسبيًا في هذا المقياس يُوصَفون بأن لديهم توجّهًا سوسيوجنسيًا مقيَّدًا؛ أي أنهم يربطون الجنسَ عادةً بعلاقة عاطفية مستقرة. ولهذا يميلون إلى الاكتفاء بشريك واحد، ويفضّلون فترات تعارف طويلة قبل الدخول في علاقة جنسية، ويستثمرون قدرًا كبيرًا من المشاعر والالتزام في العلاقات طويلة الأمد.
>
> في المقابل، فإن الأشخاص الذين يسجّلون درجاتٍ مرتفعةً على هذا المقياس يُعدّون أكثر تحرّرًا في توجّههم السوسيوجنسي؛ إذ يكونون أقلّ اشتراطًا للالتزام العاطفي قبل ممارسة الجنس، ويميلون إلى تعدّد العلاقات، ويُقدِمون على العلاقات الجنسية بسرعة أكبر، كما تكون درجة القرب العاطفي والارتباط الرومانسي لديهم أقلّ في المتوسط.[٢]

1- R. H. Tawney, Equality. 4th edn, London: Allen & Unwin, [1931] 1952, pp. 181–2.
2- David P. Schmitt, 'Sociosexuality from Argentina to Zimbabwe: a 48-nation study of sex, culture, and strategies of human mating', Behavioral and Brain Sciences 28 (2005): 247–75; discussion, 275–311 .

وفي دراسة شملت السوسيوجنسية لدى الرجال والنساء في ٤٨ دولة، وجد «ديفيد شميت» وفريقُه البحثي أنّ الفروق بين الجنسين في هذا المجال تمثّل «ثابتًا ثقافيًا عالميًا»، بغضّ النظر عن مستوى المساواة الاقتصادية أو الاجتماعية في أي بلد. ورغم وجود تباين داخل كلّ جنس — إذ توجد نساء مرتفعات السوسيوجنسية، ورجال منخفضوها — فإن منحنيي التوزيع يظلان مختلفين اختلافًا جوهريًا.

ويُفسَّر هذا الاختلاف بما يسمّيه علماء الأحياء التطورية نظرية الاستثمار الأبوي (Parental Investment Theory). وبعبارة مبسّطة: تستطيع المرأةُ إنجابَ طفلٍ واحد تقريبًا في السنة، في حين يستطيع الرجل — نظريًا — إنجاب طفلٍ جديد في كل مرة يبلغ فيها الذروة الجنسية. ورغم وجود ظروف محدودة قد يكون فيها التزاوج القصير الأمد مفيدًا لبعض النساء — كأوقات الخطر أو الندرة، حين يُبادَل الجنس بالموارد أو الحماية — فإن الانتخاب الطبيعي، عمومًا، فضّل النساء الأكثر انتقائية في اختيار شركائهن.

ونرى تجلّي ذلك بوضوح في السلوك الجنسي للرجال والنساء. فالأبحاث في ذلك واضحة وتقول: نعلم أن الرجال، في المتوسط، يفضّلون ممارسة الجنس بوتيرة أعلى ومع عدد أكبر من الشركاء؛ وأن غالبية مشتري الجنس من الرجال؛ وأن الرجال يشاهدون المواد الإباحية أكثر بكثير من النساء؛ وأن الغالبية العظمى من النساء، إذا أُتيح لهنّ الخيار، يفضّلن علاقة ملتزمة وطويلة على ممارسة الجنس العابر. كما أن الانحرافات أو التفضيلات الجنسية الخاصة (Sexual Fetishes)، المعروفة أيضًا باسم البارافيليات (Paraphilias)، أكثر شيوعًا بين الرجال من النساء. ورغم أنّ أسباب هذا الفارق ليست مفهومة تمامًا، فإن المعدّل الأعلى للسوسيوجنسية لدى الرجال يبدو عاملًا مؤثرًا.[1]

وبوجه عام، تُظهر الأدلة أن الممارسات التي أصبحت أكثر قبولًا اجتماعيًا خلال العقود الستة الماضية هي ممارسات يُقبل عليها الرجال بدرجة أكبر بكثير من النساء. إنّه زمنٌ مناسب لأن تكون مُولَعًا، أو مشتريَ جنس، أو مستهلكًا للإباحية، أو «بلاي بوي»؛ فالأكثر استفادة من الليبرالية الجنسية هم أصحاب السوسيوجنسية المرتفعة، وهؤلاء في غالبيتهم الساحقة رجال.

1- S. J. Dawson, B. A. Bannerman and M. L. Lalumière, 'Paraphilic interests: an examination of sex differences in a nonclinical sample', Sexual Abuse 28 (2016): 20–45

ومع ذلك، لم يكن الرجال وحدهم المستفيدين من التحرر الجنسي. فقد استفاد أيضًا — وبشكل بالغ الأهمية — المثليون والمثليات ومزدوجو الميول الجنسية، الذين باتت علاقاتهم، للمرة الأولى، لا تُجرَّم فحسب، بل تحظى أيضًا باعترافٍ قانوني في كثير من الدول. إن تراجع الخوف والنفور من المثلية الجنسية في الغرب خلال القرن الماضي أمرٌ لافت فعلًا. ففي عام ١٩٨٣، أفاد نصفُ المشاركين في استبيان (British Social Attitudes Survey) بأن «العلاقات الجنسية بين البالغين من الجنس نفسه خاطئة دائمًا».[١] وبحلول عام ٢٠١٢، انخفضت هذه النسبة إلى أقل من النصف، وبعد عام واحد فقط أُقِرّ تشريع يجيز زواج المثليين في إنجلترا وويلز في ظل حكومة محافظة. ومنذ عام ٢٠٠١، شرّعت عشراتُ الدول الأخرى زواجَ المثليين، من بينها الولايات المتحدة[٢] عام ٢٠١٥ — وهو أمر كان يبدو شبه مستحيل في ذروة أزمة الإيدز عام ١٩٨٩، حين كان «أندرو سوليفان» (Andrew Sullivan) أول من دافع علنًا عن هذا الإصلاح في مقال شهير.[٣]

أيُّ حدثٍ تاريخيٍّ مفصلي بقدر الثورة الجنسية لا بدّ أن يُخلِّف طيفًا واسعًا من الآثار، الإيجابيّة منها والسلبيّة. غير أنّ النقطة الأساسية التي أؤكّد عليها في هذا الكتاب هي أنّه من الخطأ تفسير هذه الحقبة التاريخية بوصفها مثالًا على «التقدّم» بمعناه المباشر أو البسيط. فأنا — إن صحّ التعبير — «مرتدّة عن عقيدة التقدّم»؛ إذ لا أؤمن بوجود مسارٍ تدريجيٍّ حتميٍّ يسير بالمجتمع دائمًا نحو الأفضل، ذلك المسار الذي وصفه «مارتن لوثر كينج الابن» (Martin Luther King Jr.) على نحوٍ شهير بـ«قوس الكون الأخلاقي» المنحني نحو العدالة. فكلّ تغييرٍ اجتماعيٍّ ينطوي بالضرورة على مقايضاتٍ وتكاليف، غير أنّ السرديات التبسيطية تميل إلى طمس هذه التعقيدات، فلا تترك حيّزًا للاعتراف بها أو التفكير فيها.

الجنس، بطبيعته، علاقة. وهذا يعني، بالطبع، أنّ الشريك المُحبّ يحتاج إلى شريكٍ آخر يُبادله الحب. لكنه يعني أيضًا أنّ صاحب النزعات الفِتِشية — سواء كانت سادية أو مازوخية، أو تلصّصية، أو هوسًا بالملابس الداخلية — يحتاج إلى أشخاص آخرين يشاركونه هذه الرغبات. وبالمثل، يحتاج مشتري الجنس إلى بائعيه، ويحتاج مستهلكو المواد الإباحية إلى من ينتجونها.

1- http://www.bsa.natcen.ac.uk/latest-report/british-social-attitudes-30/personal-relationships/homosexuality.aspx
2- https://en.wikipedia.org/wiki/Legal_status_of_same-sex_marriage
3- https://newrepublic.com/article/79054/here-comes-the-groom

ولا ترى مُنظِّرةٌ مثل «جايل روبن» (Gayle Rubin) في ذلك إشكالًا يُذكر؛ إذ قد تشير إلى أنّ عددًا وافرًا من الناس — وغالبًا، بحكم الضرورة، من النساء — متاحون لتلبية هذه الرغبات، أحيانًا عن طيب خاطر، وأحيانًا مقابل أجر. غير أنّ هذا الطرح يُقلِّل من شأن الدرجة التي قد يخضع فيها المشاركون في السوق الجنسية الحرّة لأشكال متفاوتة من الإكراه، سواء كان إكراهًا صريحًا أو ضمنيًا، تمامًا كما يتصرّف العمّال داخل النظام الاقتصادي استجابةً للحوافز أو القيود المفروضة عليهم.

ولا شكّ أنّ السيدة «جايل روبن» وحلفاءها سيُصابون بالذهول من أي محاولة لربط أفكارهم برئيسة الوزراء البريطانية «مارجريت تاتشر» (Margaret Thatcher)، لكن مقاربتهم للأخلاق الجنسية يمكن تلخيصها على نحوٍ لافت بالتصريح الشهير الذي أطلقته «تاتشر» عام ١٩٨٧ حين قالت: «لا وجود لشيءٍ اسمه المجتمع». وقد أصبح هذا القول سيّئ الصيت في السياسة البريطانية، وغالبًا ما يراه منتقدوها تعبيرًا مكثّفًا عن فردانية قاسية وجشعة يعيشها هذا المجتمع.

وعلى الرغم من انتمائها إلى حزبٍ محافظ، لم تكن تاتشر «محافظةً» بالمعنى الدقيق والحرفي للكلمة؛ إذ لم تسعَ إلى صون الأفكار والعادات القائمة، بل انتهجت سياسة التدمير الخلّاق (creative destruction)، مُزِيحةً القديمَ عمدًا لإفساح المجال أمام الجديد. ويرى أنصارُها أنّ هذا النهج كان ضرورةً تاريخية، بينما يشير منتقدوها إلى أنّ الاضطرابات العميقة التي أحدثتها سياساتُها أدّت إلى بؤسٍ طويل الأمد، ولا سيّما في المناطق البريطانية ما بعد الصناعية، وكان لهذا الإرث دورٌ في التصدّعات الاجتماعية والسياسية التي تُوِّجت باستفتاء بريكست (Brexit) وخروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي عام ٢٠١٦.

لقد تجاهلت «تاتشر» تحذيرًا شهيرًا للفيلسوف والكاتب الإنجليزي «جيلبرت كيث تشسترتون» (G. K. Chesterton)، المعروف باسم «سياج تشسترتون» (Chesterton's Fence)، الذي قال فيه:

> عند الحديث عن إصلاح الأمور — وليس عن إفسادها — توجد قاعدة واحدة بسيطة وواضحة، قد تبدو للوهلة الأولى غريبة. ففي مثل هذه الحالات يكون هناك نظام أو قانون أو مؤسسة قائمة؛ ولنقل، من باب التبسيط، سياجًا أو بوابةً أُقيمت

عبر طريق ما. يأتي المصلح من الطراز الحديث، ويتقدّم إليها بثقة، ثم يقول: «لا أرى فائدة من هذا؛ فلنقم بإزالته».

وهنا يجدر بالمصلح الذكي أن يردّ قائلًا: «إذا كنت لا ترى فائدتَه، فلن أسمح لك بإزالته. اذهب أولًا وفكّر في الأمر. وعندما تعود وتخبرني أنك فهمت الغاية من وجوده، عندها فقط قد أسمح لك بهدمه».

يشير «تشيسترتون» إلى أن الشخص الذي لا يفهم الغايةَ من مؤسسةٍ اجتماعية ما، هو آخر مَن ينبغي السماح له بإصلاحها. فالعالَم واسع وديناميكي إلى درجة أنَّ أحدًا، حرفيًا، لا يستطيع فهمَه فهمًا كاملًا أو التنبؤ بكيفية استجابة أنظمته للتغيير. ومن ثمّ، فإن حكاية «سياج تشيسترتون» ينبغي أن تدفع من يطمحون إلى الإصلاح إلى قدرٍ كبير من الحذر؛ لأن هناك شيئًا اسمه المجتمع، وهو أكثر تعقيدًا مما يستطيع أيٌّ منا أن يُحيط به فهمًا.

غير أنّ «التاتشريين الجنسيين» لا يعترفون بالطبيعة التداخلية الدقيقة للثقافة الجنسية، ولذلك يعجزون عن رؤية المجتمع بوصفه شبكة من علاقات غير متكافئة، تضم «مفترسين وأسماكًا صغيرة»، وأشخاصًا قد يؤدّون الدورين في مراحل مختلفة من حياتهم — «نصف ضحية، نصف مفترس»، كما قالت «سيمون دو بوفوار» (Simone de Beauvoir). وهم لا يرون الأفراد إلا باعتبارهم ذواتًا مستقلة، مندَفعة، لا يهمّها سوى المصلحة الشخصية وقضاء وقتٍ ممتع.

ولهذا، عندما يصادفون شيئًا محرّمًا اجتماعيًا — كتحريم ممارسة الجنس مع جثث الحيوانات، على سبيل المثال — يفترضون أنّ غياب الغاية الواضحة منه يعني بالضرورة أنّه بلا مبرّر. ويخطئون حين يعتقدون أنّ إزالة جميع المحرّمات الجنسية والاجتماعية ستجعلنا أحرارًا بالكامل، قادرين على اتخاذ خيارات جنسية «حرّة تمامًا»، كما لو كنّا نختار من قائمة ملذّات وفّرتها الثورة الجنسية حديثًا.

لكن الواقع أنّ خياراتنا مقيَّدةٌ على نحوٍ شديد جدًا؛ ليس فقط لأننا كائنات قابلة للتأثّر تمتصّ قيم وأفكار الثقافة المحيطة بنا، بل لأنّ الجنس، في أساسه، نشاط اجتماعي يتطلّب مشاركة آخرين. فلو كانت هناك امرأة شابة في جامعةٍ في القرن الحادي والعشرين تبحث عن شريك حياة ولا ترغب في ممارسة الجنس قبل الزواج، فستجد خياراتها أضيق بكثير مما كانت عليه قبل سبعين عامًا. وحين يصبح الجنس المبكّر شيئًا عاديًا ومتوقع القبول من الجميع، وتكون

معظم النساء الأخريات في السوق الجنسية التي تنتمي إليها مستعدّات «للاستجابة» لتلك الممارسة في الموعد الأول أو الثاني، فإن الامتناع عن ذلك يتحوّل إلى عائق في المنافسة.

وعندئذٍ، لا يبقى أمام هذه المرأة سوى خيارين: إمّا أن تكون فائقة الجاذبية لتتفوق على قريناتها الأكثر تساهلًا، أو أن تقبل بحصر دائرة مواعدتها في رجال نادرين يشبهونها في عدم قبولهم للمعايير السائدة. فالخروج عن السائد له ثمن.

إنّ سردية «التقدّم» تُخفي هذا التعقيد، حين تعرض التاريخ بوصفه مسارًا تصاعديًا بسيطًا نصبح فيه جميعًا أكثر حرية مع التخلّي عن القيود القديمة. غير أنّ ثمة طريقة أخرى لفهم التاريخ — أقلّ طمأنينة، لكنها أصدق — تعترف بحقيقة الصراع والمفاضلات والتشابكات الاجتماعية التي لا مفرّ منها.

*****

الجانب الخاطئ من التاريخ

ينبغي لنا أن نرفض سردية التقدّم، وأن نلتفت بدلًا من ذلك إلى مفكرين مثل الناقد الماركسي «ريموند ويليامز» (Raymond Williams)، الذي يذكّرنا بأن المجتمعات لم تكن يومًا ساكنة، بل هي دائمًا في حالة تحوّل. ففي أي لحظة زمنية، كما يكتب «ويليامز»، تتعايش عناصر (١) ثقافية مهيمنة وسائدة، و(٢) عناصر أخرى باقية ومستمرة، و(٣) عناصر ثالثة ناشئة وجديدة، وجميعهم يتعايشون في آنٍ واحدة، وفي حالة صراح متبادل.[١] نحن نميل إلى الاحتفاء بالشخصيات التاريخية التي انتمت إلى التيارات الجديدة الناشئة التي أصبحت لاحقًا مهيمنة: أولئك الذين يُقال إنهم سبقوا عصرَهم، ثم جرى إنصافُهم لاحقًا، أحيانًا — وبأكثر الطرق رومانسية — بعد موتهم. غير أننا نولي عادةً اهتمامًا أقل بكثير لأولئك الذين وجدوا أنفسَهم جزءًا من عناصر باقية كانت مهيمنة في زمنٍ ما، لكنها تلاشت في نهاية المطاف. نحن نمجّد من انتصرت أيديولوجياتُهم، وربما نتخيّل أنفسَنا ضمن صفوفِهم، فيما نكاد لا نفكّر في الذين خسروا.

1- Raymond Williams, Marxism and Literature. Oxford: Oxford University Press, 1977.

وتُعدّ الناشطة سيئة السمعة «ماري وايتهوس» (Mary Whitehouse) واحدةً من خاسري التاريخ. وُلدت عام ١٩١٠، ولم تتخلَّ قط عن مواقفها الأخلاقية وذائقتها الثقافية كانت التي كانت متأصلة في قيم العصر الإدواردي المحافظ، وظلّت متمسكةً بها حتى بعد أن تغيّر المجتمع من حولها تغيرًا جذريًا، بل حتى مع انهيار المجتمع الذي عرفته من حولها. فقد أمضت سبعةً وثلاثين عامًا في تنظيم حملات وكتابة الرسائل، سعيًا منها إلى وقف ما أطلقت عليه «المجتمع المتساهل»، وقد كانت مصدومةً بمشاهد الجنس والعنف التي بدأت تظهر فجأةً على شاشات التلفزيون البريطانية منذ ستينيات القرن العشرين فصاعدًا. وقد وصفها أحدُ معاصريها في صحيفة فاينانشال تايمز (Financial Times) بأنها «كانوت صغيرة،[١] تحثّ أمواجَ الانحطاط الأخلاقي على التراجع».[٢] لم تكن «وايتهوس» تناضل من أجل التغيير، بل من أجل الإبقاء على ما هو قائم. وقد انتهى بها الأمر إلى فشل ذريع، في مشهد كبير من الخسارة العلنية.

تبدو بعضُ مخاوف «وايتهوس» اليوم مثيرةً للسخرية. فقد بذلت هي وزملاؤها من الناشطين جهدًا هائلًا في مواجهة نوع من الوقاحة يبدو لنا الآن عاديًا إلى حدٍّ بعيد. فالإيحاءات في أغانٍ مثل «ماي دينج-آ-لينج» (My Ding-a-Ling) لــ «تشاك بيري» (Chuck Berry)،[٣] وكذلك المسلسلات الكوميدية مثل (It Ain't Half Hot Mum)، كلها أثارت سيلًا من رسائل الاحتجاج، كما أثارها أيضًا وضع ميكروفون بطريقة إيحائية أثناء ظهور «ميك جاجر» (Mick Jagger) في برنامج Top of the Pops.[٤]

وكانت إحدى أولى محاولات «وايتهوس» لدخول المجال العام مقالًا مجهول الاسم نُشر عام ١٩٥٣ في صحيفة صنداي تايمز (Sunday Times)، قدّم نصائح للأمهات حول أفضل السُّبل لمنع المثلية الجنسية لدى أبنائهن. وقد اقترن هذا العداء الصريح للمثليين بحملة شرسة ضد ازدراء الدين، كثيرًا ما استندت إلى تشريعات دينية قديمة. وفي عام ١٩٧٧، أقامت دعوى

١- المقصود بعبارة «كانوت صغيرة» هو تشبيه ساخر يُحيل إلى قصة تاريخية معروفة عن الملك الإنجليزي «كانوت العظيم» (King Canute). يُروى أن الملك «كانوت» جلس أمام البحر وأمر المدّ أن يتوقّف، ليُثبت لحاشيته حدود السلطة البشرية. حين لم يتوقّف البحر، أراد أن يبيّن أن بعض القوى لا يمكن ردّها بالأوامر. (المترجم)

2- https://web.archive.org/web/20121112141447/http://www.ft.com/cms/s/2/093c3726-24e1-11e2-86fb-00144feabdc0.html#axzz2Bv5X322utv%23axzz2Bv5X3utv

٣- هي أغنية تقوم على تورية جنسية ساخرة؛ فــ ding-a-ling تعني ظاهريًا «جرسًا» أو «شيئًا صغيرًا»، لكنها تُفهَم إيحائيًا بوصفها إشارة إلى العضو الذكري. (المترجم)

٤- المقصود أن «جاجر»، المعروف بأدائه المسرحي الجنسي الجريء، أمسك بالميكروفون أو وُضع أمامه بطريقة توحي بشكل قضيب خلال أدائه في برنامج Top of the Pops، وهو برنامج عائلي جماهيري. (المترجم)

قضائية خاصة ضد صحيفة (Gay News) بسبب نشرها قصيدة تصف جنديًا رومانيًا يتخيّل ممارسةَ الجنس مع جسد المسيح المصلوب. وأُدين محرّرُ الصحيفة بتهمة الازدراء، وكتب المستشار القانوني الملكي الذي مثّله لاحقًا أن «خوف السيدة «وايتهوس» من المثليين كان بالنسبة لها فطريًا»[١] — وربما كان محقًا في ذلك.

وقد أسهمت سمعتها كونها محافظة متعصّبة ومتزمّتة في أن يُستعاد ذكرُها اليوم غالبًا بوصفها مادةً للسخرية. بل إنَّ حياتَها نفسَها لم تخلُ من الاستهزاء المتواصل. فقد جرى حرق أحد كتبها في مسلسل كوميدي تابع لهيئة الإذاعة البريطانية (BBC)، واستُخدم اسمها على سبيل التهكّم عنوانًا للبرنامج الكوميدي الشهير «تجربة ماري وايتهاوس» (The Mary Whitehouse Experience)، كما قامت ممثلةٌ في أفلام إباحية بتغيير اسمها رسميًا إلى «ماري وايتهوس» على نحو ساخر (وقد انتحرت ممثلةُ أفلام الجنس هذه لاحقًا).

أما السير «هيو جرين» (Sir Hugh Greene)، المدير العام لهيئة الإذاعة البريطانية بين عامي ١٩٦٠ و١٩٦٩، فقد كان يزدري «وايتهوس» علنًا إلى درجة أنه اشترى لوحةً عاريةً بشعة لها ليعلّقها في مكتبه. وتروي الحكاية أنه كان يفرّغ غضبه برمي السهام على اللوحة، ويصيح فرحًا إذا ما أصاب أحد أثدائها الستة.[٢]

ويُعدّ التقدّمي المتشدّد «أوين جونز» (Owen Jones)، كاتب العمود في صحيفة الجارديان، من بين أولئك الذين يستخدمون اسم «وايتهوس» اليوم كاختصار للدلالة على الوقوف في «الجانب الخاطئ من التاريخ»[٣] — وهي عبارة يكثر «جونز» من استعمالها. ويقدّم هذا التصوير «وايتهوس» بوصفها تجسيدًا للشر، في مواجهة الأبطال الرومانسيين للتيار الناشئ عند «ريموند ويليامز»، أي في هذه الحالة السير «هيو جرين» وحلفاءه المتساهلين. غير أن هذه السردية التاريخية لا تصمد إلا إذا كان المرء انتقائيًا عن قصد. فقد أُدينت «وايتهوس»، بحسب «حكم التاريخ»، في قضايا المثلية الجنسية، والازدراء، والاستخدام الإيحائي للميكروفونات في

1- http://www.thetimes.co.uk/article/the-mary-whitehouse-story-mary-quite-contrary-dgqdtrf2qxq
2- http://www.spectator.co.uk/article/in-defence-of-mary-whitehouse
3- http://www.theguardian.com/commentisfree/video/2020/sep/22/from-mary-whitehouse-to-the-proms-owen-jones-on-how-woke-became-a-dirty-word-video
أريد أن أضيف أن هذا الصحفي البطل «أوين جونز» كان من أبرز الشباب المناصرين للقضية الفلسطينية وصوتًا قويًا ضد الحرب الإسرائيلية الأخيرة على غزة. لو هناك مثال حقيقي لمعنى جهاد الكلمة، فهو يتمثل في «أوين جونز»، هذا البطل الذي لم يأل جهدًا في الوقوف في «الجانب الصحيح من التاريخ». (المترجم)

برنامج (Top of the Pops). لكنها كانت على نحو لافت مصيبة النظر في قضية واحدة: إذ كانت من القلائل بين الشخصيات العامة في عصرها الذين أولوا اهتمامًا حقيقيًا بظاهرة الاعتداء الجنسي على الأطفال.

وفي الوقت ذاته الذي كان فيه السير «هيو جرين» يرمي السهام على صورة «وايتهوس» العارية، كانت الــ (BBC) تلك المؤسسة التي يديرها تتيح ارتكاب اعتداءات بحق النساء والأطفال على يد عدد من الرجال المشهورين، من بينهم — وعلى نحوٍ بالغ السوء — مقدّم البرامج التلفزيونية «جيمي سافيل» (Jimmy Savile). ولم يظهر لنا الحجم الحقيقي لجرائمه إلا بعد وفاته دون مساءلة في عام ٢٠١١. ويُعتقد اليوم أن موظفي هيئة الإذاعة البريطانية غضّوا الطرف، على مدى ما لا يقل عن أربعين عامًا، عن اغتصاب واعتداءات جنسية طالت ما يصل إلى ألف فتاةٍ وفتىً، ارتكبها «سافيل» في غرف تبديل الملابس والاستوديوهات التابعة للمؤسسة.[1] كما أساء إلى عدد أكبر بكثير من الضحايا، صغارًا وكبارًا، ذكورًا وإناثًا، في المستشفيات والمدارس وأي مكان آخر استطاع الوصول إليه. وقد مكّنته شهرته من ممارسة هذا العنف الجنسي، إذ أتاحت له الوصول إلى ضحايا ضعفاء — ولا سيما الأطفال — وساعدت في تثبيط أي تحقيق جاد في أفعاله.

لم يُبدِ «جيمي سافيل» (Jimmy Savile) أيَّ حرصٍ يُذكر على إخفاء ما كان يفعله، بل كان كثيرًا ما يتندر به. وكان، عند إجابته على اتصالات الصحافيين، يستقبلهم بعبارة: «قالت لي إنها تجاوزت السادسة عشرة»، وهي عبارة كانت تُقابَل دائمًا بضحكات تحمل في طياتها شعورًا بالتوتر من المستمعين. وفي سيرته الذاتية الصادرة عام ١٩٧٤، أقرّ «سافيل» صراحةً ببعض جرائمه؛ إذ كتب، على سبيل المثال، عن فترة سبقت عمله مقدّمًا تلفزيونيًا، حين كان يدير نوادي ليلية في شمال إنجلترا، وأن أحد ضباط الشرطة طلب منه أن يترقّب فتاة صغيرة كانت قد هربت من مؤسسة لإيواء الأحداث الجانحين. فأخبر «سافيل» الضابطَ أنه، إذا ظهرت الفتاة في أحد نواديه، فسيسلّمها إلى السلطات — «لكنني سأحتفظ بها طوال الليل أولًا بوصفها مكافأتي». وقد ظهرت الفتاة فعلًا في أحد نواديه، وقضى الليلَ معها بالفعل، من دون أن يُتخذ ضده أيُّ

1- http://www.theguardian.com/media/2014/jan/18/jimmy-savile-abused-1000-victims-bbc

إجراء جنائي على الإطلاق.[١] وكان «سافيل» يروي هذه القصةَ علنًا، كما لو كانت نكتة، ومن غير أن يبدو عليه أدنى خوف من العواقب.

وعندما انفجرت فضيحة «سافيل» في مطلع العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، راح المعلّقون يكرّرون العبارة نفسها مرارًا: «كان ذلك زمنًا مختلفًا».[٢] وكان الأمرُ كذلك فعلًا، وإن كنا نغفل أحيانًا مقدار الاختلاف الحقيقي في المواقف من الاعتداء الجنسي على الأطفال خلال سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين. ففي بريطانيا، كان أعضاء «تبادل معلومات محبّي الأطفال» (Paedophile Information Exchange) ينشطون علنًا للمطالبة بإلغاء سنّ الرشد الجنسي، وحظوا بترحيب في بعض الأوساط الرسمية، بينما رفضت حكومة «مارجريت تاتشر» (Margaret Thatcher) الدعوات إلى حظر الجماعة.[٣] وفي الولايات المتحدة، تأسست منظمة «نامبلا» (NAMBLA) — «رابطة حبّ الرجل للغلام في أميركا الشمالية» — في أواخر سبعينيات القرن العشرين، واستقطبت دعم شخصيات من بينها الشاعر «آلن جينسبرج» (Allen Ginsberg) والنسوية «كاميل باجليا» (Camille Paglia).[٤]

وفي بعض الدول الأوروبية آنذاك، كانت المواد الإباحية الخاصة بالأطفال متاحةً على نطاق واسع، بعد أن جرى تقنينها بالتزامن مع تقنين أشكال أخرى من الإباحية منذ أواخر ستينيات القرن العشرين.[٥] ففي السويد، على سبيل المثال، كُشف عام ٢٠٠٩ أن المكتبة الملكية في مدينة ستوكهولم كانت تحتفظ بمجموعةٍ من هذه المواد، جُمعت بصورة قانونية بين عامي ١٩٧١ و١٩٨٠، واستمرّت إعارتها — بصورة غير قانونية — لأفراد من الجمهور حتى القرن الحادي والعشرين، في تذكير مقلق بالماضي شديد الليبرالية للسويد.[٦]

وفي عام ١٩٧٧، قُدّمت إلى البرلمان الفرنسي عريضةٌ تطالب بإلغاء تجريم العلاقات الجنسية بين البالغين والأطفال، ووقّع عليها عدد كبير من المثقفين المعروفين، من بينهم «جان-بول سارتر» (Jean-Paul Sartre)، و«جاك دريدا» (Jacques Derrida)، و«لوي ألتوسير»

1- http://www.nytimes.com/2012/11/02/world/europe/shield-of-celebrity-protected-savile-for-decades.html?auth=login-smartlock
2- http://www.bbc.co.uk/news/magazine-37517619
3- http://www.mirror.co.uk/news/uk-news/paedophile-information-exchange-leon-brittan-5825108
4- https://web.archive.org/web/20140306014809/http://blogs.telegraph.co.uk/news/timstanley/100261734/allen-ginsberg-camille-paglia-and-the-literary-champions-of-paedophilia/
5- https://en.wikipedia.org/wiki/Color_Climax_Corporation
6- http://www.rt.com/news/child-porn-in-open-access-at-swedish-national-library/

(Louis Althusser)، و«رولان بارت» (Roland Barthes)، و«سيمون دو بوفوار» (Simone de Beauvoir)، و«جيل دولوز» (Gilles Deleuze)، و«فيليكس جاتاري» (Félix Guattari)، وكذلك — المفكر الراديكالي الموقّر وأب نظرية الكوير — «ميشيل فوكو» (Michel Foucault).[1] وفي عام ٢٠٢١، زعم الكاتب «جاي سورمان» (Guy Sorman) في مقابلة مع صحيفة التايمز أن «ميشيل فوكو» لم يكتفِ بتبنّي هذا المبدأ نظريًا، بل مارسه عمليًا، إذ اعتدى جنسيًا على أطفال تتراوح أعمارُهم بين نحو ثمانية وعشرة أعوام خلال الفترة التي عاش فيها في تونس أواخر ستينيات القرن العشرين. وذكر «سورمان» أن هذا الأمر كان معروفًا لدى زملائه الصحافيين، «لكن لم يكن أحد يكتب عن قصص كهذه في تلك الأيام. كان «فوكو» ملك الفلاسفة. كان أشبه بإلهنا في فرنسا».[2]

وتجد جميع هذه الشخصيات نفسها اليوم — بحسب تعبير «أوين جونز» (Owen Jones) — في «الجانب الخطأ من التاريخ»، بعدما شهدت تسعينيات القرن العشرين ارتدادًا حادًا ضد محاولات تقنين البيدوفيليا. ففي سبعينيات القرن العشرين، كان المحافظون «الرجعيون» هم في الأساس من تصدّوا لجماعات مثل «تبادل معلومات محبّي الأطفال»، وكانت «ماري وايتهوس» (Mary Whitehouse)، على سبيل المثال، تضغط بقوةٍ من أجل مشروع قانون خاص أصبح لاحقًا قانون حماية الأطفال لعام ١٩٧٨. ومع مرور الوقت، انضم التقدميون إلى إدانة الاعتداء الجنسي على الأطفال، غير أن إسهام «وايتهوس» مُحِيَ من الذاكرة، كما طُويت إلى حدّ كبير الصفحة المخزية من تاريخ التسامح الليبرالي مع البيدوفيليا في العقود التي أعقبت الثورة الجنسية، ولم يُعاد كشفها إلا بصورة متقطّعة، من خلال تحقيقات مثل تلك التي تناولت قضية «جيمي سافيل».

واليوم، تُدان البيدوفيليا من قبل الليبراليين والمحافظين على السواء، إلى جانب طائفة أخرى من الانحرافات الجنسية، مثل ممارسة الجنس مع الموتى ومضاجعة الحيوانات. وبالنسبة لليبراليين، فإن الخط الفاصل بين السلوك الجنسي المشروع وغير المشروع يُبنى الآن على التشديد على مبدأ الرضا والموافقة الجنسية، وهو ما سيُبحث بمزيد من التفصيل في الفصول اللاحقة. وتكمن المشكلة في البيدوفيليا، وفق هذا التصور، في أن الأطفال لا يستطيعون إعطاء

1- https://en.wikipedia.org/wiki/French_petition_against_age_of_consent_laws
2- http://www.thetimes.co.uk/article/french-philosopher-michel-foucault-abused-boys-in-tunisia-6t5sj7jvw

موافقة حقيقية، ولذلك فإن أي نشاط جنسي يشارك فيه الأطفال يكون مرفوضًا على الدوام. ومن ثم، إذا جرى تذكّر التبريرات التي قدّمها بعض منظّري الثورة الجنسية للبيدوفيليا — مثل «فوكو» و«جايل روبن» (Gayle Rubin) — فإنما تُستعاد بوصفها انحرافًا عابرًا ومحرجًا عن المسار التقدمي، أو «التواءً» — إن جاز التعبير — في انحناءة القوس الأخلاقي للكون نحو العدالة.

غير أن هذا الاحتجاج القائم على مبدأ الموافقة الجنسية للطرفين يتداعى ويسقط عند أدنى تدقيق وتمحيص. فقد يكون الليبراليون قادرين على تقبّل حظر المواد الإباحية الخاصة بالأطفال بلا تردّد، لأنها تستلزم بالضرورة إيذاء أطفال حقيقيين أثناء إنتاجها، لكن ماذا عن الصور التي تصفها الشرطة بأنها «صور زائفة» تبدو وكأنها تمثّل أطفالًا حقيقيين؟ وماذا عن الرسوم التوضيحية (الكارتون) للأطفال؟ وماذا عن بالغين يتنكّرون ويتظاهرون بأنهم أطفال أثناء ممارسة الجنس؟ وماذا عن ممثلي المواد الإباحية الذين يبدون صغار السن للغاية، أو الذين يتعمّدون الظهور بمظهر أصغر من أعمارهم؟ وماذا عن «بيل دلفين» (Belle Delphine)، نجمة وسائل التواصل الاجتماعي البالغة من العمر واحدًا وعشرين عامًا، التي تبيع صورًا إباحية لنفسها وهي ترتدي تقويم أسنان وملابس طفولية، والتي تعرّضت عام ٢٠٢١ لانتقادات بسبب نشرها صورًا بدت فيها وكأنها طفلة تتظاهر بتعرّضها للاغتصاب على يد رجل متنكر في هيئة خاطف؟ وقد دافعت «بيل دلفين» عن نفسها قائلةً:

> أنا لا أعتذر عن أيِّ شيءٍ. ما فعلتُه لم يكن خطأً، وهو أكثر طبيعيةً مما يظنه الناس.
> انظروا إلى أحد أكثر الملابس أو التخيّلات الجنسية شيوعًا: زيّ تلميذة المدرسة.
> إذا ارتديتموه، فهل تروّجون للبيدوفيليا الآن؟[١]

وفي إطار الفكر الليبرالي، كيف يمكن الرد على سؤال «بيل دلفين» بالإجابة التي تبدو بديهية لمعظمنا: «نعم، إن تمثيل أفلام إباحية والتشبه بتلميذات المدارس تروّج للبيدوفيليا»؟ إن نظامًا أخلاقيًا يقوم حصرًا على مبدأ موافقة الطرفين الجنسية لا يتيح مجالًا لهذا النوع من الحدس الأخلاقي، وهو ما يضع الليبراليين في موقف حرج، كما أظهرت أبحاث «جوناثان هايدت» (Jonathan Haidt). ويغدو من الصعب كذلك الاحتجاج أو الاعتراض بمبدأ الضرر عند «جون

1- https://metro.co.uk/2021/01/13/belle-delphine-responds-as-shes-accused-of-fetishising-rape-13894142/?ito=cbshare

ستيوارت ميل» (J. S. Mill) حين نواجه طيفًا واسعًا من السيناريوهات الجنسية المقلقة: من زنا المحارم بالتراضي، وأكل لحوم البشر، وممارسة الجنس مع دجاج نافق، إلى أفعال جنسية تقع — في الحد الأدنى — على تخوم أو حدود البيدوفيليا، إن لم تكن بيدوفيليا صريحةً.

*****

كسر المحرّمات

عندما تشرع في كسر المحرّمات والممنوعات والقيود الجنسية، فلا ينبغي أن تتفاجأ عندما تجد أن جميعَ المحرّمات صالحةٌ للكسر، بما في ذلك تلك المحرمات والقيود التي تفضّلها أو تريد الإبقاء عليها. ولم يكن ادعاء «ميشيل فوكو» (Michel Foucault) وحلفائه قطّ أن إكراهَ الأطفال بعنفٍ على ممارسة الجنس أمرٌ مقبول. بل زعموا، بدلًا من ذلك، أن الرغبة الجنسية تتطوّر لدى بعض الأطفال في وقت أبكر مما تتطوّر لدى غيرهم، وأنه يصبح، بناءً على ذلك، ممكنًا في بعض الحالات أن تكون للأطفال علاقات جنسية مع بالغين لا تكون فقط غير صادمة، بل ممتعة للطرفين. وبالتالي، لم يكن الادعاء أن الرضا الجنسي أو الموافقة غير مهمين، بل إن الأطفال يكونون أحيانًا قادرين على إعطائهما. كما أشاروا، وبصورة صحيحة، إلى أن البيدوفيليين أقلية جنسية موصومة تعاني كثيرًا نتيجة التحريم والمنع المفروض ضدهم. ولذلك لم يكن مشروعُهم انحرافًا عن المسار التقدّمي، بل كان في الواقع منسجمًا معه منطقيًا. فمبادئ الليبرالية الجنسية، يؤسفني القول، تتدحرج بلا هوادة نحو هذه الهاوية، سواء أردنا ذلك أم لا.

وبالفعل، بعد ردّ الفعل العنيف ضد الدعوة إلى البيدوفيليا في تسعينيات القرن العشرين وبدايات الألفية الجديدة، بدأنا الآن نرى بعض الانزلاق عودةً إلى تفكير سبعينيات القرن الماضي. ففي عام ٢٠٢٠، أطلقت شركة «نتفليكس» (Netflix) فيلمًا بعنوان «اللطيفات» (Cuties) — وكان عنوانه الأصلي (Mignonnes) —، كتبته وأخرجته المخرجة الفرنسية-السنغالية «مايمونا دوكورِيه» (Maïmouna Doucouré). وتدور القصة حول الطفلة «إيمي»، البالغة من العمر أحد عشر عامًا، التي تعيش مع عائلتها السنغالية في حي فقير من أحياء باريس. وعندما يعلن والد «إيمي» نيّتَه الزواج بزوجة ثانية، تنكسر «إيمي» ووالدتُها، ويدفع هذا الانشقاق «إيمي» بعيدًا عن مجتمعها الديني المحافظ إلى فلك مجموعة من الفتيات يطلقن على أنفسهن اسم «اللطيفات».

إن «اللطيفات» لسن فتيات لطيفات كما يوحي الاسم. فهن يتنمّرن على «إيمي» وعلى بعضهن بعضًا، ويعتدين جسديًا على أطفال آخرين، ويسرقن، ويكذبن، كما يرقصن رقصة التويرك[١] وهن في سن الحادية عشرة. وقد شكّلن فرقة رقص للهواة واعتمدن فيها لبسَ أزياء كاشفة وأسلوبًا حركيًا متمايلًا بعيدًا كل البعد عمّا عاشته «إيمي» سابقًا. ولا تتعرّض الفتيات لتلقينٍ مباشر من أي شخص، كما أننا لا نرى في الواقع أيَّ أفعال صريحة من الاعتداء الجنسي. بل يتعلّمن حركات الاحتكاك والتغنّج عبر الإنترنت، ولا سيما من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، حيث تُشبع الرغبة الجنسية المبكرة للأطفال بالإعجابات والمتابعات. وفي أحد المشاهد، تجلس «إيمي» بين نساء أكبر سنًا أثناء الصلاة، بينما تشاهد خلسةً من تحت حجابها، عبر هاتف ذكي مسروق، مقطع فيديو لنساء بالغات يصفعن أرداف بعضهن العارية. ومفتونةً بهذا المشهد الجمالي، تعلّم «إيمي» الفتيات الأخريات إضافة حركات أكثر صراحةً في التعبير الجنسي إلى رقصاتهن، وفي أحد المشاهد التي يصعب مشاهدتها، يشجّع الأطفال بعضهم بعضًا على هزّ مؤخراتهم الصغيرة والاحتكاك بالأرض في محاكاة لنشوة إباحية.

ويمتد هذا المشهد طويلًا، كما هو الحال مع عدة مشاهد أخرى مماثلة، وقد جرى تداول أحدها على نطاق واسع عبر الإنترنت عندما أصبح الفيلم قضيةً فاصلةً في حربٍ ثقافية دولية —— إلى حدّ أن هاشتاج طالب بإلغاء الاشتراك في نتفليكس وهو CancelNetflix# تصدّر موقع تويتر صعودًا وهبوطًا لأسابيع، وطالب بعضُ الجمهوريين الأميركيين بإخضاع مسؤولي شركة نتفليكس لتحقيق جنائي بتهمة —— على حدّ تعبير النائب «جيم بانكس» (Jim Banks) —— «توزيع مواد إباحية للأطفال». وقد دافعت كلٌّ من شركة نتفليكس والمخرجة «دوكورِيه» عن الفيلم بالإشارة إلى أنه كان مقصودًا به أن يكون تعليقًا على أضرار اعتبار الأطفال أدوات جنسية. غير أن المشكلة كانت أنه تضمّن أيضًا قدرًا كبيرًا من استخدام الأطفال جنسيًا بالفعل، كما أن الحملة التسويقية الأصلية للفيلم لعبت على هذا الموضوع، إذ ظهرت الممثلات الأربع الصغيرات جدًا وهنّ يرتدين ملابس سباحة كاشفة، ويتخذن أوضاعًا إيحائية جنسيًا.

وليست هذه الفيديوهات القاسية لاستخدام الأطفال جنسيًا جديدة تمامًا. فقد صوّرت أفلام مثل فيلم (Taxi Driver)، و(Pretty Babies)، و(Thirteen) فتياتٍ لم يبلغن سنّ البلوغ في

١- رقصة التويرك: أسلوب رقص حديث نسبيًا، يتمحور حول حركات سريعة للوركين والأرداف، ذو جذور إفريقية وانتشار معاصر في ثقافة البوب. (المترجم)

سياقات جنسية غير ملائمة. لكن فيلم (Cuties) ذهب أبعد من جميع هذه الأفلام، ليس فقط في الإيحاء بالتجنس، بل في إظهاره فعليًا وبإسهاب.

ومع ذلك، تلقّى فيلم (Cuties) ردود فعل إيجابية في وسائل إعلام من بينها واشنطن بوست، ورولينج ستون، ونيويوركر، وديلي تلغراف، حيث أشاد أحد النقّاد بهذا الفعل الاستفزازي في «عصر مرتعب من الجنس الخاص بالأطفال»، ثم غرّد لاحقًا معربًا عن سعادته لأن الفيلم «أغضب كل الأشخاص المناسبين». وتكررت كلمة «هستيري» كثيرًا في هذه المراجعات، إلى جانب الإيحاء بأن الغضب من فيلم (Cuties) كان غير متناسب تمامًا، ولم ينبع إلا من هلع أخلاقي محافظ بشأن البيدوفيليا.

وثمّة شيء من القلق من البيدوفيليا بين الناس بشكل كبير، لكنه لا ينال هذا الاهتمام بين النخب الليبرالية. فهو يرتبط، ولا سيما في الولايات المتحدة، بجماعات مظلمة مثل «كيوأنون» (QAnon)، ويرتبط في بريطانيا على وجه الخصوص بالصحافة الصفراء. ففي عام ٢٠٠٠، عادت «إيفيت كلويت» (Yvette Cloete)، وهي طبيبة أطفال في الثلاثين من عمرها من جنوب أفريقيا تعمل في مقاطعة جوينت الويلزية، إلى منزلها لتجد كلمة «Paedo» مكتوبة على بابها الأمامي. واعتقدت الشرطة أن الفاعلين مراهقون محليون. وأجرت «كلويت» مقابلات صحافية اقترحت فيها أن المخربين ربما خلطوا بين كلمتي «paediatrician» (طبيبة أطفال) و«paedophile» (مغتصب أطفال)، وسرعان ما انتشرت القصة وتحولت في نهاية المطاف إلى رواية تُحكى على ألسنة الناس دائمًا. وبين أوساط أقراني وأصدقائي، سمعتُ مرارًا نسخة يُروى فيها أن حشدًا محليًا، ألهبته حملة مناهضة للبيدوفيليا في صحيفة (News of the World)، اعتدى جسديًا على طبيبة الأطفال، بل وأحرق منزلها.

لقد جرى الترويج لهذه القصة وتشويهها لأنها لبّت نزعةً معيّنة لدى التقدميين المتعجرفين، إذ قدّمت القلقَ المناهض للبيدوفيليا على أنه هوس يخصّ الطبقات العاملة الجاهلة والساذجة، وهي فئة يُنظر إليها إلى حدٍّ كبير على أنها تقف في «الجانب الخطأ من التاريخ». لكن، في حين أنه من المؤكّد أن نظريات المؤامرة التي تنتجها جماعات مثل «كيوأنون» (QAnon) زائفة، فمن الصحيح أيضًا أن هناك أمثلة صادمة لاعتداءات جنسية على الأطفال وقعت على نطاق واسع ومن دون معرفة. فقيام «جيمي سافيل» (Jimmy Savile) بالاعتداء على ما يصل إلى ألف طفل داخل مقارّ هيئة الإذاعة البريطانية كان سيبدو وكأنه نظرية مؤامرة لو لم نكن نعرف اليوم

أنه كان حقيقة، تمامًا كما يبدو قيام «جيفري إبستين» (Jeffrey Epstein) بتوفير فتيات قاصرات لرجال نافذين ومشهورين ضربًا من الخيال الغريب. ومع ذلك، فقد حدثت هذه الأمور بالفعل.

*****

فضيلة القمع

في إحدى حلقات مسلسل «عائلة سيمبسون» (The Simpsons) بعنوان «أنا غاضب» (I Am Furious)، التي عُرضت لأول مرة عام ٢٠٠٢، يقرّر «هومر سيمبسون» (Homer Simpson) أن يصبح شخصًا أقل غضبًا. وكلما شعر «هومر» بالغضب، قام بكبت هذا الشعور، فتظهر كتلةٌ على عنقه. وسرعان ما يغطي عنق «هومر» عددٌ متزايد من الكتل، فيما يصبح مظهره الهادئ أكثرَ هشاشة مع مرور الوقت. وفي نهاية الحلقة، يقوم «بارت» (Bart) و«ميلهاوس» (Milhouse) بمقلب في «هومر»، فينفجر فجأة كلُ هذا الغضب المكبوت في نوبة هياج خارجة عن السيطرة. ولاحقًا في المستشفى، يُخبر الطبيبُ عائلةَ سيمبسون بأن محاولات «هومر» لقمع مشاعره كادت أن تكون قاتلة، إذ «من دون فرصة للتنفيس، كان الغضب سيغمر جهازه العصبي». ويبدو، وفق هذا التصوير، أن القمع ليس صعبًا فحسب، بل خطير أيضًا.

ويمثّل هذا مشهدًا كوميديًا لفهمٍ معيّن لأفكار «فرويد» شائع في الغرب المعاصر، ويُطبَّق على القمع الجنسي تمامًا كما يُطبَّق على القمع العاطفي. ويفترض هذا النموذج أن الرغبة الجنسية كمية ثابتة لا بد من تصريفها دوريًا، إما عبر الممارسة الجنسية الفعلية، أو من خلال نوع آخر من «صمام الأمان»، مثل المواد الإباحية.

وتكمن مشكلة هذا النموذج في أنه لا يعترف بضرورة القمع الجنسي. فحتى في سوق جنسية «حرة» بعد ستينيات القرن العشرين، يفرض علينا القانونُ في كثير من الأحيان كبحَ نزواتنا الجنسية. فإذا رغبت في ممارسة الجنس مع شخص ما، لكنه لا يريد ذلك ولا يوافق عليه، فإن القانون يُلزمك بقمع رغبتك. كما يُحظر عليك ممارسة الجنس مع حيوان أو مع جثة، وفي إنجلترا وويلز، كما في معظم الأنظمة القانونية الأخرى في العالم، لا يجوز لك قانونًا مشاهدة مواد إباحية تتضمن مضاجعة الحيوانات أو ممارسة الجنس مع الموتى. فضلًا عن ذلك، قد

تتعرض لخطر السجن إذا مارست العادة السرية أو الجنس في مكان عام، وهو أمر يثير استياء منظّرة نظرية الكوير[١] «بات كاليفيا» (Pat Califia)، التي تتساءل:

> لماذا يُفترض أن يكون الجنسُ غيرَ مرئي؟ إن أفعالًا ممتعةً أخرى أو أفعالَ تواصلٍ بين الناس تُمارَس عادةً في الأماكن العامة — كالأكل، والشرب، والتحدث، ومشاهدة الأفلام، وكتابة الرسائل، والدراسة أو التدريس، وإلقاء النكات والضحك، وتقدير الفنون الجميلة. فهل الجنس قاتلٌ إلى هذا الحد، أو بغيضٌ، أو مرعب، بحيث لا يمكن السماح برؤيته؟ وهل الأجساد العارية قبيحةٌ أو مخزيةٌ إلى درجة أننا لا نستطيع تحمّل رؤية الأرداف أو الأعضاء التناسلية المكشوفة من دون أن نضعف أو ننهار؟[٢]

غير أن الرأي العام، ولسوء حظ «كاليفيا»، لم يتماهَ مع هذا الشكل من كسر المحرّمات. فكل مجتمع يقتضي قمع بعض أشكال الدوافع الجنسية، وما يختلف بين المجتمعات هو الموضع الدقيق للخط الفاصل.

وغالبًا ما تُقرن كلمة «فيكتوري» (Victorian) بالقمع الجنسي، ويُرجَّح أن ذلك يعود إلى أن بريطانيا الفيكتورية تمثّل — في حركة التأرجح التاريخي بين الانحلال والتزمُّت — أحدث مثال بارز على انعطاف حادٍ نحو التحفّظ. غير أنه، وكما نبّه مؤرّخون نقدوا السرديةَ التقليدية مثل «ماثيو سويت» (Matthew Sweet)، فإن الصورة الشائعة التي تصوّر الفيكتوريين بوصفهم مصدومين حتى من سيقان الطاولات غير المكسوّة ليست دقيقة بتاتًا،[٣] فقد كان ذلك المجتمع في الواقع مشحونًا بالتناقضات؛ إذ جمع، على سبيل المثال، بين موقف عاطفي مفرط — بل ومقزّز أحيانًا — تجاه الأطفال، وبين انتشار واسع لدعارة الأطفال، فضلًا عن أن سنّ الرضا والموافقة الجنسية كان، حتى عام ١٨٧٥، محددًا باثني عشر عامًا فقط.

ومع ذلك، لا خلاف في أن الفيكتوريين رفعوا بالفعل مستوى القمع إلى حدٍّ يفوق ما نمارسه اليوم، وأن هذا التشديد أفضى إلى ممارسات قمعية بالغة القسوة، وقعت في المقام الأول

١- نذكر القارئ بأن نظرية الكوير (queer theory) هي مقاربة نقدية ترى أن الهوية الجنسية والجندرية ليستا طبيعيتين أو ثابتتين، بل تُنتَجان اجتماعيًا عبر تغيرات القوة والتقاليد، وتهدف إلى تفكيك كل ما يُقدَّم بوصفه «طبيعيًا» أو «سويًا» في الجنس والهوية والرغبة. (المترجم)

2- Patrick Califia, Public Sex: The Culture of Radical Sex. San Francisco: Cleis Press, 2000, p. 26.

3- Matthew Sweet, Inventing the Victorians. London: Faber & Faber, 2002.

على الرجال المثليين والأمهات غير المتزوّجات. فالقمع الجنسي أداة فظّة بلا شك، لكنه ليس أداة يمكن التخلّي عنها كليًا، كما تكشف أخطاء سبعينيات القرن العشرين. ذلك أن الرغبات الراديكالية التي يتبنّاها الليبراليون الجنسيون تفترض عالمًا مثاليًا، في حين أن الواقع يكشف أن السلوك الجنسي البشري ليس جميلًا دائمًا، بل كثيرًا ما ينطوي على جوانب مظلمة ومقزِّزة. إن السعي إلى تحرير الأسماك الصغيرة مسعى نبيل، غير أن التصرّف الطائش قد يفضي كذلك إلى إطلاق الأسماك المفترسة. وفي مجتمع مترابط، لا يمكن فصل أحد الأمرين عن الآخر، إذ يؤثّر كلٌّ منهما في الثاني تأثيرًا حتميًا.

غير أن السردية التقدّمية تُخفي هذه الحقيقة، وبذلك تُلحق أذى بالغًا بـ «الأسماك الصغيرة»: أي أولئك الذين قُدِّموا قرابين لقضية الحرية الجنسية. فالمجتمع الذي يمنح الأولوية لرغبات ذوي النشاط الجنسي الكثير والمتعدد (السسيوجنسية) هو بالضرورة مجتمع يمنح الأولوية لرغبات الرجال، نظرًا للتوزيع الطبيعي لهذه السمة، وهؤلاء الرجال يحتاجون بعد ذلك إلى الاستعانة بآخرين — وغالبًا ما يكنّ نساءً شابات — لإشباع رغباتهم.

وسيرفض «التاتشريون الجنسيون» هذه الإشكالية بالإصرار على أن الأسماك الصغيرة قادرات تمامًا على ممارسة حريتهن الخاصة بمجرد قول «لا». وقد يذهبون حتى إلى الادعاء بأن في وصف أي شخص بأنه «سمكة صغيرة» قدرًا من التعالي. غير أنني أتصوّر أنّ كثيرًا من القرّاء يستطيعون استحضار حالات لم تنجح فيها محاولة ممارسة الحرية الفردية في مواجهة الإكراه الجنسي، سواء لأنفسهم أو لغيرهم، على النحو نفسه الذي يستطيع فيه معظمنا تذكّر حالات استُغلّ فيها شخص نعرفه من قبل صاحب عمله بطريقة ما. إن ميدان العلاقات الجنسية ليس متكافئًا، غير أن مصلحة الأقوياء تقتضي الادعاء بأنه كذلك.

وحين نجرّد الأخلاق الجنسية من كل شيء حتى العظم، فلا نُبقي سوى مبدأ الرضا أو الموافقة الجنسية، فإننا نمهّد الطريق — على نحو خاص — لبعض الأسماك المفترسة. وكما يبيّن مثال الدعوة إلى البيدوفيليا، فإن إطار الرضا الجنسي ليس متينًا بما يكفي لحماية الضعفاء من الأذى. وبالنظر إلى الأهمية العميقة والتعقيد البالغ للعلاقات الجنسية، يصبح من الضروري اعتماد نظام أخلاقي أكثر تطورًا، وليس «الفوكوهات» و«الروبِنات»[1] في هذا العالم هم الأجدر بصياغته.

١- الكاتبة تشير إلى أتباع «ميشيل فوكو» و«جايل روبين». (المترجم)

إن العودة إلى الأفكار التقليدية لا تحلّ المشكلة. فعلى الرغم من أنني أرفض التعالي الزمني للتقدّمية، الذي يتعامل مع الماضي وكأن أهلَه كانوا أغبياءَ أو أشرارًا، فإن العالم الذي نعيش فيه اليوم يختلف اختلافًا عميقًا عن العالم الذي صيغت فيه القوانين الدينية القديمة. فقد واجه أسلافُنا ظروفًا مادية مغايرة جذريًا لظروفنا: لم تكن لديهم وسائل موثوقة لمنع الحمل، وكانوا يعيشون في مجتمعات أصغر وأقل تعقيدًا، وعانوا معدلات مرتفعة جدًا للولادة والوفاة، واضطروا — بحكم الضرورة — إلى إسناد أدوار اجتماعية واقتصادية شديدة الاختلاف للرجال والنساء. إن محاكاة الماضي لا يمكن أن تعلّمنا كيف نعيش في القرن الحادي والعشرين.

والاحتكام إلى الحدس الأخلاقي قد يأخذنا ويسير بنا إلى أمام جزءًا في الطريق. فالليبرالية الجنسية تطالبنا بأن ندرّب أنفسنا على تجاوز ذلك النوع من الاشمئزاز الغريزي الذي يؤدي في كثير من الأحيان وظيفة وقائية. وقد افتتحتُ هذا الفصل بأمثلةٍ متطرفة للسلوك الجنسي قد تكون مزعجة، لكنها تصعب إدانتها ضمن الإطار الليبرالي. غير أنَّ الواقعَ مليءٌ بأمثلة لا تقلّ تطرفًا عنها إلا قليلًا. فعلى سبيل المثال، في عام ٢٠٢١، تصدّر الممثل الأميركي «آرمي هامر» (Armie Hammer) عناوين الأخبار عندما خرجت عدة من شريكاته السابقات لاتهامه بسلوك قسري وإجباري. فقد وصفت إحدى صديقاته السابقات، «كورتني فوسكوفيتش» (Courtney Vucekovich)، «هامر» بأنه «مهووس»، وأفادت بأنه «قام بأشياء لم أكن مرتاحة لها».[1] وتحدثت أخرى، «بايج لورينزه» (Paige Lorenze)، عن سلوكه «التحكّمي»، الذي منحها «شعورًا أشبه بالغثيان في معدتي».[2]

والمثير للغرابة في قضية MeToo# هذه تحديدًا أنها لم يكن ينبغي أن تفاجئ أحدًا. فقد كان لـ «هامر» تاريخٌ طويل في الاعتراف العلني بامتلاكه ميولًا جنسية عنيفة ومهينة؛ إذ لم يقتصر الأمر على تصريحه لمجلة (Playboy) عام ٢٠١٣ بأنه يستمتع بخنق النساء،[3] بل اعترف أيضًا لشريكاته بأن لديه هوسًا بأكل لحوم البشر. وقد أخبرت عدةُ نساء لاحقًا الصحافيين أن «هامر» كان يستمتع بإلحاق الألم بهن أثناء الجنس، وأنه تحدث كذلك عن رغبته في كسر عظامهن، وأكل جلودهن، وشواء لحومهن.

1- https://pagesix.com/2021/01/14/armie-hammers-ex-courtney-vucekovich-he-wanted-to-barbecue-and-eat-me /

2 -http://www.eonline.com/news/1231009/armie-hammers-ex-paige-lorenze-details-their-polyamorous-bdsm-relationship

3- http://www.independent.co.uk/life-style/armie-hammer-dms-sex-interviews-b1787196.html

قد يبدو هذا كافيًا ليكون إشارة تحذير واضحة. ومع ذلك، يبدو أن النساء اللواتي دخلن في علاقات جنسية مع «هامر» قد تشربن الاعتقاد الليبرالي الجنسي القائل بوجود حدّ فاصل صارم بين سلوك الإنسان في غرفة النوم وسلوكه خارجها. ولذلك، وعلى الرغم من أنهن لم يكنّ «يستسغن» اهتمام «هامر» بأكل لحوم البشر، فإنهن لم يشعرن أيضًا بقدرتهن على الاعتراض عليه. لقد قمْنَ بكبت حدسهن الأخلاقي، وبذلك انجذبن إلى مدار رجل خطير ومسيء. وكما سنرى في الفصل السادس، فإن هذه نتيجة متوقعة للموقف الليبرالي من ممارسات الجنس العنيف (BDSM)،[١] وهو موقف مدمّر على نحو خاص للأسماك الصغيرة الساذجة والمتسامحة.

إن الليبرالية الجنسية مضلِّلة، ليس لأنها تتجاهل الحدس الأخلاقي فحسب، بل لأنها تقاومه بقوة. ومع ذلك، وفي الوقت ذاته، فإن الحدس الأخلاقي — شأنه شأن مبدأ الموافقة الجنسية — مبسّط أكثر من اللازم بحيث لا يصلح بمفرده أساسًا أخلاقيًا كافيًا. فقد نتمكن من الاتفاق على أشدّ الأمثلة فظاعة، كأكل لحوم البشر مثلًا، لكن حدس شخص ما لن يكون دائمًا مطابقًا لحدس شخص آخر. وقد أصبح زنا المحارم بين الإخوة أو بين الآباء والأبناء — الذي يُفترض، بحسب كثير من علماء الأنثروبولوجيا، أنه محرّم عالمي — فئةً رائجةً على منصات الإباحية السائدة، وهو ما يشير إلى أن أقلية غير ضئيلة من المستخدمين تبدي اهتمامًا به. ويمكن للحدس الأخلاقي أن يكون نقطة بداية، لكنه قد يتحول أحيانًا إلى معيار مضلِّل.

لا أزعم أن هذه مسألة سهلة الحل، لأن سؤال «كيف ينبغي أن نتصرف جنسيًا؟» ليس في حقيقته سوى صيغة أخرى لسؤال أعمّ: «كيف ينبغي أن نتصرف؟». وبعد آلاف السنين من المحاولات، ما زلنا بعيدين عن التوصل إلى إجماع بشأن الإجابة. ومع ذلك، فهذه محاولتي للإسهام: ينبغي أن نعامل شركاءنا الجنسيين بكرامة، وألا ننظر إلى الآخرين على أنهم مجرد أجساد أو أعضاء جسدية للمتعة. وينبغي أن نطمح إلى الحبّ والتبادلية في جميع علاقاتنا الجنسية، سواء كانت مثلية أم مغايرة. وينبغي أن نقدّم الفضيلة على الرغبة، وألا نفترض أن كل شعور نكتشفه في قلوبنا — أو في أجسادنا — يستحق بالضرورة أن نترجمه إلى فعل.

كان ينبغي لـ «آرمي هامر» (Armie Hammer) أن يكبت رغبته في إيذاء شريكاته الجنسيات، وكان ينبغي لـ «جيمي سافيل» (Jimmy Savile) أن يكبت رغبته في الاعتداء

١- نذكر القارئ بأن ممارسات BDSM تشير إلى طيف من الممارسات الجنسية التي تقوم على التقييد، والسيطرة، والألم، وتبادل أدوار الهيمنة والخضوع، وتُبرَّر عادة بمفهوم «الموافقة». (المترجم)

الجنسي على الأطفال. ولم يكن في ذلك ما يلحق بهما ضررًا، لأن قدرًا من القمع الجنسي أمرٌ محمود وضروري. ولكان العالمُ مكانًا أفضل لو أن أمثال هؤلاء الرجال شعروا بقدر أكبر من الخجل تجاه رغباتهم، وتصرفوا على أساس هذا الخجل عبر ضبط أنفسهم. غير أن الأمر لا يقتصر على أسوأ المعتدين فحسب ممن ينبغي لهم تقديم الفضيلة على الرغبة؛ فجميعنا معرّضون، بين الحين والآخر، للانجذاب إلى أسوأ غرائزنا، ونحن أكثر ميلًا إلى الاستسلام لها في ثقافة تشجّع على السعي وراء اللذة والسعادة.

وكما هو حال «آرمي هامر»، وجد «عزيز أنصاري» (Aziz Ansari) نفسَه — بوصفه شخصية مشهورة — متورطًا في فضيحة من فضائح MeToo#، غير أن سلوكه كان، بخلاف هامر، أكثر التباسًا. ففي ليلة ٢٥ سبتمبر ٢٠١٧، خرج «أنصاري» في موعد غرامي مع امرأة عُرفت علنًا باسم «جريس» (Grace). ثم عادا إلى منزله، وحدث بينهما قدرٌ من التفاعل الجنسي ترك «جريس» تشعر بانزعاج عميق. وعلى الرغم من أنها كانت تنسحب بلطف، متمتمةً بترددها، فإن «أنصاري» حاول مرارًا وتكرارًا الشروعَ في ممارسة الجنس معها. وفي نهاية المطاف، وبناءً على طلبه، قامت بممارسة الجنس الفموي معه. ولم يستخدم هو أيَّ قوة، ولم تقل هي صراحةً «لا»، لكنها خرجت من التجربة وهي تشعر بأنها استُخدمت. وفي اليوم التالي، أرسلت إليه رسالةً تخبره بذلك، فاعتذر قائلًا إنه «أساء قراءة الموقف». وبعد عدة أشهر، نشرت روايتَها على موقع (babe).[1]

لم يبلغ سلوك «أنصاري» العتبةَ القانونية أو الحدَّ القانوني للاغتصاب، لأن «جريس» كانت — من الناحية التقنية — قد أعطت رضاها على اللقاء. وكان «أنصاري» يفترض بوضوح أن «جريس» سترغب في ممارسة الجنس معه، سواء بسبب مكانته كمشهورٍ، أو لأن ممارسة الجنس بعد الموعد الأول باتت أمرًا اعتياديًا بين الشباب الغربيين «المتحررين جنسيًا». ونتيجة لذلك، وُضعت «جريس» في موقف كان عليها فيه أن تُقيم الحُجّة ضد ممارسة الجنس، وهو ما وجدته شبه مستحيل. ومثل الطالبة التي اقتبستُ كلامَها في الفصل الأول، كانت ترغب حدسيًا في الدفاع عن حدودها الجنسية، لكنها اصطدمت بثقافة يسود فيها التصور القائل إن «الأمر مجرد جنس». فقد كانا شخصين بالغين قد خرجا للتو في موعد، وكان الجنس هو الخاتمة المتوقعة للأمسية — فكيف لها أن تقول «لا»؟

1- https://babe.net/2018/01/13/aziz-ansari-28355

وعقب نشر رواية «جريس»، حاول معلّقون نسويون ليبراليون إدانة «أنصاري» ضمن إطار الموافقة الجنسية، مقترحين — خلافًا للأدلة المتاحة — أن اللقاء لم يكن رضائيًا حقًا. وبما أن الحاجة إلى الرضا الجنسي هي المبدأ الأخلاقي الوحيد المتبقي في ظل خيبة الأمل الجنسية المعاصرة، فقد كان لا بد من توظيف هذا المبدأ. غير أن موطن الخلل يكمن في أن مبدأ الموافقة الجنسية لا يتجاوز كونه عتبة دُنيا للممارسة الجنسية، لا معيارًا أخلاقيًا إيجابيًا يُحتذى به. لقد نجح «أنصاري» في تجاوز هذا الحد الأدنى، لكنه فشل في أن يتصرّف على نحوٍ لائق. وفي عصر آخر، كان من الممكن وصف سلوكه بأنه غير أخلاقي أو غير مهذّب، غير أن هذه مفردات لم يعد النسويون الليبراليون يشعرون بالراحة في استخدامها، نظرًا لارتباطاتها «المقزّزة» بالمحافظة الدينية. ولم يبقَ في متناولهم سوى لغة الرضا والموافقة الجنسية، لأن صندوق الأدوات الأيديولوجي الذي وفّرته النسوية الليبرالية لا يحتوي إلا أداة واحدة فظة — وهي، على نحو غير مفاجئ، غير كافية بتاتًا.

إن نظامًا متقدّمًا للأخلاقيات الجنسية ينبغي أن يطالب الناسَ بأكثر من ذلك. وبما أن الرجال، بوصفهم الجنس الأقوى جسديًا والأكثر اندفاعًا جنسيًا، فعليهم أن يُظهروا قدرًا أكبر من ضبط النفس من النساء عند مواجهة الإغراء. لقد أصبحت كلمة «الشهامة» (chivalry) اليوم شديدة القدم وقليلة الرواج، لكنها تصف جانبًا مما أدعو إليه. وكما تكتب المنظّرة النسوية «ماري هارينجتون» (Mary Harrington):

> إن القواعد الاجتماعية «كالشهامة» التي تشجّع نزعة الحماية الذكورية تجاه النساء تُقرأ، من منظور نظرية المساواة، بوصفها أمور متعالية وتمييزية. غير أن التفوّق الجسدي الذكوري الموثّق عبر الثقافات، والميل الأكبر إلى العنف، يجعلان مثل قواعد وأخلاق الشهامة والفروسية مفيدة للنساء إلى حدٍّ ساحق، ويجعلان إلغاءها باسم النسوية أمرًا بالغ الحماقة.[١]

وفي الفصول القادمة، سأستعرض بعض الدوافع الذاتية التي قد تدفع الرجال إلى اختيار ما سمّاه «آر. إتش. توني» (R. H. Tawney) قبل ما يقرب من قرن «القبول المتعمّد بالقيود الاجتماعية المفروضة على الحرية الفردية». غير أن الدافع إلى إظهار الفضيلة الجنسية ينبغي أن يتجاوز المصلحة الذاتية للإنسان. فليس من المخالف للقانون خيانة الشريك، أو قبول خدمات

1- Mary Harrington, unpublished manuscript. ‘Feminism against progress’ (2021)

جنسية من شخص لا تكنّ له احترامًا، أو حتى ممارسة ضغط خفيّ لإكراه شخص على ممارسة الجنس — كما فعل «عزيز أنصاري» مع «جريس» — لكنه، مع ذلك، ليس سلوكًا لائقًا ولا شهمًا ولا نبيلًا. فهناك كثير من السلوكيات الجنسية التي ليست مجرمة قانونًا ولا فاضلة في الوقت نفسه، ولا يملك إطار الموافقة الجنسية الكثيرَ ليقوله بشأنها. وفي تلك المساحة القلقة بين الليبرالية الجنسية والتقليدية، ينبغي أن يكون من الممكن شقّ طريقٍ فاضل وأخلاقي بينهما.

الفصل الرابع:
الجنس بلا حب ليس تمكينًا

في الحلقة الأولى على الإطلاق من مسلسل (Sex and the City)، التي عُرضت عام ١٩٩٨، تقرر الكاتبة في الصحف التي تعيش في مانهاتن، والمعروفة في الأوساط الاجتماعية الراقية، السيدة «كاري برادشو» (Carrie Bradshaw)، أن تتوقف عن البحث عن «السيد المثالي» وأن تبدأ في الاستمتاع بحياتها. وفي سبيل ذلك، تدخل في علاقةٍ عابرة مع حبيبٍ سابق، تصفه بأنه «شخص أناني، بخيل عاطفيًا، ومُقرف»، ولم يعد يربطها به أيُّ تعلق عاطفي. تزوره في منزله بعد الظهر، تستمتع بعرضه لممارسة الجنس الفموي، ثم تغادر قبل أن تتاح له فرصة الوصول إلى النشوة بنفسه. وبينما يتجاهل النصُ استياءَ الحبيب السابق، تخبرنا «كاري» عن نشوتها قائلة:

> بينما بدأتُ أرتدي ملابسي، أدركت أنني فعلتُها. لقد مارستُ الجنس مثل الرجل.
> غادرتُ وأنا أشعر بالقوة، والقدرة، وبحياة مليئة بالحيوية على نحو لا يُصدَّق.
> شعرتُ وكأنني أمتلك هذه المدينة. لا شيء ولا أحد يمكنه أن يعترض طريقي.

وفي المسلسل التلفزيوني الناجح (The Fall)، الذي عُرض في منتصف العقد الثاني من هذه الألفية، تستمتع أيضًا رئيسةُ الشرطة الجذابة «ستيلا جيبسون» (Stella Gibson) بفرصة ممارسة الجنس «مثل الرجل». فبعد وصولها حديثًا إلى مدينة جديدة، حيث كُلِّفت بالتحقيق في سلسلة من جرائم القتل، تلمح رقيبًا وسيمًا — أدنى منها رتبةً وسنًا — فتدعوه إلى فندقها لممارسة الجنس. وعندما تكتشف لاحقًا أن الرجل متزوج، تُظهر «جيبسون» لامبالاةً مُتعمَّدة، وتبرر مغامرتها الجنسية باقتباس من النسوية «كاثرين ماكينون» (Catharine MacKinnon): «الرجل يجامع المرأة؛ فاعل، فعل، مفعول به. والدلالة واضحة: هذه المرأة تُجامِع الرجل هي كذلك؛ إذ أنها جزء من العلاقة الجنسية نفسها».

تُخبرنا هذه الأمثلة بشيء بالغ الأهمية عن الكيفية التي يُتصوَّر بها التحرر الجنسي للنساء؛ إذ قاد مسلسل (Sex and the City) هذا التصور عند الدخول إلى القرن الحادي والعشرين،

بينما يمثّل مسلسل (The Fall) اليوم ما بات يُنظر إليه بوصفه الوضع الطبيعي الجديد. ففي هذا السياق، توصف «ستيلا جيبسون» في الصحافة على نحو واسع بأنها «بطلة نسائية قوية»، «إنها مرتاحة جدًا مع نفسها»، كما قالت الممثلة «جيليان أندرسون» (Gillian Anderson) عند حديثها عن شخصيتها في مقابلة مع جريدة (The Sun).[١]

تُظهر كلتا البطلتين حريتهما الجنسية من خلال ممارسة جنسٍ خالٍ من الحب، فجّ، مع رجال لا يكنّ لهن أي مودة. لا تُبديان أيَّ اعتبار للحياة الحميمة لشركائهن، ويتخلين عنهم فور انتهاء اللقاء. والغاية من هذا اللقاء هي الإشباع الجسدي، و— صراحةً في حالة «برادشو»، وضمنيًا في حالة «جيبسون» — الإشباع النفسي. إنهما تعاملان شركاءهما بوصفهم وسائل لا غايات، مدفوعتين برغبة في متعة قصيرة الأمد. وهكذا يبدو أن ما تعنيه عبارة ممارسة الجنس «مثل الرجل»، على الأقل في هذه التصورات والأمثلة المنتشرة بين الناس، هو في الواقع ممارسة الجنس مثل الوغد.

ومع ذلك، ترى النسوية الليبرالية أن ممارسة الجنس «مثل الرجل» تمثل مسارًا بديهيًا تستطيع النساء من خلاله تحرير أنفسهن من التوقعات الأبوية التقليدية المتعلقة بسلوكيات العفة والطاعة. فإذا كنت ترى أنه لا خطأ في حد ذاته في استخدام الآخرين كأدوات في سبيل إشباعك الجنسي، فإن هذا المنطق يبدو متماسكًا وقويًا. وإذا كنت تعتقد أن الرجال والنساء متشابهون إلى حد بعيد جسديًا ونفسيًا، باستثناء بعض العقد القليلة المكتسبة من ثقافة معادية للجنس، فلماذا لا ترغب في أن تحصل النساءُ على النوع نفسِه من المتعة الجنسية التي لطالما تمتع بها الرجال (ولا سيما ذوو المكانة الاجتماعية العالية منهم)؟ إن هذا الموقف تفاعليٌّ بحت: بما أن النساء عوقبن تاريخيًا على هذا النوع من السلوك الجنسي، فلا بد أن يعني التحرر ليس فقط إنهاء هذا العقاب، بل أيضًا المصادقة على ما كان محظورًا في السابق: الرد بأن تجامع هي الرجل.

وتُعدّ الكاتبة المتخصصة في شؤون الجنس، والمنتجة التلفزيونية «كارلي شيورتينو» (Karley Sciortino)، من أشد المؤيدين لهذا الطرح. ففي نظرها، فإن الازدواجية الجنسية — التي يُنظر فيها إلى التعددية الجنسية الذكورية بوصفها إيجابية أو عادية، بينما يُنظر إلى التعددية الجنسية الأنثوية بازدراء — هي نتاج التنشئة الاجتماعية داخل ثقافة تراها «شيورتينو»

1- http://www.thesun.co.uk/tvandshowbiz/1880453/the-falls-gillian-anderson-discusses-sexual-chemistry-between-her-character-and-jamie-dornans-serial-killer/

قمعية ومعادية للجنس. والحل، كما تراه، يكمن في تدريب أنفسنا على التخلص من الاستجابات السلبية تجاه ما تسميه «الانفلات الجنسي»:

> لقد أنشأنا اليوم بيئة يُفترض فيها أن تُراقَب الطبيعة الجنسية الذكورية (المفترسة، بحسب الادعاء)، وأن تُحمى الطبيعة الجنسية الأنثوية (السلبية، بحسب الادعاء) ... هذا تصور متقادم، ومسيء، ومدمر نفسيًا للنساء، لأنه يملك القدرة على تضليل الفتيات ودفعهن إلى الاعتقاد بأن خوض تجربة جنسية واحدة غير مثالية يعني أنهن فقدن جزءًا من ذواتهن. لا يا سادة — إن الشفقة على النساء وتصويرهن كضحايا لا يساعدنا؛ بل إنه ببساطة يُقلل من أهمية الحرية الجنسية الأنثوية.[1]

إنّ المصطلح الملتبس «غير مثالية» يؤدي هنا دورًا محوريًا، لأن «شيورتينو» تُقِرّ بأن ساحة اللعب ليست متكافئة تمامًا، سواء استمرّ وصم النساء جنسيًا أم لم يستمر. فهناك، أولًا، الفارق في القوة الجسدية، وهو ما يجعل أيَّ لقاء جنسي أكثرَ خطورة، بحكم الواقع، على المرأة. وهناك، ثانيًا، خطر الحمل.

غير أنّ الحجة النسوية الليبرالية تقودنا إلى خلاصة مفادها أنه إذا كان الهدف هو تحطيم ازدواجية المعايير بين نظر المجتمع إلى التقليل من شأن الرجل إذا مارس الجنس مع نساء كثيرات، بينما لا يعطي المجتمع هذا الحق للنساء، فلا بدّ من استخدام الجسد — جسدكِ وأجساد نساء أخريات — بوصفه أداة اقتحام في مواجهة البنيان الأبوي. وتتمثل النصيحة الموجَّهة إلى الشابات في أنه يجب عليهن «الرد بالمجامعة» إن أردن أن يكنّ نسويات صالحات، وغالبًا ما تسير الأمور على ما يرام — ولكن ماذا عندما لا يحدث ذلك؟ ماذا حين ينتهي اللقاء الجنسي إلى كونه «غير مثالي»، أو أسوأ من ذلك؟ عندها، لا يبقى سوى الرجوع إلى الحل الجاهز القديم لدى النسوية الليبرالية: «علّموا الرجال ألّا يغتصبوا».

وتكمن مشكلة هذا الموقف في أن مبدأ «تظاهري بالنجاح حتى يتحقق» لا يشكّل استراتيجية سياسية قابلة للاستمرار. لا يمكننا ببساطة أن نتظاهر بأن العالم مكانٌ آمن، وأن وجود «طبيعة الجنس الذكورية الافتراسية» ليس سوى صورة تقليدية عفا عليها الزمن. وكما

1- Karley Sciortino, Slutever: Dispatches from a Sexually Autonomous Woman in a Post-Shame World. New York: Grand Central, 2018, pp. 10–11.

رأينا في الفصل الثاني، فإن الصورة العالمية للعنف الجنسي تتطابق إلى حد بعيد مع هذه الصورة النمطية: فالرجال هم بالفعل من يرتكبون هذا العنف في الغالب، والنساء الشابات هن بالفعل الأكثر عرضةً للخطر. وهذه ليست حقيقة يمكن محوها بمجرد التمني.

*****

فجوة التوجّه الاجتماعي-الجنسي

الرجال والنساء ليسوا متماثلين، لا على المستوى الجسدي ولا على المستوى النفسي. فالجنس العابر والسريع ينطوي على مخاطر أكبر بكثير بالنسبة للنساء، بينما يمنحهن في المقابل عوائد أقل بكثير. ومع ذلك، فإن الإصرار (المعقول تمامًا) على حق النساء في ممارسة الجنس دون أن يتعرضن للتجريم أو النبذ الاجتماعي، ينزلق بسهولة شديدة إلى إصرارٍ آخر مفاده أنهن، لمجرد امتلاكهن هذا الحق، فإنهن يجب عليهن ممارسته.

وتُعدّ «كاري برادشو» و«ستيلا جيبسون» شخصيتين مثاليتين يُراد الاقتداء بهما: جميلتين، لامعتين، وناجحتين مهنيًا. إن النموذج الذي تجسدانه هو نموذج يُفترض بنا أن نتبعه، و«شيورتينو» تحث قارئاتها على السير على هذا النهج. ولا أشك في أن بعض النساء يستمتعن بالفعل بالجنس العابر السريع، ويقررن — بعد موازنة دقيقة بين المخاطر والمكاسب — أن ممارسته تخدم مصالحهن. غير أن موضع تشكيكي هو الادعاء القائل إن ثقافة الجنس العابر والسريع تحقق فائدةً عامةً لجنس بنات حواء ككل.

لقد تناولتُ في موضع سابق من هذا الكتاب ما يسميه علماء النفس «التوجّه الاجتماعي-الجنسي» أو السسيوجنسية، أي السمة التي تحدد مدى انجذاب الشخص إلى التنوع والمغامرة في التجربة الجنسية. ويعتمد الباحثون في قياس هذا التوجّه على استبيان معياري يطرح الأسئلة التالية:[١]

- مع كم عدد من الشركاء المختلفين مارستَ/مارستِ الجنس خلال العام الماضي؟
- مع كم عدد من الشركاء المختلفين مارستَ/مارستِ الجماع الجنسي مرة واحدة فقط؟

1- http://www.larspenke.eu/pdfs/SOI-R%20Manual.pdf

• مع كم عدد من الشركاء المختلفين مارستَ/مارستِ الجماع دون رغبة في إقامة علاقة طويلة الأمد ملتزمة؟

• هل ترى/ترين أن ممارسة الجنس دون حب أمر مقبول؟

• هل يمكنك أن تتصور/تتصوري أن تكون مرتاحًا ومستمتعًا بالجنس العابر مع شركاء مختلفين؟

• هل لا ترغب/ترغبين في ممارسة الجنس إلا حين تكون/تكونين واثقًا/واثقة من وجود علاقة جادة طويلة الأمد؟

• كم مرة تراودك/تراودكِ تخيلات جنسية عن شخص لا تربطك به علاقة عاطفية ملتزمة؟

• كم مرة تختبر/تختبرين الإثارة الجنسية عند التفاعل مع شخص لا تربطك به علاقة عاطفية ملتزمة؟

• في الحياة اليومية، كم مرة تخطر لك/لكِ تخيلات عفوية عن ممارسة الجنس مع شخص التقيت به للتو؟

عالميًا، توجد فجوة واضحة في متوسط التوجّه الاجتماعي-الجنسي بين الرجال والنساء؛ إذ يميل الرجال عمومًا إلى البحث عن تنوع جنسي بدرجة أكبر بكثير من النساء. وهناك تفسير تطوري قوي لهذا الاختلاف.[١] وكما توضح عالمة الأحياء «آن كامبل»:

> من منظور بيولوجي، يكتمل استثمار الرجل ومشروعه عند الإخصاب، وبعد ذلك يكون حرًا في المضي قدمًا. أما النساء، فعلى عكس الرجال، فهن موجَّهات نحو الجودة وليس الكمية. فاستثمارهن لا يقتصر على لحظات عابرة من المتعة، بل يمتد إلى تبعات الإنجاب، كما أن عدد الأطفال الذين يمكن للمرأة إنجابهم محدود... ولهذا، وبسبب حجم الالتزام الذي يتطلبه كل طفل، خُلقت أجساد النساء وعقولهن بدقة استثنائية لتستثمر فقط في الطفل الأعلى جودة الممكن إنتاجه.[٢]

1- David P. Schmitt, ‘Sociosexuality from Argentina to Zimbabwe: a 48-nation study of sex, culture, and strategies of human mating’ , Behavioral and Brain Sciences 28 (2005): 247–75; discussion, 275–311.

2- Anne Campbell, A Mind of Her Own: The Evolutionary Psychology of Women. 2nd edn, Oxford: Oxford University Press, [2002] 2013, p. 51.

مع أن الرجال غالبًا ما يستثمرون قدرًا كبيرًا من الوقت والطاقة في الأبناء الناتجين عن علاقات معترف بها اجتماعيًا — أي الزواج — فإن لديهم أيضًا نمطًا بديلًا من السلوك الجنسي يُغلِّب الكمَّ على الكيف، ألا وهو تلقيح أكبر عدد ممكن من النساء من دون تحمّل تبعات ذلك. ويميل بعض الرجال إلى هذا النمط أكثر من غيرهم تبعًا لدرجة التوجّه الاجتماعي-الجنسي لديهم — «المتلاعبون» في مقابل «الآباء» — غير أن هذا التقسيم ليس قاطعًا. فقد ينجذب الرجل إلى إحدى الاستراتيجيتين دون الأخرى في مراحل مختلفة من حياته، أو في سياقات معينة، أو مع شركاء بعينهم. وتوجد داخل طبيعة الجنس الذكورية مرونة لافتة لا تكون النساء واعيات بها دائمًا، ولا سيما في مناخ سياسي ينكر أصلًا وجود فروق نفسية متشكّلة تطوريًا بين الجنسين.

ومن المهم التأكيد على أن الفارق في التوجّه الاجتماعي-الجنسي بين الرجال والنساء هو فارق متوسط لا مطلق: فهناك نساء يتمتعن بدرجات مرتفعة جدًا من هذا التوجّه، كما أن هناك رجالًا يتمتعون بدرجات منخفضة. وهذا يعني أنه، على المستوى الفردي، لا تكفي معرفة جنس الشخص للتنبؤ على وجه اليقين بدرجة توجّهه الاجتماعي-الجنسي، وإن كان من الممكن تقديم تقدير احتمالي معقول.

وفي المقابل، لا ينبغي أن ننسى أن الاستثناءات الفردية لا تنقض القاعدةَ العامة. فعندما ننظر إلى مجتمعات المثليين والمثليات، تتجلى الفروق المتوسطة بين الطبيعة الجنسية الذكورية والأنثوية بوضوح صارخ. ورغم أن الإشارة إلى عمق الاختلاف بين هاتين الثقافتين الجنسيتين قد تثير الجدل، فإن تجاهل الكم الكبير من البيانات القوية سيكون ضربًا من عدم الأمانة العلمية. فالنساء المثليات يُظهرن ميلًا قويًا إلى الأحادية الزوجية الملتزمة: إذ تُفيد المرأة المثلية في المتوسط في المملكة المتحدة بأن لديها شريكًا جنسيًا واحدًا فقط خلال العام الماضي،[١] وتذكر الغالبية أن علاقتهن بشركائهن سبقت الممارسة الجنسية بأشهر أو سنوات.[٢] كما أن النساء المثليات أكثر ميلًا بكثير من الرجال المثليين إلى الزواج أو الدخول في شراكة مدنية.[٣]

وفي مذكراته عن الحياة المثلية في الولايات المتحدة خلال القرنين العشرين والحادي والعشرين، يصف «أندرو سوليفان» (Andrew Sullivan) مجتمع المثليات بأنه مجتمع يتمتع

1- V. Bailey, C. Farquhar, C. Owen et al., 'Sexual behaviour of lesbians and bisexual women' , Sexually Transmitted Infections 79 (2003): 147–50.

2- https://researchonline.lshtm.ac.uk/id/eprint/1402

3- http://www.economist.com/britain/2020/01/09/why-lesbian-couples-are-more-likely-to-divorce-than-gay-ones

«بثقافة من الاستقرار الاستثنائي والتنوع، حلم الزواج بشخص واحد»، وإن كان — كما يلاحظ بدقة — مجتمعًا «لم يحظَ، على نحو ما، بأنصاره بين اليمين الديني المهووس بالأسرة».[١]

وعلى النقيض من ذلك، يرسم «سوليفان» صورة للحياة المثلية الذكورية بوصفها «أشبه بلوحة غارقة في التستوستيرون»،[٢] وتؤكد الدراسات الرصدية هذا التصوير، إذ ينتشر الجنس العابر بين الرجال المثليين بدرجة تفوق بكثير انتشاره بين النساء المثليات. ومع ذلك، فإن مرونة طبيعة الجنس الذكورية تبدو أوضح بين الرجال المثليين منها بين المغايرين. ففي استطلاع أُجري عام ٢٠١٠، أفاد نحو ربع الرجال المثليين بأنهم يعيشون أحادية مستقرة تضاهي ما لدى المرأة المثلية المتوسطة، بينما أفاد ربع آخر بوجود أكثر من ثلاثة عشر شريكًا خلال العام الماضي،[٣] وأفادت أقلية أصغر — لكنها غير هامشية — بوجود مئات الشركاء عبر حياتهم، وهو نمط يكاد يكون غائبًا تمامًا لدى النساء المثليات، إذ لا يوجد، في نهاية المطاف، ما يعادل «ثقافة حمّامات البخار» في السياق النسوي المثلي. وكما جاء في «مسح السلوك الجنسي لدى الرجال المثليين»: «هناك طيف واسع للغاية من أنماط تغيير الشركاء بين الرجال الذين يمارسون الجنس مع رجال — فبعضهم يكتفي بشريك واحد، بينما يغيّر آخرون شركاءهم أسبوعيًا، أو بوتيرة أعلى».[٤]

وتترك الأقلية ذات التوجّه الاجتماعي-الجنسي المرتفع من الرجال المثليين أثرًا بالغًا في النتائج الإحصائية؛ إذ أظهر استطلاع واسع النطاق عام ٢٠١٦ أن متوسط عدد الشركاء الجنسيين عبر العمر يزيد بست مرات لدى الرجال المثليين، وبثماني مرات لدى الرجال ثنائيي الميل الجنسي، مقارنة بالرجال المغايرين.[٥] ومن ثم، يشكّل السلوك الجنسي لدى الرجال المثليين مؤشرًا بالغ الدلالة على ما يحدث حين يُزال بالكامل القيد المتمثل في التفضيل الجنسي الأنثوي.

تُحدَّد التفضيلات الجنسية للرجال المغايرين إلى حدٍّ كبير بحقيقة أن النساء — عندما يُمنحن حق حرية الاختيار — يكنّ عمومًا أكثر انتقائية بكثير من الرجال، ويرفضن نسبة أعلى

1- Andrew Sullivan, Love Undetectable: Notes on Friendship, Sex, and Survival. New York: Alfred A. Knopf, 1998, pp. 162–3.

٢- المصدر السابق: ص ١٦٠

3- http://www.nat.org.uk/sites/default/files/publications/July-2010-Partnership-Patterns-and-HIV-Prevention.pdf

4- https://researchonline.lshtm.ac.uk/id/eprint/1386840/1/report2009f.pdf

5- Catherine H. Mercer et al., ‘The health and well-being of men who have sex with men (MSM) in Britain: evidence from the third National Survey of Sexual Attitudes and Lifestyles (Natsal-3)’ , BMC Public Health 16 (2016), article 525; doi:10.1186/s128 89-016-3149-z

بكثير من المتقدّمين. فعلى سبيل المثال، تناولت دراسة أُجريت عام ١٩٧٨ — وأُعيدت لاحقًا بالنتائج ذاتها تمامًا — مشاركين يتمتعون بجاذبية متوسطة اقتربوا من غرباء في العمر نفسه وعرضوا عليهم ممارسة الجنس.[١] وكما خلص الباحثون: «كانت الغالبية الساحقة من الرجال مستعدين لإقامة علاقة جنسية مع النساء اللواتي اقتربن منهم، في حين لم توافق امرأةٌ واحدةٌ على ذلك».

ويرى بعض النسويات أن هذا مردّه إلى الثقافة المعادية لممارسة الجنس، تتكبد فيها النساء ضررًا أكبر على سمعتهن إذا اعتُبرن مفرطات في العلاقات، وقد يكون صحيحًا أيضًا أن بعض النساء المشاركات في هذه الدراسات كنّ راغبات في القبول بالجنس، لكنهن امتنعن خوفًا على سلامتهن الجسدية. غير أن هذه التفسيرات تعجز عن تفسير حقيقة أن النساء أكثر انتقائية من الرجال حتى على تطبيقات ومواقع التعارف، فضلًا عن أن الرجال والنساء يختلفون اختلافًا حادًا في مستوياتهم الأساسية من الاشمئزاز الجنسي.[٢] فالاشمئزاز يستدعي استجابةً جسدية يمكن قياسها عبر معدلات ضربات القلب والتنفس، وضغط الدم، وإفراز اللعاب، حتى وإن لم يكن الشخص واعيًا بهذه المؤشرات.[٣] وتُظهر الدراسات أن عتبة الاشمئزاز الجنسي لدى النساء أقل بكثير، في المتوسط، مما هي عليه لدى الرجال.

ومن المثير للاهتمام أنني لا أعرف لفظًا في اللغة الإنجليزية يعبّر عن انفعال محدد عاشته كلُ امرأة تحدثتُ إليها مرة واحدة على الأقل، بينما لا يبدو أن الرجال الذين تحدثتُ إليهم يتعرّفون عليه أصلًا. إنه شعور مركّب من الخوف والاشمئزاز الجنسي — إحساس عميق خانق بالغثيان ينتج عن الشعور بالتواجد قرب رجل شهواني يثير النفور. فالتعرّض للمسّ في حشد، أو للنظرات المتطفلة أثناء السير وحيدة، أو لتلقي عرض جنسي فظ في حانة، كلها مواقف قادرة على استحضار هذا الشعور الكريه. وهو شعور تُجبَر النساء العاملات في صناعة الجنس على كبحه. وفي هذا السياق، تكتب الناجية من الدعارة «رايتشل موران» (Rachel Moran) أن القدرة على

1- R. D. Clark and E. Hatfield, ‘Gender differences in receptivity to sexual offers’ , Journal of Psychology & Human Sexuality 2 (1989): 39–55
2- L. Al-Shawaf, D. M. Lewis and D. M. Buss, ‘Sex differences in disgust: why are women more easily disgusted than men?’ , Emotion Review 10 (2018): 149–60 .
3- https://nsuworks.nova.edu/cps_stuetd/43

عدم البكاء أو التقيؤ الناتجة عن الخوف والاشمئزاز الجنسيين تُعد إحدى «المهارات» الجوهرية التي تتطلبها هذه الصناعة.[١]

وتكشف الدعارة، أكثر من أي مجال آخر من مجالات الحياة، عن الفوارق الهائلة — وأحيانًا الصادمة — بين السلوك الجنسي لدى الرجال والنساء. فالنساء يشكّلن الغالبية الساحقة من بائعي الجنس، ببساطة لأن معظم مشتري الجنس هم رجال (ما لا يقل عن ٩٩٪ في جميع أنحاء العالم)، ولأن معظم الرجال مغايرون، ولأن هذه الصناعة تحرّكها قوى العرض والطلب. وقد يكون غياب مشتريات الجنس من النساء ناجمًا جزئيًا عن المخاطر الجسدية الملازمة للقاء الجنسي مع غريب، غير أن هذا الانحياز في ممارسة الجنس يعكس أيضًا طبيعة الرغبة الذكورية والأنثوية ذاتها.

ومشترو الجنس، بحكم التعريف، هم أشخاص يسعون إلى الجنس خارج إطار علاقة ملتزمة، وغالبًا مع أشخاص لم يسبق لهم أن التقوهم. وهذا النمط من اللقاءات الجنسية يكون أكثر جذبًا بكثير لمن يتمتعون بدرجات مرتفعة من التوجّه الاجتماعي-الجنسي. أما ذوو الدرجات المنخفضة في هذه السمة فلا يهتمون أصلًا بممارسة الجنس مع غرباء، ولا يرغبون، بطبيعة الحال، في دفع المال لقاء ذلك أو في تعريض أنفسهم لخطر العقوبة في البلدان التي تُجرِّم الدعارة كليًا أو جزئيًا. ويمكن تصوير التوزيع الاجتماعي-الجنسي لدى الرجال والنساء، على نحو تقريبي، بمنحنيين جرسيين مع مساحة كبيرة من التداخل. غير أن الفروق المتوسطة بين المجموعتين — كما في أي سمة موزعة توزيعًا طبيعيًا — تظهر بأوضح صورها عند الأطراف: فذوو التوجّه الاجتماعي-الجنسي المرتفع للغاية هم في الغالب رجال، وذوو التوجّه المنخفض للغاية هم في الغالب نساء. وهذا يعني، كقاعدة عامة، أن أي ثقافة جنسية تشجّع النساء على «الرد بالمجامعة» ستنتهي، في معظم الأحيان، إلى تشجيع النساء على الإضرار بأنفسهن.

*****

1- Rachel Moran, Paid For: My Journey through Prostitution. Dublin: Gill & Macmillan, 2013

يدٌ ممسوكة في وضح النهار

يعاني سوق المواعدة والتعارف بين الرجال والنساء من اختلال عميق لا يمكن علاجه بسهولة. فالطبيعة الجنسية الذكورية والطبيعة الجنسية الأنثوية لا تتطابقان على مستوى السكان. ففي المتوسط، يميل الرجال إلى طلب الجنس العابر بوتيرةٍ أعلى مما تفعل النساء، بينما تميل النساء إلى طلب الأحادية الزوجية الملتزمة بوتيرة أعلى مما يفعل الرجال. وتقتضي ثقافة العلاقات العابرة من النساء كبح غرائزهن الطبيعية كي يتماهين مع الطبيعة الجنسية الذكورية، وبذلك يلبّين الطلب الذكوري على علاقات جنسية بلا التزامات. بعض النساء لا يمانعن ذلك، لكن الغالبية يجدنه تجربة غير مريحة، بل ومُنهِكة نفسيًا أحيانًا. وهكذا تغدو ثقافة العلاقات العابرة حلًا لاختلال الرغبات الجنسية، لكنه حل يخدم بعض الرجال على حساب معظم النساء.

وأقترحُ بدلًا من ذلك مقاربة مختلفة، تنطلق من مبدأ نسوي أساسي، وهو أن الجنس غير المرغوب فيه أسوأ من الحرمان الجنسي. لا يمكن القبول بثقافة جنسية تضغط على ذوي التوجّه الاجتماعي-الجنسي المنخفض — وغالبيتهم من النساء — كي يلبّوا رغبات ذوي التوجّه المرتفع — وغالبيتهم من الرجال — ولا سيما في سياق ينطوي فيه الجنس على مخاطر أكبر بكثير للنساء، من حيث العنف والحمل. إن ثقافةَ العلاقات العابرة صفقةٌ خاسرة للنساء، ومع ذلك صُوِّرت في الخطاب النسوي الليبرالي على أنها شكل من أشكال التحرر. أما المشروع النسوي الجاد، فيقتضي — في عالم المواعدة والتعارف بين الرجال والنساء — أن يكون الرجال هم من يُطالَبون بتعديل رغباتهم الجنسية، لا النساء.

غير أن هذه الحجة بعيدة عن التيار النسوي السائد في القرن الحادي والعشرين. فوسائل الإعلام التقدمية تفيض بمقالات تحمل عناوين مثل «دليلك النسوي التقاطعي من سبع نقاط للعلاقات العابرة» أو «خمس طرق رائعة لممارسة ثقافة العلاقات العابرة النسوية»، وكلها تنطلق من فرضية مفادها أن كل شيء مقبول ما دام قائمًا على الرضا والموافقة.[1] غير أن هذا المنظور يغفل الطبيعة العلائقية للجنس والطابع التنافسي لسوق العلاقات الجنسية، ويُضخّم تصورنا عن مدى حريتنا الفعلية في الاختيار داخل نظام تحكمه قيود صارمة نتحرك جميعًا في إطارها. كما أنه لا يفسح أيَّ مجال للاعتراف بفجوة التوجّه الاجتماعي-الجنسي — وكيف له أن يفعل

1- https://everydayfeminism.com/2016/07/feminist-hook-up-culture /

ذلك أصلًا؟ فالنسوية الليبرالية بالكاد تستطيع الإقرار بوجود فروق جسدية بين الجنسين، فضلًا عن الفروق النفسية.

وفي مقال يتسم بسخرية قاتمة نُشر عام ٢٠٢٠، تحاول مجلة «إيل» (Elle) الاشتباك مع بعض الإشكالات التي أفرزتها ثقافة العلاقات العابرة،[١] لكنها تفعل ذلك ضمن إطار أيديولوجي عاجز عن استيعاب حقيقة الصراع الجنسي. وبدل الاعتراف بالفروق بين الرجال والنساء في هذه المسألة المفصلية، يلجأ الكُتّاب إلى اختراع فئة جنسية جديدة محايدة جندريًا، هي «اللاجنسيون المشروطون» (demisexuality)،[٢] بوصفهم «قلة منتقاة من أفراد المجتمع» الذين لا يتحمسون ببساطة للجنس العابر.

> وفي هذا السياق، تروي الكاتبة في صحيفة واشنطن بوست، السيدة «ميريل ويليامز» كيف قضت سنوات تكافح لفهم علاقتها بميولها الجنسية، إلى أن صادفت عام ٢٠١٦ على موقع تويتر مصطلح «اللاجنسانية المشروطة»، وبدأت البحث في معناه، وهو ما أتاح لها في نهاية المطاف أن تتصالح مع ميولها الجنسية الخاصة. «يسعدني فقط أن يكون هناك اسم لميولي الجنسية، حتى لو كان اسمًا سأضطر غالبًا إلى شرحه لشركائي المستقبليين»، هكذا كتبت.

غير أن ما تصفه «ميريل ويليامز» ليس حالة استثنائية، بل هو في جوهره الطبيعة الجنسية الأنثوية النموذجية. فهي ليست مميّزة؛ إنها امرأة عادية تملك قدرًا كافيًا من الوعي العاطفي لتدرك أن ثقافة العلاقات الجنسية العابرة لا تناسبها، لكنها تفتقر إلى الوعي العام اللازم لإدراك أن المشكلة أوسع وأعمق من تجربتها الفردية.

ويأتي نوعٌ أكثر كآبة من النسوية الشعبية ليتناول فجوة التوجّه الاجتماعي-الجنسي من زاوية مختلفة، إذ ينصح النساءَ بالعمل على تجاوز تفضيلهن الطبيعي والصحي تمامًا للألفة والالتزام في العلاقات الجنسية. فأدلة إرشادية بعناوين مثل: «إليكِ ما تفعلينه إذا بدأتِ تشعرين بأي عواطف»، و«كيف تُعيدين برمجة دماغك لممارسة الجنس دون تعلّق عاطفي»، و«كيف

1- http://www.elle.com/uk/life-and-culture/culture/a32765/what-it-means-to-be-demisexual /

٢- اللاجنسيون المشروطون (demisexuality): مصطلح يُستخدم لوصف أشخاص لا يرفضون الجنس في حدّ ذاته، لكن رغبتهم فيه مشروطة بوجود علاقة عاطفية أو سياق حميمي، ويُنتقَد لأنه يُقدّم نمطًا شائعًا — خصوصًا بين النساء — بوصفه استثناءً يحتاج تسمية خاصة بدل الاعتراف به كميل طبيعي. (المترجم)

تمارسين الجنس العابر دون أن تتعلّقي عاطفيًا»، تقدّم إرشادات من قبيل تجنّب التواصل البصري أثناء الجنس، في محاولة لتفادي «تكوين اتصال حميم».[١]

كما يُنصَح بتعاطي الكوكايين أو مادة مخدرة أخرى كالميثامفيتامين قبل الجنس من أجل تثبيط استجابة الدوبامين، مع تجنّب الكحول، لأن هذا — لدى النساء (ولكن، على نحو عجيب، ليس لدى الرجال) — يبدو أنه يزيد «احتمال التعلّق المبكر». وتُقترَح شتّى الأساليب المبتكرة للانفصال الذهني، مثل التركيز المتعمّد على شخص آخر أثناء ممارسة الجنس. وتُصاغ هذه الأدلة جميعها بعناية لتقديم المشكلة بوصفها محايدة جندريًا، غير أن الأبحاث حول مواقف الرجال والنساء من الجنس العابر، إلى جانب ما نعرفه عن فجوة التوجّه الاجتماعي-الجنسي، تُبيّن بوضوح أن النساء، في الغالب الساحق، هن من يُنصحن بإضعاف أنفسهن عاطفيًا من أجل إشباع الرجال.

في الغرب، تُعدّ ثقافة العلاقات العابرة أمرًا عاديًا بين المراهقين والشباب؛ إذ تشير كلٌّ من الثقافة الشعبية وبيانات الاستطلاعات إلى أن السلوك الجنسي خارج العلاقات الرومانسية الملتزمة التقليدية أصبح أكثر شيوعًا وقبولًا اجتماعيًا.[٢] وعلى الرغم من أن هناك إمكانية لانسحاب الشابات من هذه الثقافة، فإن الأبحاث تشير إلى أن أقلية فقط تفعل ذلك.[٣] وفي غياب شكل من أشكال الالتزام الديني، بات هذا هو المسار «الطبيعي» المعروض على الفتيات عند بدء نشاطهن الجنسي. ويميل جيل الشباب إلى القلق الشديد بشأن كونهم «طبيعيين».

وقد كتبت «ليا فيسلر» بوعي شديد عن تجربتها طالبةً في «كلية ميدلبري»، وهي مؤسسة سادت فيها ثقافة العلاقات العابرة، وكان الامتناع يبدو السبيل الوحيد الذي يمكن للطالبة من خلاله تجنّب المشاركة.[٤] ولأنها لم تكن راغبةً في البقاء كعزباء، أقنعت نفسَها بأن الجنس الخالي من المشاعر هو الخيار النسوي الصحيح، وبذلت جهدها لتجاهل تعاستها.

1- http://www.womenshealthmag.com/relationships/a30224236/casual-sex-feelings/, http://www.vice.com/en/article/59mmzq/how-to-bio-hack-your-brain-to-have-sex-without-getting-emotionally-attached?utm_source=vicefbus, https://elle.in/article/how-to-have-casual-sex-without-getting-emotionally-attached-according-to-science/

2- Justin R. Garcia et al., 'Sexual hookup culture: a review', Review of General Psychology 16 (2012): 161–76.

3- https://scholars.org/brief/rise-hookup-sexual-culture-american-college-campuses

4- https://qz.com/685852/hookup-culture /

> بعد أن بدأتُ الدخول في علاقات جنسية مع هؤلاء الرجال، كان ميزان القوة يميل دائمًا. وبعد عددٍ قليل من العلاقات العابرة، بدأتُ أستغرق في الهوس، ولا سيما إزاء غموض هذا الوضع برمّته. كنتُ أنا وصديقاتي نُحلّل الأمر بلا توقّف: هل يحبّني؟ هل تحبّينه؟ لم يرسل رسالة منذ يوم. اقرئي هذه الرسالة. أنا مرتبكة للغاية. قال إنه لا يريد شيئًا، لكنه يواصل طلب اللقاء... ومع مرور الوقت، وبشكلٍ حتمي، نشأ التعلّق. ومع التعلّق جاء الخزي، والقلق، والشعور بالفراغ.

وكان أسوأ ما واجهته النساء والفتيات في كلية ميدلبري هو ما عُرف بـ «العلاقات الزائفة»:

> علاقاتٌ تُعدّ نتاجًا مشوَّهًا لجنسٍ بلا معنى وشراكاتٍ عاطفية. طالبان يرتبطان بعلاقات عابرة على نحوٍ منتظم ومستمر — وغالبًا مع بعضهما فقط — لأسابيع أو شهور، بل حتى لسنوات. ومع ذلك، ووفقًا لعرفٍ اجتماعي غير مُعلَن، لا يُسمَح لأيٍّ من الطرفين بتورّطٍ عاطفي، أو التزام، أو إظهارٍ للهشاشة. وكان توصيف هذه العلاقة على أنها حصرية على الطرفين يُعَدّ «تعلّقًا»، أو حتى «جنونًا».

اعترفت «فيسلر» وصديقاتها لبعضهن بهدوء بأن ما كنّ يردنه حقًا هو الحميمية الحقيقية: الاعتراف العلني بالعلاقة، ذراع حول الخصر، و«يد ممسوكة في وضح النهار». وقد خصّصت «فيسلر» أطروحتها في سنتها الجامعية الأخيرة لدراسة ثقافة العلاقات العابرة في «كلية ميدلبري»، وأظهرت نتائج بحثها أن جميع النساء اللواتي شاركن في المقابلات، إلى جانب ثلاثة أرباع المشاركات في الاستبيانات، عبّرن عن تفضيل واضح للعلاقات الملتزمة. ولم تقل سوى ٨٪ من النساء اللواتي كنّ في علاقات زائفة في ذلك الوقت إنهن يشعرن «بالسعادة» تجاه أوضاعهن. وتؤكد دراسات أخرى النتيجةَ نفسها باستمرار: فبعد العلاقات العابرة، تكون النساء أكثر عرضة من الرجال للشعور بالندم، وتدنّي تقدير الذات، والضيق النفسي.[1] وغالبًا، لا يصلن حتى إلى النشوة الجنسية.

وتظل متعة المرأة نادرة في سياق الجنس العابر. فالرجال في العلاقات العابرة أقل قدرة على إيصال النساء إلى النشوة مقارنة بالرجال في العلاقات الملتزمة؛ ففي اللقاءات الأولى العابرة،

1- R. L. Fielder and M. P. Carey, ‘Prevalence and characteristics of sexual hookups among first-semester female college students’ , Journal of Sex & Marital Therapy 36 (2010): 346–59

لا تصل إلى النشوة سوى ١٠٪ من النساء، مقابل ٦٨٪ في العلاقات طويلة الأمد.[١] ويُعزى ذلك جزئيًا إلى أن الشركاء في العلاقات الملتزمة يكونون أدرى بأجساد شريكاتهم وتفضيلاتهن، إلا أن عاملًا آخر يتمثل في «العرف الجنسي» السائد في اللقاءات العرضية، والذي يميل إلى إعطاء الأولوية لرغبة الرجل.

ومن المعروف أنه منذ مطلع القرن، شهدت ممارسات مثل الجنس الشرجي والجنس الفموي للذكر ارتفاعًا بين الشباب، في مقابل تراجع الجنس الفموي للأنثى، وهو ما يُرجَّح أنه نتيجة لتأثير المواد الإباحية عبر الإنترنت.[٢] وهذه الممارسات أقل احتمالًا بكثير لأن تؤدي إلى نشوة أنثوية؛ فالجنس الشرجي، على وجه الخصوص، غالبًا ما ينطوي على ألم دون متعة لمن لا يمتلك بروستاتا. وقد وجدت دراسة علمية أن ٣٠٪ من النساء يعانين ألمًا أثناء الجنس المهبلي، وأن ٧٢٪ يعانين ألمًا أثناء الجنس الشرجي، وأن «نِسَبًا كبيرة» لا يصرّحن بهذا الانزعاج لشركائهن.[٣] ولا توحي هذه الأرقام بانتشار شعور بالتحرر الجنسي، بل تشير إلى أن عددًا كبيرًا من النساء يمارسن جنسًا غير ممتع بدافع الشعور بالالتزام.

وتُعد الحُرُم الجامعية مجالًا مناسبًا بشكل خاص لدراسة ثقافة العلاقات العابرة، إذ يعيش آلاف الشباب ويعملون معًا في بيئة واحدة مغلقة نسبيًا. ويكشف النظر في تأثير نسبة الذكور إلى الإناث في هذه البيئات أن ارتفاع نسبة النساء في التعليم العالي منذ الموجة النسوية الثانية قد أفضى، على نحو مفارق، إلى أثر معادٍ للنساء في الثقافة الجنسية. فمع تحوّل الطلاب الذكور إلى مورد نادر، مال ميزان القوة لصالحهم، وكما كتب أحد الباحثين: «حتى عندما تدير النساء النوادي، ويهيمنّ على الصفوف الدراسية، ويحددن الطابع العام للجامعة، يبقى قانون العرض والطلب هو الحاكم للمشهد الاجتماعي، ولهذا تكون النساء في آنٍ واحد متنافسات في السعي إلى الرجال، وخاضعات في خفض معاييرهن».[٤]

1- E. A. Armstrong, P. England and A. C. K. Fogarty, ‘Accounting for women’s orgasm and sexual enjoyment in college hookups and relationships’ , American Sociological Review 77 (2012): 435–62 .
2- Caroline Heldman and Lisa Wade, ‘Hook-up culture: setting a new research agenda’ , Sexuality Research and Social Policy 7 (2010): 323–33.
3- D. Herbenick, V. Schick, S. A. Sanders et al., ‘Pain experienced during vaginal and anal intercourse with other-sex partners: findings from a nationally representative probability study in the United States’ , Journal of Sexual Medicine 12 (2015): 1040–51
4- R. Whitmire, ‘A tough time to be a girl: gender imbalance on campuses’ , Chronicle of Higher Education 54 (2008): A23

وتنتشر ثقافة العلاقات العابرة على نحو أكبر في البيئات التي يهيمن فيها الرجال، وفي سوق جنسية من هذا النوع، تجد المرأة التي ترفض المشاركة نفسَها في موقع غير مواتٍ. وكما يشير فريق آخر من الباحثين، فإن بعض النساء قد يرضخن لتفضيلات الرجال للقاءات الجنسية العابرة، لأن الامتناع عنها يعني ببساطة أن امرأة أخرى ستفعل بدلًا منهن.[١]

ومع ذلك، فهذه ليست — في الغالب — الطريقة التي تفهم بها معظم النساء المشاركات في ثقافة العلاقات العابرة سلوكهن، على الأقل في حينه. فحتى إن أمكن، من منظور تحليلي بارد، توصيف الأمر بوصفه سوقًا جنسية ذات قواعد وبنية محددة، فإن هذه ليست عادةً الطريقة التي يشعر بها الناس حيال حياتهم الجنسية، التي لا تقتصر على كونها حميمة وفوضوية، بل ترتبط أيضًا ارتباطًا وثيقًا بقضايا معقدة تتعلق بتقدير الذات.

تحظى السردية النسوية الليبرالية للتمكين الجنسي بانتشار واسع لسبب واضح؛ إذ يبدو من الأسهل كثيرًا أن ترى المرأة نفسَها بوصفها «كاري برادشو» الجريئة،[٢] التي تتخذ قراراتها بنفسها وتتحدى الوضع الأبوي السائد. وقد يكون تبنّي مثل هذه الصورة الذاتية وسيلة حماية نفسية، لأنها تجعل تحمّل ما يكون، في الواقع، تجربة شديدة البؤس أمرًا أيسر. فعندما تُدفع امرأة شابة إلى ثقافة جنسية لا تُعنى أساسًا بحماية سلامتها أو رفاهها، ولا تُقدَّر فيها إلا ضمن إطار جسدي ضيق للغاية، وحين لا تبدو الخيارات المتاحة سوى العلاقات العابرة أو البقاء عزباء، تصبح أسطورة مريحة عن «السيطرة» خيارًا جذابًا.

غير أن هذه الأسطورة تقوم على سذاجة حيال الطبيعة الفعلية للطبيعة الجنسية للذكور. فالنساء الشابات اليوم لا يدركن في الغالب أن الرجال، عمومًا، أكثر استعدادًا للجنس الخالي من المشاعر، وأكثر قدرة على التعامل مع شركائهم الجنسيين بوصفهم قابلين للاستبدال. ومن دون وعي بهذه الحقيقة، يسهل على النساء أن يخلطن بين كونهن مرغوبات وبين كونهن موضع تقدير حقيقي. وليس من المريح أن يرى الإنسان نفسه قابلًا للاستغناء عنه، أو أن يعترف بأن الآخرين ينظرون إليه بهذه الطريقة؛ ولهذا يكون تجاهل ما يجري فعليًا، ولو مؤقتًا، أسهل. وقد تحدثتُ إلى كثير من النساء اللواتي شاركن في ثقافة العلاقات العابرة في شبابهن، ولم يدركن إلا بعد

1- Heldman and Wade, ‘Hook-up culture’.

٢- «كاري برادشو» كما ذكرنا: هي الشخصية الرئيسية في مسلسل Sex and the City: كاتبة عمود عن الجنس والعلاقات في نيويورك، تُقدَّم بوصفها امرأة مستقلة، صريحة جنسيًا، و«متحرّرة» تتخذ قراراتها بلا اعتذار. (المترجم)

سنوات حجم التعاسة التي سببتها لهن. ولم ألتقِ بعد بمن خاض الرحلة العاطفية نفسها، ولكن باتجاه معاكس.

وإذا كنتِ امرأة سبق لكِ خوض علاقات جنسية عابرة مع رجال، فقد يكون من المفيد أن تحاولي الإجابة عن الأسئلة التالية بصدق تام:

١. هل كنتِ تنظرين إلى عذريتكِ على أنها عبء مُحرج يجب التخلص منه؟

٢. هل ينتابكِ أحيانًا شعور بالاشمئزاز عند التفكير في تجارب جنسية كنتِ موافقة عليها مررتِ بها في الماضي؟

٣. هل سبق أن تعلّقتِ عاطفيًا بشريك جنسي في علاقة عابرة وأخفيتِ هذا التعلّق عنه؟

٤. هل سبق أن شاركتِ في ممارسات جنسية وجدتها مؤلمة أو غير مريحة، ثم كتمتِ هذا الانزعاج عن شريككِ أثناء العلاقة أو بعدها؟

إن كانت إجابتكِ «لا» عن جميع هذه الأسئلة، فذلك مدعاة للتهنئة؛ إذ يبدو أن ارتفاع توجّهكِ الاجتماعي-الجنسي، إلى جانب حسن الحظ، مكّنكِ من اجتياز سوق جنسية مليئة بالمخاطر. أما إذا كانت إجابتكِ «نعم» عن أيٍّ منها — وهو ما أرجّحه — فلكِ كل الحق في الشعور بالغضب من ثقافة جنسية وضعتكِ منذ البداية في مسار يقود إلى الخسارة.

*****

الأوغاد والآباء

في حين تُقيِّم غالبيةُ النساء شركاءهن قصيري الأمد وطويلي الأمد وفق المعايير نفسها، فإن غالبية الرجال لا يفعلون ذلك.[1] فالمرأة تميل عادةً إلى البحث عن الصفات ذاتها في العلاقة العابرة كما في الزوج؛ وكما يوضح عالم الأحياء التطورية «ديفيد باس»، «في الحالتين معًا، تريد النساء شخصًا لطيفًا، رومانسيًا، متفهمًا، مثيرًا، مستقرًا، سليم الصحة، مرحًا، وكريمًا بموارده».

1- David Buss and David Schmitt, 'Sexual strategies theory: an evolutionary perspective on human mating' , Psychological Review 100 (1993): 204–32

وفي كلا السياقين، ترغب النساء في رجال طوال القامة، رياضيين، وجذّابين.[1] وعلى النقيض، يكون الرجال انتقائيين للغاية في معايير اختيار الزوجة المحتملة، لكنهم أقل تشددًا بكثير عندما يتعلق الأمر بالجنس العابر.

وتعرض «شيري أرغوف» (Sherry Argov)، مؤلفة كتاب «لماذا الرجال يحبون العاهرات؟» (Why Men Love Bitches) الأكثر مبيعًا، الفكرة بوضوح مباشر:

> ما لا يريد الرجال أن تعرفه النساء هو أنهم، في الغالب وبسرعة، يصنّفون النساء في واحدة من فئتين: «للمتعة فقط» أو «جديرة بالاهتمام». وبمجرد أن تُدرَجي في فئة «للمتعة فقط»، نادرًا ما تخرجين منها.[2]

ويعود وجود هاتين الفئتين إلى سبب علمي بسيط؛ إذ يصعب صرف الرجال عن غريزتهم المرتبطة بما يسميه علماء الأحياء التطورية «يقين الأبوة». فالرجال في وضع «اللعوب» لا يضعون في اعتبارهم رفاهية أطفال محتملين لا يتيقنون من نسبتهم إليهم؛ لأنهم يفضّلون الكم على الكيف، في حين يُظهر الرجال في وضع «الأب» اهتمامًا كبيرًا، وغالبًا ما يكرّسون حياتهم لإعالة أسرهم.

لكن وضع «الأب» لا يخلو من كلفة، تتمثل في الغيرة. ففي سياق تاريخنا التطوري، كان الرجال الذين كرّسوا أنفسَهم — من دون قصد — لتربية أطفالٍ لا يحملون جيناتهم في وضع أضعف، بينما كان أولئك الذين مارسوا ما يسميه علماء الأحياء «حراسة الشريك»، أي السلوك الغيور، أكثر قدرة على التأكد من أن الأطفال هم أطفالهم. ومن هذه الغريزة المرتبطة بحراسة الشريك نشأ المعايير الجنسية المختلفة.

ومثل غيره من عناصر تراثنا التطوري، يظل هذا المجال قابلًا لقدر من المرونة. فكثير من الرجال والنساء يبدون إخلاصًا كاملًا لأطفال بالتبنّي أو أبناء شركاء، بغضّ النظر عن الصلة الجينية. كما أن نسبة عجيبة من الرجال تعبّر سرًّا عن اهتمام جنسي بما يُعرف بـ «الدياثة» (cuckolding)، وهو ما قد يبدو متناقضًا ضمن إطار تطوري لا يسمح بمخالفة قواعده. ومع

1- David Buss, The Evolution of Desire: Strategies of Human Mating. New York: Basic Books, [1994] 2016, p. 137.
2- Sherry Argov, Why Men Love Bitches. New York: Adams Media, p. 55.

ذلك، فإن المعيار الجنسي المختلف بين الرجال والنساء، بوجه عام، واسع الانتشار ومترسّخ إلى حدٍّ يجعل بعض علماء الأنثروبولوجيا يعدّونه سِمة إنسانية عامة.[١]

وكان هذا المعيار أشدّ حضورًا في الغرب في الزمن الماضي. فقد كتب «لورنس ستون» (Lawrence Stone) في تأريخه للطلاق في إنجلترا أن المعايير الجنسية المختلفة بين الرجال والنساء ظلّت — حتى زمن قريب نسبيًا — مُقنَّنًا في القانون؛ إذ عُدّ زنا المرأة «خرقًا غير قابل للعفو لقانون الملكية وفكرة التوارث»، بينما اعتُبر زنا الرجل «هفوة مؤسفة لكنها مفهومة».[٢] ويصف عالمُ الاجتماع البريطاني «أنطوني جيدنز» (Anthony Giddens) الثقافةَ الجنسيةَ السائدةَ في منتصف القرن العشرين قائلًا:

> كانت عذرية الفتيات قبل الزواج محل تقدير لدى الجنسين معًا. ونادرًا ما كانت الفتيات يُفصحن عن سماحهن لحبيب لهن بممارسة الجماع الكامل — وغالبًا ما كان يُتوقَّع حدوث ذلك فقط بعد الخطوبة الرسمية. وكانت الفتيات الأكثر نشاطًا جنسيًا يتعرضن للانتقاص من الأخريات، وكذلك من الذكور الذين سعوا إلى «استغلالهن». وكما كانت سمعة الفتيات الاجتماعية تقوم على قدرتهن على مقاومة الشهوات الجنسية أو كبحها، كانت سمعة الفتيان تقوم على كثرة العلاقات الجنسية التي يحققونها.[٣]

حتى وإن لم يعد المعيار الجنسي المزدوج مُقنَّنًا قانونيًا أو مُعلَنًا صراحة في مرحلة ما بعد الثورة الجنسية، فإنه لا يزال مؤثرًا وموجودًا. ففي مرحلة المراهقة، يختلف الارتباط بين عدد الشركاء الجنسيين على مدى الحياة والمكانة الاجتماعية بين الأقران اختلافًا ملحوظًا باختلاف الجنس؛ إذ يرتبط ارتفاع عدد الشركاء الجنسيين بزيادة مكانة الفتيان الاجتماعية، بينما يرتبط بتراجع مكانة الفتيات.[٤]

1- Donald E. Brown, Human Universals. New York: McGraw-Hill, 1991.

2- Lawrence Stone, The Road to Divorce: England 1530–1987. Oxford: Oxford University Press, 1995, p. 7

3- Anthony Giddens, The Transformation of Intimacy: Sexuality, Love and Eroticism in Modern Societies. Cambridge: Polity, 1992, p. 9.

4- Derek A. Kreager and Jeremy Staff, 'The sexual double standard and adolescent peer acceptance' , Social Psychology Quarterly 72 (2009): 143–64 .

وعند البالغين، يُنظر عادةً إلى التعدد الجنسي لدى الرجال بوصفه أمرًا عاديًا، في حين تتضرر سمعة المرأة بين أقرانها مع ازدياد عدد شركائها الجنسيين.[١] وقد يتجنب الناسُ التصريحَ بذلك علنًا، غير أن النساء المصنَّفات على أنهن مفرطات في العلاقات الجنسية يتكبدن، في الخفاء، كلفة اجتماعية حقيقية.

وعندما يتعلّق الأمر باختيار شريك طويل الأمد، تُظهر استطلاعات الرأي المجهولة أن معظم الرجال يفضّلون زوجة ذات تاريخ جنسي محدود واهتمام ضئيل بالجنس العابر، ماضيًا كان أم حاضرًا. وتفضّل النساء بدورهن زوجًا غير مُفرط في العلاقات الجنسية، إلا أن هذا التفضيل أقل حدّة، إذ إن معظمهن مستعدات لقبول رجل كان له تاريخ مع الجنس العابر ثم استقر لاحقًا.[٢]

غير أن الرجال، في المقابل، لا يبدون عادةً انزعاجًا من تاريخ جنسي أوسع عندما يبحثون عن علاقة عابرة، أو عمّا تصفه «شيري أرجوف» (Sherry Argov) بأنه شريك «للمتعة فقط». بل قد يزيد التعدد الجنسي من الجاذبية في هذا السياق. فمع عتبة مرتفعة للاشمئزاز الجنسي عند الرجال، واهتمام فطري بالتنوع، وانعدام خطر الحمل، وغياب الخوف من وصم العار، يقدّم الجنس العابر للرجال طيفًا واسعًا من الإغراءات التي يصعب مقاومتها. كما تمنح السردية النسوية الليبرالية عن «الرد بالمجامعة» نوعًا من الطمأنينة الأخلاقية لأي رجل قد يشعر بوخز الضمير. ومع تحوّل ثقافة العلاقات العابرة إلى معيار اجتماعي، يُدفَع الرجال والنساء معًا إلى أنماط سلوكية متكاملة على نحو قاتم: يُشجَّع الرجال على تبنّي وضع «اللعوب»، ساعين وراء علاقات مؤقتة تمنح لذّات الجنس السهل من دون أعباء الالتزام، بينما تتنافس النساء فيما بينهن على نيل اهتمام جنسي ذكوري قصير الأمد، وقد يحققن ذلك، ولكن بثمن مرشّح — على حد تعبير «ليا فيسلر» — لإنتاج «الخزي، والقلق، والفراغ».

*****

1- Michael J. Marks, Tara M. Young and Yuliana Zaikman, ‘The sexual double standard in the real world’ , Social Psychology 50 (2019): 67–79.
2- Daniel N. Jones, ‘The “chasing Amy” bias in past sexual experiences: men can change, women cannot’ , Sexuality & Culture 20 (2016): 24–37

سوء الفهم المتبادل

وكما هو حال نظيراتهم من النساء، قد لا يعي الرجال بوضوح أنهم يشاركون في هذا النمط. ومن زاوية أخرى، من يمكن أن يلومهم؟ فالفتيان المراهقون ينشأون في ظل ثقافة شعبية تصوّر ممارسة الجنس «مثل الرجل» على أنها أقصى أشكال التمكين الجنسي للمرأة، وفي المواد الإباحية التي يتعرّضون لها عادة منذ الطفولة، تُعرض النساء وهنّ يستجدين الرجال من أجل ممارسات جنسية مؤلمة أو مهينة. وعندما يبدأ الشبان ممارسة الجنس في الواقع، فمن المرجّح أن يلتقوا بنساء — تلقّين بدورهن تشكيل وعيهن من الإباحية والثقافة الشعبية — يخفين ضيقهن، ويفتعلن النشوة، ويبذلن جهدًا كبيرًا لتفادي «التعلّق العاطفي»، ويسعين بكل السبل إلى أن يكنّ ما وصفتْه «جيليان فلين» (Gillian Flynn) بـ «الفتاة الرائعة»، المرأة التي تكون «قبل كل شيء مثيرة. مثيرة ومتفهّمة. الفتيات الرائعات لا يغضبن أبدًا؛ إنهن يبتسمن فقط بابتسامة حزينة محبة، ويتركن رجالهن يفعلون ما يشاؤون. تفضّل، تبرّز عليّ، لا مانع لديّ، أنا الفتاة الرائعة».[١]

ولذلك، لا ينبغي أن يدهشنا كثيرًا أن يفترض عدد كبير من الرجال، بعد كل هذا، أن النساء في الحقيقة لا يمانعن أن يُختزلن في فئة «للمتعة فقط». ويمكن تلمّس الخلل الناتج عن هذا الافتراض في منشورات مثل هذا المنشور على منتدى r/relationships:

> كنتُ أتسكّع مع صديقتي يوم الخميس بعد العمل. كنا نمارس الجنس منذ ستة أشهر. كنتُ أُسخّن لنا بعض الطعام، وبدأت تسأل عمّا أبحث عنه في شريكة طويلة الأمد.
>
> قلتُ لها: «إنني أريد امرأةً ناجحةً، إنسانة أعتقد أنها ستكون أمًّا جيدة». فبدأت تتحدث عن امتلاكها لهذه الصفات، ولاحظتُ إلى أين يتجه الحديث، فغيّرتُ الموضوع.
>
> ثم أعادت فتحَ الموضوع، وبدأت تسألني عمّا ينبغي أن تركّز عليه لتكون من نوع الفتيات اللواتي يريد الرجالُ الزواجَ منهن يومًا ما. قلتُ لها إنها جيدة كما

1- Gillian Flynn, Gone Girl. New York: Crown, 2012

هي، وكل ما تحتاجه هو العثور على الرجل المناسب. فسألتني لماذا لا أريد مواعدتها مستقبلًا طالما أنني أبحث عن شيءٍ جاد؟

قلتُ لها إنها رائعة، لكنها في نظري ليست مناسبة لتكون شريكة. بعد ذلك بدأت تبكي بشدة. لا أعرف ما الذي كان يجري؛ لم يكن بيننا شيء، ولم نتحدث قط عن مشاعرٍ بيننا أو ما شابه.[١]

أو اقرأ إن شئت، عزيزي القارئ الكريم، هذا الكلامَ المنشورَ في منتدى فرعي آخر وهو يصف هذا الوضع:

أرى صديقتي، «كارا»، منذ فترة، قرابة ثمانية أشهر. كنا نعمل معًا سابقًا، وقبل أن تسألوا: لا، هي لا تكنّ لي مشاعر، ولا تحبني عاطفيًا.

كانت عزباء منذ مدة، وتريد رجلًا مشابهًا لي إن صحّ التعبير، له مسار مهني مقبول، وبحالة جسدية لائقة.

والآن، وبصراحة، أعتقد أنها ترفع سقف توقعاتها أكثر من اللازم فيما يخص العلاقات... قلتُ لها إنها ينبغي أن تركّز أقل على الصفات الجسدية مثل الشكل، وأن تكون مستعدة لتجاوزها عند مواعدة الرجال. فسألتني إن كنتُ أطلب منها خفض معاييرها، وقلتُ: نوعًا ما، نعم. فغضبت كثيرًا.[٢]

يبدو أن هؤلاء الرجال مذهولون حقًا من كون النساء اللواتي مارسوا معهن الجنس لأشهر عديدة غير سعيدات في هذه العلاقات الزائفة. وفي المقابل، يبدو أن النساء قد انجرفن إلى هذا الوضع دون إدراك مدى ضآلة التقدير الحقيقي الذي يكنّه شركاؤهن لهن. إنها، في حقيقتها، مأساة من سوء الفهم المتبادل.

ومع ذلك، لا أستطيع منع نفسي من الشعور بشكٍ خفي في أن كثيرًا من الرجال — وربما جميعهم — يدركون أن العيش في وضع «اللعوب» ليس بريئًا تمامًا. وقد يرغب القرّاء الذكور

1- http://www.reddit.com/r/relationships/comments/72115r/i25m_told_my_friends_with_benefits24f_i_dont_see_/

2- http://www.reddit.com/r/AmItheAsshole/comments/db03qr/aita_for_telling_my_fwb_that_i_think_she_should_/

الذين سبق لهم الانخراط في علاقات جنسية عابرة في طرح الأسئلة التالية على أنفسهم، بوصفها نظيرًا للأسئلة التي وجّهتُها إلى القارئات في موضع سابق من الفصل:

١. هل سبق أن مارستَ الجنس مع امرأة كنتَ ستشعر بالحرج من تقديمها لأصدقائك؟

٢. هل سبق أن امتنعتَ عن التواصل مع امرأة بعد ممارسة الجنس معها؟

٣. هل راودك الشك يومًا في أن شريكتك العابرة كانت تتعلّق بك عاطفيًا، ولم تُقدِم لا على الالتزام ولا على إنهاء العلاقة؟

٤. هل سبق أن دفعتَ امرأةً إلى القيام بممارسة جنسية، رغم أنها أبدت تردّدًا؟

المفترض أن تكون الإجابة عن جميع هذه الأسئلة «لا»، إلا أن ثقافة الجنس العابر تشجّع الرجال على مثل هذه السلوكيات، وغالبًا من دون أي عقاب اجتماعي. بل إن الرجال الذين يمارسون الجنس ثم يتخلّون عن نساء «للمتعة فقط» قد يلاحظون، في كثير من الأحيان، تحسّنًا في مكانتهم الاجتماعية بين أقرانهم الذكور، على الأقل على المدى القريب.

وفي ثقافة الجنس العابر، يميل مركز الثقل إلى الانزياح نحو الطرف الأعلى من طيف التوجّه الاجتماعي-الجنسي، وهو ما يعود بفائدة غير متناسبة على الرجال. غير أن هذا لا يعني غياب كلفة لاحقة على الرجال الذين ينخرطون في هذه الثقافة. فصحيح أن فترة الجاذبية الشبابية لدى الرجل أوسع منها لدى المرأة (التي تمتد فعليًا لنحو عشرين عامًا فقط، من أواخر المراهقة إلى أواخر الثلاثينيات)، إلا أن مرحلة «الشاب اللعوب» تبقى محدودة الزمن — ربما قرابة ثلث عمر الرجل الغربي المعاصر. وقد يبدو رجل في العشرينيات، يغيّر شريكته كل أسبوع، جذّابًا إلى حدٍّ ما، لكن لا يوجد رجل في الستينيات أو السبعينيات يستطيع الاستمرار في هذا النمط — وحتى لو كان لا يزال قادرًا على جذب شريكات عابرات (وهو افتراض كبير)، فإن أقرانه سينظرون إليه بوصفه رجلًا عجوزًا قذرًا بلا أي بريق. وهكذا، فإن الجنس العابر يضرّ بالرجال أيضًا، وإن كان ذلك على نحو أبطأ وأقل وضوحًا.

لكن الضرر الأكبر يقع على النساء. وأنا أُقرّ بأن تجنّب الجنس العابر قد يكون صعبًا في ظل ضغوط سوق المواعدة في القرن الحادي والعشرين، غير أنه ما لم تكن المرأة ضمن الأقلية الصغيرة ذات التوجّه الاجتماعي-الجنسي المرتفع (وفي هذه الحالة تكون قد سجّلت «صفرًا» في قائمتي السابقة من الأسئلة)، فإن مخاطر الجنس العابر ستتجاوز فوائده.

فالتواجد منفردة مع رجل غريب ومثار جنسيًا ينطوي دائمًا على قدر من الخطر لأي امرأة، نظرًا لفروق الحجم والقوة. ومع أن الأزواج والأصدقاء على المدى الطويل قد يرتكبون أيضًا عنفًا منزليًا، فإن ذلك لا يبرّر إلغاء عملية الوثوق والتأكد من الرجال بالكامل. فمواعدة رجال ينتمون أصلًا إلى الدائرة الاجتماعية للفرد أكثر أمانًا، لأن السمعة السيئة في معاملة الصديقات غالبًا ما تكون معروفة عبر الأصدقاء المشتركين. أما مواعدة الغرباء عبر الإنترنت، فلا تترك مصدرًا موثوقًا للمعلومات عن التاريخ الجنسي سوى رواية الرجل نفسه، وهي رواية لا يمكن الاعتماد عليها. والأسوأ من ذلك، أنه لا شيء يمنعه من إساءة المعاملة ثم الاختفاء دون أي تبعات اجتماعية. فالأصدقاء والمعارف قادرون على محاسبة السلوك السيئ، أما تطبيقات المواعدة فلا تملك هذه القدرة.

إن رغبة الرجل في ممارسة الجنس مع امرأة لا تعني بالضرورة رغبته في إقامة علاقة عاطفية معها. لذلك، فإن تأجيل ممارسة الجنس خلال الأشهر الأولى يُعد استراتيجية فعّالة للتحقّق والتأكد والوثوق من الرجال لعدة أسباب: فهو — أي تأجيل ممارسة الجنس — يستبعد من يبحثون فقط عن علاقة عابرة، ويمنح المرأة وقتًا للتعرّف إلى الرجل قبل وضع نفسها في موضع هشاشة، كما أن تجنّب التعلّق العاطفي المصاحب للجنس يسهل ملاحظة الإشارات التحذيرية أو الـ (Red flags). ومع غياب التأثير المربك للهرمونات، يصبح تقييم سلوك شريك جديد أكثر وضوحًا.

وأخيرًا، من العوامل التي تعمل ضد النساء في المواعدة وجود فجوة نوع اجتماعي في سمة الشخصية التي يسمّيها علماء النفس «التوافقية»، والتي تُعرف عاميًّا بـ «اللطف». وقد أظهرت الأبحاث منذ زمن طويل أن النساء، في المتوسط، أكثر توافقية من الرجال بكثير. وقد يكون هذا الفرق ناتجًا عن عوامل فطرية، أو بيئية، أو مزيج منهما — ولا يهمّ ذلك كثيرًا هنا. المهم هو أن ثمة فجوة قائمة — وكبيرة — بين الرجال والنساء في هذه السمة شديدة الأهمية.[1]

يميل الأشخاص ذوو السمة التوافقية العالية إلى تأخير مصالحهم الخاصة، وإلى حسن الظن بالناس حتى عندما تظهر منهم تصرفات وسلوكيات سيئة. وأنا من هؤلاء الأشخاص؛ ما يعني، على سبيل المثال، أنني أتجنب الصراعات الشخصية، وأجد نفسي ضعيفة جدًا في

1- Yanna J. Weisberg, Colin G. DeYoung and Jacob B. Hirsh, 'Gender differences in personality across the ten aspects of the Big Five' , Frontiers in Psychology 2 (2011): 178; doi: 10.3389/fpsyg.2011.00178.

التفاوض على الراتب. ومن يرغب في معرفة مستوى توافقه يمكنه البحث عن «اختبار السمات الخمس الكبرى للشخصية»، وهو اختبار مفيد لأنه يساعد على فهم الذات وتوجيه السلوك. وقد أدركتُ أن الإفراط في التوافق هو طريقي الأسهل، ولذلك أبذل جهدًا واعيًا لأكون أكثر حزمًا.

ويكون الأشخاص المتوافقون أكثر عرضة للاستغلال من قبل غير المتوافقين، ونظرًا لأن النساء، في المتوسط، أكثر توافقًا من الرجال بدرجة واضحة، فإن لهذه الحقيقة أهمية مباشرة في السياسة الجنسية. ولهذا، فإن نصيحتي للنساء المتوافقات عند تقييم الشركاء المحتملين هي ألّا يطرحن على أنفسهن سؤال: «هل سيكون هذا الرجل شريكًا جيدًا لي؟»، لأن هذا السؤال قد يسمح للّطف بأن يتغلّب على الحكم السليم. وبدلًا من ذلك، ينبغي طرح سؤال: «هل سيكون هذا الرجل أبًا جيدًا لأطفالي؟» — لا لأن المرأة تنوي بالضرورة إنجاب أطفال مع هذا الرجل، أو حتى مع أي شخص آخر، بل لأن الأشخاص المتوافقين يميلون إلى تفضيل مصالح من يحبون على مصالحهم الخاصة. وإذا لم يكن الرجل صالحًا لأن يكون أبًا جيدًا، فلا ينبغي ممارسة الجنس معه، لأن ذلك يعني أنه غير جدير بالثقة.

لقد رفعت النسوية الليبرالية من شأن ممارسة الجنس «مثل الرجل» باعتبارها طريقًا إلى تحرّر المرأة. غير أننا لن نستطيع أبدًا ممارسة الجنس مثل الرجال، لأننا ببساطة لن نكون رجالًا. فهناك لا تماثل بنيوي متأصّل في العلاقات بين الرجال والنساء لا يمكن تجاوزه، مهما وفّرت وسائل منع الحمل الحديثة وغيرها من التقنيات وهمًا هشًّا بالمساواة. ويمكننا إما أن نعترف بهذه الحقيقة ونتصرّف على أساسها، أو أن نواصل إرسال النساء الشابات وقودًا للمعركة ضد المعايير الجنسية المختلفة بين الرجال والنساء، ثم نرفع صوت التنديد بالتمييز الجنسي عندما يعدن مجروحات. وأنا أيضًا أتمنى العيش في عالم تستطيع فيه النساء فعل ما يشأن دون خوف مما قد يفعله الرجال بهن، لكننا لا نعيش في ذلك العالم. إن واقعنا الراهن يفرض على الرجال والنساء معًا الاعتراف بوجود هذا اللاتماثل الجنسي، حتى لو استلزم ذلك تقييد بعض الحريات. ومهما كان هذا الواقع غير مرغوب فيه، فنحن ملزمون بوصفه كما هو، بصدق.

الفصل الخامس:
الموافقة الجنسية لا تكفي

في عام ٢٠١٥، ألقى «أندرو نورفولك» (Andrew Norfolk)، كبير المراسلين الاستقصائيين في صحيفة «التايمز» البريطانية، محاضرة حول السنوات الأربع التي قضاها هو وزملائه في التحقيق في قضايا الاستغلال الجنسي للأطفال التي ارتكبتها عصابات في المدن البريطانية، بما في ذلك مدينة روثِرم[١] (Rotherham)، وروتشديل (Rochdale)، وتلفورد (Telford)، وأكسفورد (Oxford). وقد وصف تجارب إحدى الضحايا التي لم تبرح قصتها مخيلته:

> كانت إحدى الضحايا فتاةٌ من مقاطعة إسيكس (Essex)، لكنها وُضعت في دار رعاية للأطفال في مدينة روثرم (Rotherham)، وكانت هي النزيلة الوحيدة في تلك الدار... وخلال شهرين فقط في ذلك المسكن، فُقدت الفتاةُ خمس عشرة مرة، لفترات تراوحت ما بين يوم واحد إلى أسبوعين. وفي إحدى ليالي اختفائها، نُقلت إلى منزل وهي في حالة سُكر شديد (حتى فقدت الوعي) في غرفة نوم، ثم بدأت السيارات تتوافد من جميع أنحاء مدينة مانشستر. كان الرجال يصطفون في طوابير على الدرج وفي الممر خارج الغرفة، وقد استمعت هيئةُ المحلفين إلى أن خمسين رجلًا قد اعتدوا جنسيًا على تلك الفتاة في ليلةٍ واحدة. لقد كانت مجرد طفلة.[٢]

في التوقيت نفسه تمامًا، وعلى الجانب الآخر من المحيط الأطلسي، كانت المسيرة المهنية لـ «كيسي جوردان» (Kacey Jordan) في صناعة الأفلام الإباحية قد بدأت بالفعل. في سن الثامنة عشرة، شاركت «كيسي جوردان» في بطولة أفلام إباحية تحمل عناوين مثل: «كل المراهقات ٣» (All Teens 3)، و«بالكاد ١٨ عام» (Barely 18)، و«بالكاد قانونية» (Barely

---

١ – هكذا تُنطق بالإنجليزية، فكثيرًا من الأسماء التي فيها Ham لا ينطقها الإنجليز، فهم لا يقولون عن مدينة (Birmingham): برمنجهام، بل ينطقونها: برمنجم. وهكذا فريق الكرة الشهير (Tottenham Hotspur) يقولون: تُوتنَمْ. والأهم من هذه الأسماء جميعًا هو اسم قصر (Buckingham Palace)، ينطقه الإنجليز: بكنجم. وليس: بكنجهام. (المترجم)

2- 'An uncomfortable truth', www.youtube.com/watch?v=qrUiHB5qJJ0

Legal)، و«طفلات قانونيات تمامًا» (Just Legal Babes 2)، و«لا تجعل والدي يعلم» (Don’t Let Daddy Know). ورغم أنها كانت بالغةً من الناحية القانونية، إلا أنها كانت تبدو صغيرةَ السن بشكل لافتٍ للنظر — بجسدٍ ضئيل وخصرٍ نحيل وصدرٍ صغير — مما جعلها قادرة على التمثيل المقنع في أفلام «المراهقات» الإباحية حتى أوائل العشرينيات من عمرها. وفي أشهر مشاهدها، تناوب ثمانية وخمسون رجلًا من الهواة (أي رجال عاديين من عامة الناس) على جسدها العاري الذي يشبه أجساد الأطفال.

في سن الثانية والعشرين، قامت «كيسي جوردان» ببث محاولة انتحارها مباشرة عبر موقع يوتيوب. وهي الآن تحاول إعادة بناء حياتها. وفي مقابلة أجريت معها عام ٢٠١٨، تحدثت عن عمليات التجميل العديدة التي خضعت لها قائلة:

> أردتُ أن أعيد ابتكار نفسي... أحد أسباب لجوئي لعملية تكبير الصدر هو أن المهووسين جنسيًا (الفيتيشيين) كانوا منجذبين لفكرة كوني قاصرًا، لأنه من النادر لامرأة بالغة مثلي أن تملك جسد طفلة في الرابعة عشرة. كان هذا هو السبب وراء مبيعاتي العالية في تلك الصناعة.[١]

وبعد مرور سنوات، أصبحت «كيسي جوردان» قادرةً على التحدث بصراحة عن كيف أدت بها السذاجة والفقر المدقع إلى الانزلاق في صناعة الأفلام الإباحية. ولكن، حين كانت أصغر سنًا، كانت تتبنى وجهة نظر مغايرة تمامًا، إذ كانت تصر وبشكل قاطع على أنها «بالغة راضية وموافِقة» ولها كامل الحرية في فعل ما تشاء. وبمجرد بلوغها سن الثامنة عشرة، كان يحق لها قانونًا التمسك بهذا الرد. أما ضحية عصابة مديمة روثرم (Rotherham)، التي كانت لا تزال طفلة، فلم تكن تملك ذلك الحق.

لأسباب عملية، لا بد أن يمثل «سن الرشد» خطًا فاصلًا وواضحًا من الناحية القانونية، ليفصل بين الاغتصاب القانوني (الاعتداء على القُصّر) وبين العلاقة الجنسية القائمة على التراضي. فلا توجد وسيلة أخرى يمكن للقانون أن يعمل بها. ورغم أن الشباب ينضجون بلا شك بمعدلات متفاوتة، وأن الانتقال من مرحلة الطفولة إلى البلوغ هو عملية تدريجية تشبه تحول

1- Generation Wealth, director Lauren Greenfield, Evergreen Pictures, 2018.

الليل إلى نهار، إلا أنه يتعين علينا وضع علامة زمنية فاصلة. ففي الساعة الحادية عشرة ليلاً تُعتبر طفلة، وفي منتصف الليل تصبح بالغة. هكذا تقتضي ضرورة القانون.

لكننا نعلم جميعًا أن هذا المنطق لا يستقيم تمامًا في الواقع. فإذا كنا نشعر بالاشمئزاز من القصة التي رواها السيد «أندرو نورفولك» عن خمسين رجلاً يصطفون لانتهاك عِرضِ فتاة مراهقة تخلى عنها نظامُ الرعاية والخدمات الحكومية المُكلَّفة بحمايتها، فكيف يسعنا إذن مشاهدة فيديو لشابة تكبر تلك الطفلة ببضع سنوات فقط، وتبدو في مظهرها طفلة تمامًا، وهي تُنتهك من قِبل عدد أكبر من الرجال، دون أن يثير ذلك فينا ردَّ فعل مماثلًا؟ إن التمزق والآلام الجسدية هي نفسها، وحالة الإنهاك والضياع هي نفسها، وحتى الرجال الذين تثار غرائزهم باستغلال شابة تُقدَّم لهم تحت مسمى «مراهِقة» ثم التخلص منها، هم أنفسهم نفس الرجال أيضًا.

يركز هذا الفصل على الطبيعة الافتراسية لصناعة الأفلام الإباحية وآثارها التدميرية على المنخرطين فيها. كما يتناول فكرة «الموافقة الجنسية» (Sexual consent)، لأن الدفاع الوحيد الذي تتذرع به صناعة الإباحية حين تُواجَه بقائمة جرائمها الشنيعة هو نسختها الخاصة من سردية التحرر الجنسي: «الجميع موافقون، الجميع بالغون، والنساء يستمتعن بذلك، ومن أنت لتعترض على ذلك؟»

وقد نرد على ذلك بالإشارة إلى أنه، في الواقع، ليس الجميعُ بالغين، وليس الجميعُ موافقين بالمعنى القانوني الضيق للكلمة، بالنظر إلى الكمّ الهائل من صور الأطفال والبالغين غير الموافقين التي يمكن العثور عليها حتى في أكثر منصات الإباحية شهرة. لكن صناعة الإباحية هذه والمدافعين عنها يسارعون إلى استبعاد هذه الأمثلة باعتبارها حالات شاذة، ليعودوا فورًا للاحتماء بنموذج «بائعات الهوى السعيدات» اللواتي يُلمِّعن صورتها. وطالما أن أولئك النساء بلغن السن القانونية، ويتمتعن بحد أدنى من القوى العقلية، ولم يقلن «لا» قبل ممارسة الجنس، فإنهن بذلك يستوفين عتبة الموافقة القانونية، وتصبح صناعةُ الإباحية حرةً في فعل ما تشاء بهن.

بيد أن «الموافقة» (consent) تنطوي على طبقات أعمق من ذلك بكثير. فهناك المعنى السطحي للمصطلح الذي نضطر للاعتماد عليه في قاعات المحاكم — «هل قالت «لا»؟ وهل كان بمقدورها قول ذلك؟» — ولكن هناك أيضًا معنى «أكثر شمولًا وعمقًا». وهنا أخشى أننا سنضطر للتخلي عن الأفكار البسيطة المغرية حول الموافقة المستمدة من فلسفة الفردانية الليبرالية.

سأحاول إثبات أنه على الرغم من أن حجة «لكنها وافقت» قد تصلح كدفاع قانوني في المحكمة لتبرئة المتهم، إلا أنها تظل دفاعًا أخلاقيًا غير مقنع على الإطلاق.

*****

ملكة الإباحية

غالبًا ما يدّعي الناسُ — ولا سيما الشابات — امتلاكَ القدرة على إعطاء الموافقة على بعضٍ من أفدح أشكال الأذى التي يمكن تخيّلها. والفتيات التي يقعن ضحايا لعصابات استدراج الأطفال ليسوا استثناءً من ذلك. فمع أن بعضهن يسعين بيأس إلى طلب المساعدة، ليُواجَهن بالصدّ، فإن الأكثر شيوعًا بكثير هو أن ترفض الفتياتُ أيَّ شخص يحاول التدخل لوقف الإساءة. وأحيانًا يكون هذا الرفض نتيجة الترهيب وإجبارهن على الصمت، لكن في معظم الأحيان يكون سببه أمرًا أشد إثارة للقلق: اعتقادهن أن الرجال البالغين الذين يسيئون إليهن هم في الحقيقة أصدقاؤهن المحبّون.

هذا هو ما يفعله الاستدراج. إنها الحالة نفسها التي وُصفت بمصطلحات أقدم مثل «غسل الدماغ» و«متلازمة ستوكهولم» — أي فقدان تام للاستقلال النفسي. تخيّل زوجة تتعرض للضرب المبرح من زوجها، ثم تلقي بنفسها فوق جسده عندما تحاول الشرطة اعتقاله؛ وهو أمر تفعله ضحايا العنف المنزلي مرارًا. وتخيّل أتباع عصابة «تشارلز مانسون» (Charles Manson) ذوي النظرات الجامدة، الذين يقتلون الناس بمجرد تلقي الأوامر لفعل ذلك، ثم يدخلون قاعة المحكمة وهم يسيرون مبتسمين، مصطفّين في انسجام، وقد نُقش حرف «X» على جباههم لتمييزهم بوصفهم «فتيات مانسون». والوسم، بالمناسبة، تفصيل يتكرر كثيرًا في روايات هذا النوع من الإساءة الشاملة التي تلتهم حياة الضحية بالكامل. فقد وُسِمت إحدى ضحايا عصابة الاستدراج في أكسفورد بحرف «M»، وهو الحرف الأول من اسم قوّادها. وبالمثل، في عام ١٩٩٤، استخدم رجل يُدعى «آلان ويلسون» (Alan Wilson) سكينًا محمّاة ليكتب حرفي «A» و«W» في حرقًا على أرداف زوجته، وهو فعل حوكم بسببه ثم بُرِّئَ لاحقًا، ما أسفر عن قضية (R v. Wilson)، وهي سابقة مشهورة في القانون الإنجليزي. وادّعى «ويلسون» أن زوجته كانت تُثار من كونها موسومة كما تُوسم البقرة. ورفضت الزوجة الإدلاء بشهادتها، فصدّقت المحكمةُ الزوج.

ويرى بعض الباحثين أن استجابة الاستدراج هي استجابة تكيفية: رد فعل عقلاني تمامًا في مواجهة تهديد العنف. فعلى سبيل المثال، تقترح عالِمة الأنثروبولوجيا «ميشيل سكاليز سوجيياما» (Michelle Scalise Sugiyama) أن أسر النساء أثناء الحروب كان حدثًا شائعًا إلى حدٍّ كبير في التاريخ التطوري للبشر، إلى درجة أنه ترك آثارًا مهمة في بنيتنا النفسية.[١] فالنساء اللواتي استطعن الاندماج في مجتمعاتهن الجديدة كنّ الأوفر حظًا للبقاء، ما يعني أن اللواتي تمكنّ من الارتباط عاطفيًا بآسريهن امتلكن ميزة انتقائية مقارنةً باللواتي قاومن.

وبالطبع، يمكن استدراج الرجال أيضًا. فالحدث الأصلي الذي اشتُقّ منه اسم «متلازمة ستوكهولم» — احتجاز رهائن في بنك سويدي — تضمّن أسر عدة رجال، كوّنوا هم أيضًا تعلقًا عاطفيًا شديدًا بآسريهم. غير أن هذه الظاهرة تُلاحظ بدرجة أكبر بكثير لدى النساء — ربما، كما تقول «سكاليز سوجيياما»، بسبب تاريخنا التطوري. وربما بدلًا من ذلك، أو إضافةً إليه، لأن النساء أكثر عرضة من الرجال لأن يجدن أنفسهن في النوع من الظروف الذي يستحث هذه الاستجابة بأقصى درجات الفاعلية: القرب الحميم من رجل عنيف.

وعند النظر إلى الاستدراج من زاوية معينة، يبدو مجرد شكل شديد الكثافة والأعمى من الحب: تعلق عاطفي غير عقلاني في أساسه، لكنه مع ذلك لا يقل أهميةً ولا معنى. فكثير من النساء اللواتي خضن علاقات مسيئة يصفن شعور الوقوع في فخٍّ ميؤوس منه داخل المجال العاطفي الطاغي لمسيئهن — بأنهن: «مذعورات»، «تعيسات على نحو مؤلم». لكنهن في الوقت نفسه «يائسات من الرحيل»، و«متعلّقات بالبقاء».

بالنسبة لبعض النساء، لا يوجد أيُّ فارق بين تجربة التعرّض للعنف المنزلي وتجربة التمثيل في الإباحية. وتُعد «ليندا لوفلايس» (Linda Lovelace)، واسمها الحقيقي «ليندا بوريمان» (Linda Boreman)، نجمة فيلم الإباحية الصريح الصادر عام ١٩٧٢ (Deep Throat)، ربما أشهر مثال على امرأة دخلت عالم الإباحية حرفيًا تحت تهديد السلاح، كما أوضحت لاحقًا في سيرتها الذاتية «المحنة» (Ordeal). فقد أساء زوجُها الأول، «تشاك ترابنور» (Chuck Traynor)، معاملتها جسديًا ونفسيًا، وأجبرها على ممارسة الدعارة ثم لاحقًا على الظهور في الإباحية. وعلى الرغم من أن المسؤولين في صناعة الإباحية كانوا يعلمون على نطاق واسع أن «ترابنور» كان يضرب «ليندا» خلف الأبواب المغلقة، فإن أحدًا لم يُبدِ اكتراثًا يُذكر («كانت تبدو

1- Michelle Scalise Sugiyama, ‘Fitness costs of warfare for women’ Human Nature 25 (2014): 476–95

وكأن لديها علاقة سادية–مازوخية مع زوجها «تشاك»»، هكذا قال مخرج فيلمها الإباحي (Deep Throat) مستخفًّا في مقابلة لاحقة).

وعندما أصبح فيلم (Deep Throat) نجاحًا عالميًا، محققًا إيرادات تجاوزت ٦٠٠ مليون دولار،[1] قامت «ليندا» بجولة في المملكة المتحدة، حضرت خلالها سباق «آسكوت» (Ascot) مرتدية تنورة قصيرة، وأعلنت أثناء زيارة إلى «ستونهنج» (Stonehenge):

> لأكون صادقة معك، يثير غضبي بشدة أن تُوصَف أفلام الجنس بأنها فاحشة، في حين أن أفلامًا أخرى مليئة بالذبح وتُصنَّف بحيث يستطيع الأطفال مشاهدتها. ما ينبغي أن يتعلمه الأطفال هو أن الجنس أمرٌ جيد، وعندها لن يكون في العالم هذا العدد الكبير من المصابين بالأمراض النفسية. أعني، نحن نعيش مرة واحدة فقط، فاستمتعوا بالحياة.[2]

بدت «ليندا» وكأنها مستفيدة ممتنة من هذا التحرر الجنسي الذي تعيشه. ولم تكشف إلا لاحقًا حقيقة ما تعرّضت له، لتتحول إلى ناشطة ضد صناعة الإباحية. وقد كتبت في سيرتها الذاتية «المحنة» (Ordeal) عن تجربتها في الأداء الإباحي:

> كانوا يعاملونني كدمية بلاستيكية قابلة للنفخ، يرفعونني وينقلونني من مكان إلى آخر. يفتحون ساقيّ بهذه الطريقة وتلك، ويدفعون أشياءهم نحوي وداخلي، كانوا يلعبون الكراسي الموسيقية بأجزاء من جسدي. لم أشعر في حياتي قط بهذا القدر من الخوف والعار والإذلال. شعرت بأنني قمامة. مارست أفعالًا جنسية في الإباحية ضد إرادتي لتجنّب أن أُقتل.[3]

وهذا نمط متكرر: النساء اللواتي عملن في الإباحية يلتزمن بسردية التحرر ما دمن داخل هذا المجال وتلك الصناعة، ولا يكشفن الجانب المظلم من تجاربهن إلا بعد مغادرتهن. وحينها تكون صورهن قد انتشرت في العالم، ولا سبيل لاستعادتها ولا لحذفها. وقد كتبت «ليندا» عام ١٩٨٠ أن «كل من يشاهد فيلم (Deep Throat) فهو يشاهدني وأنا أُغتصَب». وبعد نصف قرن، لا يزال الناس يشاهدونه.

1- http://www.latimes.com/archives/la-xpm-2002-apr-23-me-linda23-story.html
2- http://www.theguardian.com/film/2002/apr/28/features.review
3- Linda Lovelace and Mike McGrady, Ordeal: An Autobiography. New York: Citadel Press, 1980

ولا تزال النساء الأصغر سنًا يعشن تجربة صناعة الإباحية — التي توسعت الآن بشكل هائل — بالطريقة نفسها تقريبًا التي عاشتها «ليندا». فعلى سبيل المثال، أمضت «فانيسا بيلموند» (Vanessa Belmond) سبع سنوات في التصوير الإباحي، بين سن الثامنة عشرة والخامسة والعشرين. وهي صريحة في وصفها لقسوة الصناعة: العنصرية التي واجهتها كامرأة سوداء،[١] والاستغلال المالي، وانتشار الأمراض المنقولة جنسيًا، والافتقار التام لاحترام حدود وأمان الممثلات، اللواتي خرج كثيرات منهن من المشاهد وهنّ مصابات، ثم أصبحن معتمدات على المخدرات والكحول لتخدير الألم الجسدي والعاطفي. كما تتحدث «بيلموند» بصراحة عن تجاربها المبكرة مع اضطراب الأكل،[٢] إلى جانب إدمان المخدرات[٣] واستخدام الإباحية،[٤] وكل ذلك أسهم في دخولها هذا المجال على أمل أن تصبح براقةً وجميلةً ومرغوبةً كما كانت تتخيّل الممثلات الإباحيات. وهي تصف الطبيعة الاستغلالية لصناعة «تمضغ» الشابات وتلفظهن عندما يدخلنها وهنّ مراهقات، يحلمن بالمال والشهرة:

> هذا هو النمط الذي رأيته مرارًا وتكرارًا خلال سبع سنوات لي في هذا المجال: تدخل فتاةٌ عالمَ الإباحية، وتصوِّر بانتظامٍ لمدة تتراوح بين ستة أشهر وسنة مشاهدَ جنسية خفيفة نسبيًا. ثم يبدأ العمل بالتباطؤ، فتقرر الفتاةُ أداءَ مشاهد أكثر قسوة (مثل الجنس الشرجي، ومع أكثر من رجل في نفس الوقت، وما إلى ذلك). ثم يتباطأ العمل مجددًا. فتبدأ الفتاة بمرافقة الزبائن، وتصبح «منفتحة» على فعل أيِّ شيءٍ تقريبًا أمام الكاميرا للحصول على عمل. وفي النهاية، لا تعود هناك شركةٌ مستعدةً لتصويرها، ويجفّ العمل الإباحي. وغالبًا لا تكون للفتاة سيرة مهنية، ولا تعليم يُذكر، فتجد نفسَها عالقةً عمليًا في المرافقة، والتعرّي، والبث عبر الكاميرات، وأي عمل إباحي يمكنها بالكاد أن تظفر به.[٥]

لكن، وكما هو الحال مع «ليندا بوريمان»، عندما كانت «بيلموند» لا تزال منخرطة في الصناعة، كانت أول من يُصرّ على أنها لا تفعل سوى التعبير عن حريتها الجنسية:

1- http://www.antipornography.org/racism-in-porn-industry-harsh-reality-exposed.html
2- http://www.antipornography.org/my-bulimia-eating-disorder-story-how-it-harmed-me.html
3- http://www.antipornography.org/my-story-of-becoming-a-methamphetamine-addict.html
4- http://www.antipornography.org/female-porn-addiction-my-story-how-i-became-addict.html
5- http://www.antipornography.org/working-in-porn-is-a-dead-end-trip-to-nowhere.html

> واحدةً تلو الأخرى، جرى انتهاك جميع حدودي. هل أخبرتُ معجبيّ بذلك يومًا؟ بالطبع لا. فبحسب ما كانوا يعرفونه، بدأتُ ممارسة الجنس الشرجي لأنني «أردتُ تجربة شيء جديد». ولو سُئل هؤلاء المعجبون، لقالوا إنني قدّمتُ أقسى مشاهد الجنس لأنني «دخلتُ عالم الإباحية لأُحقّق كل خيالاتي أمام الكاميرا».
>
> كنتُ، كما يُفترَض، مجرد فتاة شابة «متحررة جنسيًا» تجرّب كل ما تخيّلته! أليس كذلك؟ لم أكن بالتأكيد شابةً منهارة تفعل ما لا بدّ من فعله لكسب المال في صناعة الجنس. ولم أكن امرأةً شابةً جرى تدمير إحساسها بقيمتها الذاتية تدميرًا كاملًا، إلى درجة أنها لم تعد ترى نفسَها إلا كشيءٍ، كسلعة. لاااا. كنتُ فتاة «متحررة»، «منفتحة جنسيًا»، «فتاة حفلات»![1]

وينطبق هذا الانتقال إلى دور «المتحررة» ثم الخروج منه أيضًا على القلة من النساء اللواتي ينجحن فعلًا في عالم الإباحية. فـ «جينا جيمسون» (Jenna Jameson)، على سبيل المثال، لا تزال واحدة من أشهر ممثلات الإباحية في العالم، وكانت، لفترة من الزمن، من أبرز المدافعات عن هذه الصناعة، حتى أُطلِق عليها في وسائل الإعلام لقب «ملكة الإباحية». وفي عام ٢٠٠١، دعا «اتحاد أكسفورد» (Oxford Union) «جينا» إلى الحضور إلى جامعة أكسفورد للمجادلة ضد مقترح يقول: «هذا المجلس يعتقد أن الإباحية ضارة». وقد فاز فريقُها في تلك المناظرة بنتيجة ٢٠٤ مقابل ٢٧.[2]

لكن «جيمسون» أصبحت اليوم ناقدةً شرسةً لصناعة الجنس. ففي سيرتها الذاتية (How to Make Love Like a Porn Star: A Cautionary Tale)، تكتب عن تصوير مشاهد مع ممثلين وجدَتهم مثيرين للاشمئزاز، وعن الألم الجسدي شبه الدائم والإرهاق الناتجين عن جدول عمل قاسٍ ومُنهك، وكل ذلك داخل صناعة تعجّ برجال مسيئين ينتهزون أي فرصة لإذلال النساء اللواتي يعملن معهم. وقد غادرت «جيمسون» صناعة الجنس عام ٢٠٠٨، وأصبحت منذ ذلك الحين محافظةً صريحةً وناشطةً علنيةً مناهِضةً للإباحية.[3]

*****

1- http://www.antipornography.org/is-doing-porn-empowering-for-women.html
2- http://www.stylist.co.uk/people/10-unlikely-oxford-union-speakers/13301
3- https://filmdaily.co/news/jenna-jameson-porn-trafficking /

جرائم شركة MindGeek

يتوجّه غضب «جينا جيمسون» (Jenna Jameson) ونضالها، بشكل خاص، إلى موقع «بورنهب» (Pornhub)، عاشر أكثر المواقع زيارةً في العالم. وقد منحت «جيمسون» دعمها كذلك لمجموعة الحملة الأمريكية «ترافكينج هب» (TraffickingHub)، التي تعمل على بناء ملفٍ متنامٍ من الأدلة يُظهر أن موقع (Pornhub) يستضيف عن علم مقاطع فيديو لأطفال وضحايا الاتجار الجنسي وهم يتعرضون للاغتصاب، فضلًا عن ما يُعرف بـــ «إباحية الانتقام» التي تُنشر من دون موافقة الضحية.

وقد أكدت «مؤسسة مراقبة الإنترنت» (Internet Watch Foundation) حتى الآن ١١٨ حالة لأطفال تعرّضوا للاعتداء الجنسي على موقع (Pornhub).[١] وعُثر على فتاة في الخامسة عشرة من عمرها كانت مفقودة منذ عام، بعد أن تلقت والدتها بلاغًا يفيد بأن ابنتها تظهر في مقاطع على (Pornhub) — حيث كُشف عن ثمانيةٍ وخمسين مقطعًا توثّق اغتصابها وإساءة معاملتها. كما تعرّضت فتاة أخرى، تبلغ من العمر أربعة عشر عامًا، تُدعى «روز كاليمبا» (Rose Kalemba)، لاغتصاب جماعي تحت تهديد السكين. ونُشرت لقطات الاعتداء على (Pornhub) وشوهدت أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ مرة. وقد تواصلت «كاليمبا» مع الموقع مرارًا خلال ستة أشهر مطالِبةً بإزالة الفيديو، لكن من دون جدوى. وفي الأثناء، واصل موقع (Pornhub) جني الأرباح من لقطات الاعتداء عليها. ولا حاجة للذهاب إلى «الويب المظلم» للوصول إلى هذه المواد — فهي متاحة على أكبر مواقع الإباحية وأكثرها شيوعًا في العالم.

وعلى مستوى العالم، تُقدَّر صناعة الإباحية بلا شك بمليارات الدولارات الأمريكية، إذ يقدّرها بعضهم بما يصل إلى ٩٧ مليار دولار. وتدير شركة «مايندجيك» (MindGeek)، عملاق عالم الإباحية، ما يقرب من مئة موقع إلكتروني، من بينها (Pornhub)، تستهلك مجتمعةً نطاقًا ترددیًا يفوق ما تستهلكه تويتر أو أمازون أو فيسبوك.[٢] ويتميّز الهيكل التنظيمي لشركة (MindGeek) بالتعقيد، إذ تقوم على شبكة واسعة من الشركات المنتشرة في أنحاء العالم، بما

1- https://filia.org.uk/resources/2020/5/16/international-call-for-credit-card-freeze-on-porn-sites
2- https://web.archive.org/web/20141219160919/http://www.slate.com/articles/technology/technology/2014/10/mindgeek_porn_monopoly_its_dominance_is_a_cautionary_tale_for_other_industries.html

في ذلك أماكن للتهرب الضريبي مثل قبرص ولوكسمبورج. وفي عام ٢٠٠٩، أُلقي القبض على المالك آنذاك «فابيان تيلمان» (Fabian Thylmann) بتهم التهرّب الضريبي، فباع شركة (MindGeek) لاحقًا إلى «فيراس أنتون» (Feras Antoon) و«ديفيد مارمورستين تاسيلو» (David Marmorstein Tassillo). وعلى مدى العقد الماضي، نجح هذان الرجلان في الحفاظ على ظهور علني منخفض على نحوٍ لافت — إذ لا يحظى «أنتون» إلا بذكرٍ مقتضب في ويكيبيديا، بينما لا يملك «مارمورستين تاسيلو» صفحةً على الإطلاق. وعلى خلاف شخصيات مثل «جاك دورسي» (Jack Dorsey) و«جيف بيزوس» (Jeff Bezos) و«مارك زوكربيرج» (Mark Zuckerberg)، فإن كبار التنفيذيين في (MindGeek) ليسوا أسماءً مألوفة لدى العامة، وقد استطاعوا حتى الآن البقاء خارج دائرة الضوء الإعلامي، مراكِمين ثرواتٍ هائلة من دون عبء المساءلة العامة.

وفي ديسمبر ٢٠٢٠، وجّه مقالٌ في صيحفة (The New York Times) ضربةً موجعة لشركة (MindGeek). فقد أجرى الصحفي الحائز على جائزة بوليتزر «نيكولاس كريستوف» (Nicholas Kristof) تحقيقًا كشف فشل (Pornhub) في إزالة الصور الجنسية للأطفال والبالغين غير الموافقين من منصته. ولا تُعد صحيفة The New York Times من أعرق المؤسسات الإخبارية في العالم فحسب، بل هي أيضًا صحيفة ليبرالية نادرًا ما تنشر مواد تنتقد صناعة الجنس. لذلك، لم يكن من السهل على المدافعين عن (Pornhub) أن يتجاهلوا مقال «كريستوف» بوصفه مجرد مثال آخر على التحفّظ الأخلاقي المحافظ، وجاء حكمه القاطع أكثر إقناعًا:

> موقع [Pornhub] موبوء بمقاطع فيديو الاغتصاب. وهو يدرّ الأرباح من اغتصاب الأطفال، وإباحية الانتقام، ومقاطع كاميرات التجسّس لنساء أثناء الاستحمام، والمحتوى العنصري وكاره النساء، ولقطات لنساء يتم خنقهن داخل أكياس بلاستيكية. ويؤدي البحث عن «girls under18» (من دون مسافة) أو «yo١٤» في كل حالة إلى أكثر من ١٠٠,٠٠٠ مقطع فيديو.[1]

كان الردّ فوريًا. فقد أعلنت كلٌّ من شركتي «ماستر كارد» (Mastercard) و«فيزا» (Visa) أنهما ستوقفان استخدام بطاقاتهما على موقع (Pornhub)، وبعد أربعة أيام من نشر

1- http://www.nytimes.com/2020/12/04/opinion/sunday/pornhub-rape-trafficking.html

مقال «كريستوف»، أعلنت شركة (MindGeek) أنها ستُنشئ فريقًا جديدًا من المشرفين لمراجعة وإزالة «المواد التي يُحتمل أن تكون غير قانونية»، وحظر التحميلات، وتعديل سياسات رفع الفيديوهات بحيث لا يُسمح بنشر مقاطع الفيديو إلا للمستخدمين الموثَّقين.[١] ولاحقًا، قامت (Pornhub) بحذف جميع مقاطع الفيديو الموجودة التي رفعها مستخدمون غير موثَّقين، ما خفّض عدد المقاطع على منصتها من ١٣ مليونًا إلى ٤ ملايين.[٢] وكان ذلك، بفارق واضح، أكبر حملة تشديد في تاريخ الموقع.

ومع ذلك، لم يكن هذا كافيًا. فهناك قضية قانونية جارية تُعطي لمحة عن نوع الممارسات المشبوهة التي تورطت فيها شركة (MindGeek)، والتي قد تستمر في التورط فيها رغم إدخال تدابير الحماية الجديدة. فقد كانت شركة «جيرلز دو بورن» (GirlsDoPorn) شركة إنتاج إباحي تأسست عام ٢٠٠٩، وكانت قناتها في مرحلة ما واحدة من أكثر عشرين قناة شهرةً على (Pornhub). ولم تكن هذه مقاطع هواة نشرها مستخدمون غير موثَّقين؛ بل كانت (GirlsDoPorn) شركة احترافية مصقولة اعتمدت على عملية احتيال معقّدة. فقد نشرت إعلانات وهمية لعرض الأزياء على موقع (Craigslist)، تطلب فيها من شابات تتراوح أعمارهن بين الثامنة عشرة والثانية والعشرين التواصل معها. وكانت اللواتي يستجبن يُوضَعن على اتصال بنساء أخريات دُفع لهن المال للتظاهر بأن لديهن تجارب إيجابية في العمل لدى الشركة كعارضات أزياء.

وقد أُبلِغ بعض النساء بجزء من الحقيقة فقط: وهو أنهن سيُطلَب منهن ممارسة الجنس أمام الكاميرا. لكن لم تُخبَر أيٌّ منهن بالحقيقة كاملة، وهي أن مقاطع الفيديو ستُنشر على الإنترنت.

وكذب منتجو (GirlsDoPorn) على هؤلاء النساء، فأخبروهن بأن المقاطع ستُباع على أقراص DVD لمشترين خاصين في الجانب الآخر من العالم. كما كذبوا بشأن عملية التصوير نفسها، فأخبروهن أنهن سيُتوقَّع منهن ممارسة الجنس لمدة ثلاثين دقيقة فقط. لكن في الواقع، كان التصوير يستمر حتى سبع ساعات. وقد أُكرِهت النساء على إنتاج مواد إباحية جرى توزيعها لاحقًا دون علمهن. ولم تحصل نصفهن حتى على كامل المبلغ المالي الذي وعد به المنتجون.

---

١ http://www.nytimes.com/2020/12/09/opinion/pornhub-news-child-abuse.html
٢ http://www.theguardian.com/technology/2020/dec/14/pornhub-purge-removes-unverified-videos-investigation-child-abuse

وكانت «مونيكا إيفانز» (Monica Evans) واحدة من النساء اللواتي استجبن لإعلان عرض أزياء وهمي نشره منتجو (GirlsDoPorn) عام ٢٠١٣، بعد شهرين فقط من بلوغها الثامنة عشرة. وقد نُقلت جوًّا إلى ولاية كاليفورنيا، حيث أُكرِهت على تصوير ساعات من الجماع العنيف. وكما قالت لاحقًا لمجلة (Vice):

> كنتُ أتألم بشدة. لم أعد أريد الاستمرار، فقالوا: لا، لقد وقّعتِ عقدًا، لم يتبقَّ سوى عشر دقائق أخرى... كنتُ هناك لمدة أربع أو خمس ساعات. كان ذلك تعذيبًا. ثم أخذوني إلى المطار. وبكيت طوال رحلة الطائرة إلى المنزل.[١]

وبعد شهر، كان الفيديو في كل مكان. فقد جرى ربطه بحسابات «مونيكا» على وسائل التواصل الاجتماعي، وأُرسلت لأسرتها لقطات وصور منه، وتعرضت أختها الصغرى للمضايقة. وأرسلت «مونيكا» رسالة إلكترونية إلى موقع (Pornhub) تطلب فيها إزالة الفيديو الخاص بها، لكنها لم تتلقَّ أي رد. وفي نهاية المطاف، أُدخلت إلى مستشفى للأمراض النفسية.

وكانت «مونيكا» واحدة من الشابات اللواتي أدلين لاحقًا بشهادات في قضية مدنية رفعتها اثنتان وعشرون ضحية من (GirlsDoPorn). وفي يناير ٢٠٢٠، مُنح المدّعون تعويضات بلغت ١٢,٧٧٥ مليون دولار، وخلال مجريات القضية وُجّهت أيضًا اتهامات جنائية، شملت الاتجار الجنسي وإنتاج صور جنسية لأطفال. وقد وُجّهت اتهامات إلى بعض الأشخاص المرتبطين بـ (GirlsDoPorn) من قِبل السلطات الفيدرالية الأمريكية. واثنان من هؤلاء المتهمين — الممثل الإباحي «روبن أندريه جارسيا» (Ruben Andre Garcia) والمصوّر «ثيودور ويلفريد جاي» (Theodore Wilfred Gyi) — أقرا بالذنب وينتظران صدور الحكم، في حين لا يزال الشريك المؤسس لـ (GirlsDoPorn) «مايكل جيمس برات» (Michael James Pratt) حرًا طليقًا.[٢]

على الرغم من أن هذه الدعوى المدنية رُفعت في يونيو ٢٠١٦، فإن موقع (Pornhub) لم يُزل قناة (GirlsDoPorn) إلا في أكتوبر ٢٠١٩، عندما وُجِّهت لهم اتهامات جنائية.[٣] وفي ديسمبر ٢٠٢٠، رفعت أربعون امرأة كنّ منخرطات مع (GirlsDoPorn) دعوى قضائية أخرى، زعمن فيها أن شركة (MindGeek) كانت على علم بعمليات الاتجار الجنسي التي تمارسها

1- http://www.vice.com/en_uk/article/evjkdw/she-helped-expose-girls-do-porn-but-she-can-never-outrun-what-it-did-to-her

2- https://timesofsandiego.com/crime/2021/04/02/10-more-women-join-lawsuit-against-pornhub-plaintiffs-now-total-50 /

3- http://www.dailydot.com/irl/pornhub-girls-do-porn-federal-charges /

الشركة منذ عام ٢٠٠٩ على الأقل، وبالتأكيد بحلول عام ٢٠١٦، لكنها واصلت مع ذلك شراكتها مع (GirlsDoPorn).[١] كما تزعم الدعوى أن شركة (MindGeek)، وحتى ديسمبر ٢٠٢٠، أخفقت في إزالة مقاطع فيديو (GirlsDoPorn) رغم الطلبات المتكررة من الضحايا. وفي وقت كتابة هذا النص، لا تزال الدعوى قائمة.[٢]

وعلى الرغم من هذا النوع من سوء الممارسة المكشوف تقريبًا، تواصل شركة (MindGeek) تحقيق الأرباح لسبب واحد بسيط: الناس لا يتوقفون عن المشاهدة. فبعض انتهاكات صناعة الإباحية تُخفى عمدًا عن المستهلكين، إذ يُدفَع للممثلات الإباحيات بأن يأوهن بمتعة بينما يعتصرهن الألم. لكن في أحيان أخرى تكون الإساءة واضحة تمامًا. بل وأحيانًا، في الحقيقة، تكون الإساءة هي جوهر الفكرة.

وكانت طريقة مقاطع (GirlsDoPorn) ترتكز على الإكراه بدل التستر عليه. فقد كانت تُصوَّر عادةً في غرف فنادق وبطاقم عمل محدود، وكانت النساء يُعطين المال أمام الكاميرا ويُطلب منهن قراءة أجزاء من عقودهن (المضلِّلة) بصوت مرتفع. ولم يكن هناك أي ادعاء بأن هؤلاء النساء مشاركات بحماسة — بل كان تردّدهن ذاته مقصودًا أن يكون مثيرًا. وبالاستناد إلى نجاح (GirlsDoPorn) على مدى أحد عشر عامًا من وجودها، فقد وجد مستهلكو الإباحية هذا النوع «مثيرًا» فعلًا: إذ شوهدت هذه المقاطع أكثر من مليار مرة على مواقع تملكها شركة (MindGeek).

ولم تكن صناعة الإباحية لتنتج محتوى يُصوِّر الإساءة لولا وجود طلب عليه. فهناك ظلمة كامنة داخل الجنس البشري — في الغالب، وإن لم يكن حصريًا، لدى الرجال — ربما كانت تُحتجز في السابق داخل خيال صاحبها، لكنها اليوم، بفضل الإباحية، باتت معروضة أمام العالم بأسره. وتأخذ هذه الصناعة تلك البذرة القاسية الصامتة، وتغذّيها، وتجعلها تنمو.

*****

1- http://www.10news.com/news/local-news/women-sue-pornhubs-parent-company-for-hosting-girlsdoporn-com-videos
2- Sklar, 12 April 2021.

الرأسمالية الغرائزية

في استطلاع أُجري عام ٢٠٢٠ شمل رجالًا من مجموعة من دول أوروبا الغربية، أفاد المشاركون بأنهم يشاهدون في المتوسط سبعين دقيقة من الإباحية عبر الإنترنت أسبوعيًا، مع مشاهدة ٢ ٪ منهم لأكثر من سبع ساعات.[١] ويبدو أن الرجل العادي يقضي وقتًا أطول في مشاهدة الإباحية مما يقضيه في الاستحمام.[٢]

ومع ذلك، لا يشاهد جميع الرجال الإباحية، حتى ضمن الفئات العمرية الأصغر سنًا. فقد أظهر استطلاع أجرته هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) عام ٢٠١٩ أن ٢٣٪ من الرجال في المملكة المتحدة الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين أفادوا بأنهم لم يشاهدوا الإباحية خلال الشهر السابق.[٣] ولا يتوزع استهلاك الإباحية بالتساوي عبر السكان، بل يخضع لما يُعرف بتوزيع باريتو (Pareto distribution)، حيث تتحمّل أقلية من الناس مسؤولية الغالبية الساحقة من الاستهلاك. وهؤلاء المستهلكون تحديدًا هم المسؤولون إلى حدٍّ كبير عن ازدهار صناعة الإباحية، ومع ذلك فإنهم بدورهم يتعرضون للاستغلال من قبل هذه الصناعة، كلٌّ بطريقته.

يشعر عدد كبير من مستهلكي الإباحية بتناقض داخلي حيال استخدامهم لها. فقد أجرت الدكتورة «فيونا فيرا جراي» (Fiona Vera-Gray)، الباحثة في جامعة «دورام» (Durham University)، أبحاثًا مع رجال ونساء حول تجاربهم مع استخدام الإباحية. وتقول إن من أكثر الاستجابات العاطفية شيوعًا التي سمعتها من المستخدمين شعورًا بالإثارة الطاغية، يعقبه فجأة إحساس بالخزي مباشرة بعد النشوة. وتضيف «فيرا جراي» أن كثيرًا من المستخدمين «يعيشون صراعًا أخلاقيًا، إذ يشاهدون مواد يشعرون بأنها سيئة جدًا للنساء، لكنهم مع ذلك يُثارون بها شخصيًا... فيمارسون العادة السرية على هذه المواد، ثم بعد ذلك يفكرون: يا إلهي، ويدفعون الحاسوب بعيدًا عنهم».[٤]

1- T. Jacobs, K. Fog-Poulsen, A. Vermandel et al., 'The effect of porn watching on erectile function', European Urology Open Science 19, Supplement e1121–e1122, July 2020

2- http://www.mirashowers.co.uk/blog/trends/revealed-what-brits-are-really-getting-up-to-in-the-bathroom-1 /

3- http://www.bbc.co.uk/bbcthree/article/bb79a2ce-0de4-4965-98f0-9ebbcfcc2a60

4- Interview with Fiona Vera Grey, 2 June 2020.

وتكبح الإثارة الجنسية استجابتنا للاشمئزاز[1] لسبب بيولوجي بسيط: فالآخرون يمثلون مصادر محتملة للأمراض، لكننا نحتاج إلى الاقتراب منهم من أجل التكاثر. ولهذا تُعطَّل النفور الطبيعي من الحميمية مع الغرباء عندما نجد هؤلاء الغرباء جذّابين جنسيًا. كما أن استجابة الاشمئزاز مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالحدس الأخلاقي.[2] وبعبارة بسيطة، نحن لسنا بارعين في إصدار أحكام أخلاقية دقيقة عندما نكون مثارين جنسيًا.

وقد صُمّمت مواقع الإباحية لإثارة المستخدمين بأسرع ما يمكن. فلا تقتصر الصور المصغّرة على عرض أكثر لحظات الفيديو إثارةً — دائمًا فعل الإيلاج، وليس صور الممثلين وهم جالسون على سرير — بل إن الروابط إلى مقاطع الفيديو غالبًا ما تكون متحركة وتعمل تلقائيًا عندما يمرّر المستخدم المؤشر فوقها، أو عند فتح الموقع نفسه. وما إن يصل المستخدم حتى تتعرض عيناه (وأحيانًا أذناه) لقصف فوري بمحفزات جنسية مكثفة. وهذه الدافعية الأساسية، التي لا تقل جوهرية عن الجوع أو العطش، لا يمكن مقاومتها عبر التفكير الأخلاقي. إنها استجابة لا إرادية أتقنت صناعة الإباحية إثارتها.

ويمثل هذا النوع من تصميم المواقع مثالًا مقلقًا بشكل خاص على ما يسميه البروفيسور «ديفيد كورترايت» (David Courtwright) «الرأسمالية الغرائزية»، أي «نظامًا تجاريًا متقدمًا تكنولوجيًا لكنه متراجع اجتماعيًا، تعمل فيه الصناعات العالمية — غالبًا بمساعدة حكومات متواطئة ومنظمات إجرامية — على تشجيع الاستهلاك المفرط والإدمان». ويتم ذلك عبر استهداف الجهاز الغريزي، وهو الجزء من الدماغ المسؤول عن الإحساس.[3] وتفسّر الرأسمالية الغرائزية سبب كون أنجح التطبيقات زاهية الألوان مثل الفاكهة الطازجة، وبراقة كالماء العذب. فدمغتنا البدائية تسعى بلا حول إلى المحفزات التي تطورنا لننجذب إليها، لأن الاستجابة لها منحت أسلافنا ميزة للبقاء. وقد أدرك تجار الرأسمالية الغرائزية هذه الغرائز مع مرور الوقت، وتعلموا كيف يلتقطونها بأقصى قدر من الفعالية.

والإباحية بالنسبة للشهوة الجنسية مثل ما تمثله «ماكدونالدز» (McDonald's) للطعام. فهاتان المؤسستان الرأسماليتان تستغلان شهواتنا الطبيعية، وتنتزعان أكثر عناصرها إلحاحًا

1- Charmaine Borg and Peter J. de Jong, 'Feelings of disgust and disgust-induced avoidance weaken following induced sexual arousal in women', PLoS ONE 7 (2012): e44111

2- C. -E. Ivan, 'On disgust and moral judgments: a review' , Journal of European Psychology Students 6 (2015): 25–36.

3- https://quillette.com/2019/05/31/how-limbic-capitalism-preys-on-our-addicted-brains /

وإدمانًا، وتجرّدانها من أي قيمة غذائية حقيقية، ثم تشجعاننا على الاستهلاك أكثر فأكثر. وكلا المنتجين مثال على «المحفزات الفائقة»: نسخ مبالغ فيها من محفزات طبيعية، تستغل توقًا تطوريًا للتغذية والإثارة والمتعة، لكنها تفعل ذلك على نحوٍ مختل، فتخدع المستهلك لينهَم في استهلاك منتج يبدو جيدًا في البداية، لكنه على المدى الطويل يضرّه.

عندما نواجه مثل هذه الإغراءات، لا نكون نحن البشر في الحقيقة أكثر تطورًا بكثير من خنفساء الجوهرة الأسترالية «جولوديمورفا باكيويلي» (Julodimorpha bakewelli)، وهي خنفساء لامعة ذات لون ذهبي، يبلغ طولها نحو أربعة سنتيمترات. ففي عام ١٩٨١، لاحظ زوج من المتخصصين في علم الحشرات ذكرَ خنفساء الجوهرة يحاول التزاوج مع زجاجة بيرة مُلقاة (تُعرَف في العامية الأسترالية باسم «ستَبّي»). وعند التعمّق في البحث، تبيّن لهما أن ذكور خنافس الجوهرة لم تكن تخلط بين هذه الزجاجات وإناث نوعها على نحو متكرر فحسب، بل كانت تفضّل الزجاجات فعلًا، متجاهلةً الشريكات الحقيقيات من أجل اعتلاء الزجاج، لأن هذه القطع من النفايات كانت أكثر لمعانًا وأكثر ذهبية من إناث خنافس الجوهرة، وبالتالي أكثر إثارةً جنسيًا للذكور.[1]

وتقدّم الإباحية جاذبيةً مشابهة إلى حدٍّ بعيد، إذ تعرض صدورًا أكبر وأعضاء ذكورية أكبر مما يُصادَف «في الطبيعة»، وبذلك توفّر قدرًا أعظم من الإثارة. ومن المرجّح أن يؤدي الظهور القريب لروبوتات جنسية واقعية في الأسواق إلى تضخيم تأثير هذه «المحفزات الفائقة» أكثر فأكثر. وتكتب عالِمة الأحياء التطورية «ديانا فليشمان» (Diana Fleischman) عن الأثر الخبيث الذي تخلّفه هذه التقنيات الجديدة في مستخدميها فتقول:

> الإشارات التي سيوفّرها روبوت جنسي لعلم النفس التطوري لمراهق كان محبطًا في السابق ستكون: أنت تحقّق نجاحًا مذهلًا في التزاوج ومكانة عالية بمجرد بقائك في المنزل ولعب ألعاب الفيديو، واصل على هذا النحو! ... إن ألعاب الفيديو ووسائل التواصل الاجتماعي تقوّض بالفعل الآليات النفسية الفطرية التي تدفعنا إلى السعي نحو المكانة — فهي توفّر مكافآت فورية وتتطلب جهدًا أقل بكثير

1- Darryl T. Gwynne and David C. F. Rentz, 'Beetles on the bottle: male buprestids mistake stubbies for females (Coleoptera)' , Australian Journal of Entomology 22 (1983): 79–80

من أي شيء نسعى إليه في العالم الحقيقي. ولن تؤدي الروبوتات الجنسية إلا إلى تفاقم هذا الوضع، ولا سيما لدى الرجال الشباب.[1]

ولِمَ عناء البحث عن وظيفة، أو الذهاب إلى صالة الألعاب الرياضية، أو حتى الحفاظ على النظافة الشخصية، إذا كان الروبوت الجنسي لا يكترث بذلك أصلًا؟ فإذا كانت قطعة بلاستيك عقيمة قادرة على إشباع شاب جنسيًا، فلن يكون بحاجة إلى الخروج ومقابلة نساء حقيقيات. وبالطبع، لن يكوّن زوجةً أو أطفالًا، وسيجد نفسه في نهاية المطاف وحيدًا مع روبوته الجنسي بوصفه رفيقه الوحيد. لكنه سيصل إلى تلك العزلة وقد جرى تخدير عواطفه بفعل دفعات الدوبامين المضمونة التي يحصل عليها من لعب المكافئ الجنسي لألعاب القمار، مرة بعد مرة.

وحتى من دون الوصول إلى الروبوتات الجنسية، فإن بعض الرجال يفضّلون بالفعل مشاهدة الإباحية على السعي إلى علاقات مع شركاء حقيقيين. وكما سنرى في الفصل السابع، فإن إحدى السمات المنحرفة لسوق المواعدة في القرن الحادي والعشرين هي أن الشاب المتوسط بات يمارس الجنس بوتيرة أقل مما كان عليه والداه وأجداده، وأن هناك شريحة آخذة في الاتساع من الرجال المحبطين الذين يظلون عذارى حتى العشرينيات من أعمارهم وما بعدها. وهذه الفئة من الرجال تكون عرضةً على نحو خاص لاستغلال تجّار الرأسمالية الغرائزية.

أما نسبة ٢٪ من رجال أوروبا الغربية الذين أفادوا بمشاهدة أكثر من سبع ساعات من الإباحية أسبوعيًا فليسوا جماعةً صحيّة أو سعيدة، وكذلك الحال بالنسبة للرجال الذين قد يكون استهلاكهم للإباحية أقل زمنًا، لكنه مع ذلك مدمّر على المستوى الشخصي. ويُعد التأثير المستمر لحركة «نو فاب» (NoFap) دليلًا واضحًا على عدم الرضا الجنسي الذي كثيرًا ما يصاحب استخدام الإباحية. وقد تأسست الحركة عام ٢٠١١ على يد مطوّر الويب الأمريكي «ألكسندر رودس» (Alexander Rhodes)، وهي تشجّع أتباعها على الإقلاع عن كلٍّ من الإباحية والاستمناء («فاب» لفظ عامي مشتق من صوت رجلٍ يُمتع نفسه). ويُعرَض على الأتباع — وغالبيتهم الساحقة من الذكور — التحرر من القوة الإدمانية للإباحية ومن العجز الجنسي الناتج عنها، والذي قفز بشكل حاد خلال العقدين الماضيين، إذ بات ضعف الانتصاب يؤثر الآن فيما بين ١٤ و٣٥ ٪ من الرجال الشباب، مقارنةً بنحو ٢ أو ٣٪ فقط في مطلع هذا القرن.[2]

1- https://jacobitemag.com/2018/04/24/uncanny-vulvas /
2- http://www.theguardian.com/lifeandstyle/2019/mar/11/young-men-porn-induced-erectile-dysfunction

ويكتب أعضاء المنتدى الفرعي لحركة «نو فاب» أحيانًا عن ممارستهم الاستمناء بوتيرة مفرطة إلى حد أنهم يُصابون بجروح مؤلمة، ويذكر كثيرون معاناتهم مما يُعرف بـ «متلازمة قبضة الموت»، وهو مصطلح شبه طبي يُستخدم لوصف فقدان الإحساس الذي قد ينجم أحيانًا عن الاستمناء العنيف. ويبلّغ المصابون بأنهم يجدون صعوبة، أو حتى استحالة، في الوصول إلى النشوة أثناء ممارسة الجنس مع شخص آخر، جزئيًا بسبب فقدان الحساسية الجسدية، وجزئيًا بسبب التأثير النفسي لاستخدام الإباحية. وحتى إذا كانوا متحفزين للسعي إلى علاقة جنسية مع شخص حقيقي، فإن «قبضة الموت» النفسية قد تمنعهم من الإثارة مع شخص لا يشبه جسده تمامًا جسد نجم إباحي. ويعرّض مستخدمو الإباحية القهريون أنفسهم لكمٍّ هائل من التحفيز الجنسي إلى درجة أنهم يصبحون، حرفيًا، عاجزين جنسيًا.

ويُعد الممثل والرياضي الأمريكي «تيري كروز» (Terry Crews) من أبرز الداعمين لحركة «نو فاب» في الوقت الحاضر، وقد تحدّث علنًا عن صراعه الشخصي مع إدمان الإباحية:

> يقول بعض الناس: يا رجل... لا يمكنك حقًا أن تُدمن على الإباحية. لكن دعني أخبرك بشيء... إنها تغيّر الطريقة التي تنظر بها إلى الناس. يصبح الناسُ أشياءً. يتحولون إلى أجزاءٍ جسدية؛ أشياء تُستخدم بدل أن يكونوا أشخاصًا يُحَبّون.[١]

و«كروز» رجل وسيم، غني وناجح، وهو أيضًا زوج وأب لخمسة أطفال. ومع ذلك، وجد نفسه يُهمِل زوجته ويستبدل ذلك بمشاهدة الإباحية، تمامًا مثل خنفساء الجوهرة الأسترالية التي تختار جسمًا جامدًا بدل شريك حيّ حقيقي. هكذا هي القوة التي تمارسها الإباحية على بعض مستخدميها.

لقد أصابت النسويات اللواتي انتقدن الإباحية في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي في كثير من توقعاتهن، إذ تنبأن بدقة بالمسار الذي ستسلكه هذه الصناعة. فغلاف مجلة «هاسلر» (Hustler) الشهير الصادر في يونيو ١٩٧٨، والذي يصوّر جسد امرأة يُفرم داخل مفرمة لحم، يبدو اليوم شبه طبيعي مقارنةً بصور العنف الجنسي المشوّهة المتاحة حاليًا، ليس فقط على مواقع الإباحية السائدة، بل أيضًا على منصات التواصل الاجتماعي التي تُسوَّق على أنها مناسبة للأطفال.

1- https://edition.cnn.com/2016/02/24/entertainment/terry-crews-porn-addiction-feat/index.html

لكن ما لم تتنبأ به تلك الأجيال من النسويات هو الأثر المتناقض الذي ستخلّفه «الإباحية» الثقافة على السلوك الجنسي على مستوى المجتمع. فمن جهة، لدينا ثقافة جنسية باتت أكثر عدوانية وأشد خواءً عاطفيًا. ومن جهة أخرى، لدينا فئة من الرجال خُدِّروا بالإباحية إلى حد أنهم أصبحوا — وأحيانًا بصورة دائمة — عاجزين عن إقامة علاقات جنسية مع أشخاص حقيقيين. وباختصار شديد: فإن جيل الإباحية يمارس جنسًا أقل، والجنس الذي يمارسه أسوأ أيضًا — فهو أقل حميمية، وأقل إشباعًا، وأقل معنى.

*****

تسجيل الخروج

نحن ندخل بسرعة إلى عالمٍ تهيمن فيه التكنولوجيا على أكثر جوانب حياتنا حميمية، وهذه التكنولوجيا تصمّمها شركات لا يحرّكها سوى هدف واحد: تحقيق الربح. ويصف الكاتب «فينكاتيش راو» (Venkatesh Rao) هذا العالَم بأنه عالَمٌ «إمّا أن تخبر فيه الروبوتات بما يجب أن تفعل، أو أن تخبرك الروبوتات بما يجب أنت أن تفعله» — فأنت تعيش إمّا فوق الخوارزمية، أو تحتها.[1] وتُعد صناعة الإباحية مثالًا منفّرًا على هذا التسلّط الزاحف، لأن الغالبية العظمى منا تقع، في نهاية المطاف، تحت الخوارزمية لا فوقها.

يوجد في صناعة الإباحية عدد قليل من الأشخاص الأشرار بوضوح — المدراء التنفيذيون في شركة (MindGeek)، الذين يتموضعون بثبات فوق الخوارزمية، ولا يثيرون في نفسي أيَّ تعاطف — لكن يوجد عدد أكبر بكثير من الناس تحت الخوارزمية، أولئك الذين يصعب تحديد وضعهم الأخلاقي. وعلى وجه الخصوص، مستخدمو الإباحية، الذين يشكّلون في آنٍ واحد محرّكات هذه الصناعة وضحاياها: ليسوا ضحايا بقدر الممثلين، بالطبع، لكنهم ضحايا مع ذلك. إنهم عالقون داخل شكل من أشكال الرأسمالية الغرائزية التي تستولي على غرائزنا الأساسية وتفسدها في سبيل الربح. ولا يمكنك نقد الرأسمالية من دون أن تنقد أيضًا أكثر ذريّاتها انحطاطًا: صناعة الإباحية، التي تدمّر عمالَها ومستهلكيها على حدٍ سواء.

1- http://www.ribbonfarm.com/2017/08/17/the-premium-mediocre-life-of-maya-millennial /

ومع ذلك، يفضّل معظم المعادين للرأسمالية أن يصرفوا أنظارهم عن هذا الواقع. بل إن أكثر الدفاعات التزامًا عن الإباحية في أيامنا هذه تأتي من يساريين يعرّفون أنفسهم بأنهم «إيجابيون جنسيًا»، ويزعمون أن أي نقد للصناعة لا بد أن يكون بالضرورة نقدًا للعاملين فيها (ومن الطريف أنهم لا يقدّمون الدفاع نفسه عن الصناعات التي تعتمد على عمالة المصانع الاستغلالية). ويستعين هؤلاء المدافعون، جزئيًا، بجهود الصناعة نفسها لتلميع ممارساتها. فموقع (Pornhub)، على سبيل المثال، يدير حملة علاقات عامة قائمة على التضليل يسمّيها «Pornhub Cares»، تتضمن حملات ضد التلوث البلاستيكي وتدمير موائل النحل والباندا العملاقة (Pornhub يدعو مجتمعنا إلى المساعدة في وضع حيوان الباندا وحمايتها من الانقراض. وكأنهم يقولون: نحن نصنع الإباحية، لكننا نفعل ذلك بطريقة «لطيفة» و«جميلة» و«غير مؤذية»، مثل الباندا.).

لكن الوسيلة الأكثر فاعلية لمواجهة أي نقد موجّه إلى هذه الصناعة هي سردية التحرر الجنسي، المتاحة دائمًا لطمأنة أي مستخدم إباحية يشعر بوخز ضمير أو عدم ارتياح تجاه ما يموّله. فقد قدّمت «كيسي جوردان» (Kacey Jordan)، و«جينا جيمسون» (Jenna Jameson)، و«فانيسا بيلموند» (Vanessa Belmond)، و«ليندا لوفلايس» (Linda Lovelace) نسخًا مختلفة من هذه السردية في ذروة شهرتهن، مجيباتٍ كل مَن يسأل بجملة استخفافية: «بالطبع أنا موافقة». وجميع هؤلاء النساء غيّرن رأيهن لاحقًا، بعد أن استنفدت صناعةُ الإباحية أجسادَهن، وبعد أن كان الضرر قد وقع بالفعل على أبدانهن ونفسياتهن.

إن أخذ امرأة على محمل الجد عندما تقول «بالطبع أنا موافقة» أمرٌ جذّاب لأنه سهل. فهو لا يتطلب منا النظر عن كثب إلى واقع صناعة الإباحية، ولا التفكير بعمق في المدى الذي نكون فيه جميعًا — سواء بفعل الشباب، أو الصدمة، أو السذاجة، أو مزيجٍ معقّد من الثلاثة — قادرين على إيذاء أنفسنا، أو حتى تدميرها. فمن الممكن إلحاق أذى فادح ودائم بـ «إنسان بالغٍ موافِق وراضٍ» يتوسّل إليك أن تمنحه المزيد.

تضع بعض النسويات ثقتهن فيما يُسمّى «الإباحية الأخلاقية»، لكن هذا المنتج الافتراضي لا يخدم إلا تشتيت الانتباه عن حقيقة كيفية عمل صناعة الإباحية فعليًا. فمن جهة، تشكّل الإباحية المُسوَّقة على أنها «أخلاقية» نسبة ضئيلة جدًا وغير شعبية من السوق، إلى حد أن التركيز عليها يشبه — كما قالت الكاتبة النسوية «سارة ديتوم» (Sarah Ditum) — «وضع دجاجة في

حديقة منزلك الخلفية والادعاء بأنك حللت مشكلة الزراعة الصناعية».[1] ومن جهة أخرى، مهما كان وسم «الأخلاقية» المُلصق على فيديو ما، فلا يمكنك النظر إليه والجزم بأن الأشخاص الذين يظهرون فيه كانوا سعداء حقًا بوجودهم هناك. وبالقدر نفسه من الأهمية، لا يمكنك النظر إلى فيديو ومعرفة ما إذا كان الأشخاص الذين فيه لا يزالون سعداء اليوم بأن صورهم منتشرة في العالم. فقد كانت «ليندا لوفلايس» مدافعةً متحمسةً عن صناعة الإباحية أثناء الترويج لفيلم (Deep Throat)؛ ولم تقل إلا بعد سنوات إن المشاهدين كانوا «يشاهدونني وأنا أُغتصَب».

وحتى إذا تنحّينا جانبًا عن ظروف إنتاج الإباحية، فإن المنتَج نفسه يظلّ، في كل الأحوال، ذا أثرٍ مُضرّ على الحياة الجنسية للمستهلك. وقد استخدمت الناقدة النسوية «لورا مولفي» (Laura Mulvey) تعبير «الضيف غير المرئي» لوصف دور المشاهد الذي يراقب أحداث الفيلم، كأنه منسيّ في زاوية الغرفة.[2] وعلى هذا النحو، ينبغي فهم دور مشاهد الإباحية بوصفه دور متلصّص غير مرئي. فالإباحية تدرّب العقل على التعامل مع الجنس بوصفه نشاطًا يُشاهَد وليس علاقةً تُعاش، بل هو متعة فردية تُمارَس أمام شاشة. وهي تنزع عن الجنس الحبّ والمتعة التبادلية، وتحول البشر — على حد تعبير «تيري كروز» (Terry Crews) — إلى «أجزاء جسدية».

وهذه واحدة من تلك المشكلات النادرة التي تمتلك حلًا بسيطًا إلى حدٍّ لافت: الانسحاب. فبغضّ النظر عمّا إذا كانت الدولة تنظّم صناعة الإباحية — كما أعتقد أنه ينبغي لها أن تفعل — يظلّ الفرد محتفظًا بسيطرة كاملة على ما إذا كان يساهم فيها مباشرةً أم لا. ولا يوجد سبب وجيه لاستخدام الإباحية. فالتخلي عنها لا يكلّف المستهلك شيئًا على الإطلاق، وهو أسهل بما لا يُقاس من التخلي عن اللحوم المنتَجة في مزارع المصانع أو عن السلع المصنوعة بعمالة المصانع الاستغلالية؛ لأننا، على الرغم من حاجتنا جميعًا إلى الطعام والملبس، لا يحتاج أيٌّ منا إلى مشاهدة الإباحية مرةً أخرى في حياته. إن سردية التحرر الجنسي تقول لك: واصل. أمّا أنا فأقول لك: لديك التزام بأن تتوقف.

1- https://unherd.com/2020/06/why-doesnt-porn-ever-get-cancelled /
2- Laura Mulvey 'Visual pleasure and narrative cinema' 16/3 (1975): 6–18 .

الفصل السادس:
العنف ليس حبًا

من الجوانب «الممتعة» في ممارسات الجنس العنيف (BDSM) ـــ وهي الممارسات التي تشير إلى طيف من الممارسات الجنسية التي تقوم على التقييد، والسيطرة، والألم، وتبادل أدوار الهيمنة والخضوع ـــ، من منظور تجاري، أنها كثيرًا ما تتطلب معدات. فالمتاجر البريطانية الشهيرة في الشوارع الرئيسية «آن سامرز» (Ann Summers) تعرض حاليًا «طقم تقييد» مكوّنًا من ست قطع مقابل ٦٠ جنيهًا إسترلينيًا، وهو حزمة للمبتدئين تشمل سوطًا جلديًا، وعصابة عينين، وكمّامة كروية، وأصفادًا للكاحلين، وأصفادًا لليدين، وحبلًا. ويمكن أن يُضاف إلى ذلك عشرات المنتجات الأخرى من مجموعة الجنس العنيف (BDSM) لدى متجر «آن سامرز»، بدءًا من مشابك حلمات متعددة السلاسل (١٥ جنيهًا إسترلينيًا) وصولًا إلى أربطة بسيطة على طريقة «الخنزير» (١٠ جنيهات إسترلينية).

وتحمل كثير من هذه المنتجات علامة (Fifty Shades of Grey) التجارية، إذ أتاحت سلسلة الروايات والأفلام فرصةً ذهبية لشركة «آن سامرز» لتوسيع نطاق منتجاتها. ففي عام ٢٠١٧، دعا المتجرُ الرئيسي في مدينة «ماربل آرتش» بلندن الزبائنَ إلى زيارة غرفة في القبو ـــ «الغرفة الحمراء» ـــ مكرّسة لكل ما يتعلق برواية (Fifty Shades). وكان من الممكن العثور فيها على قفص تقييد على هيئة قفص كلب، وسدّادات شرجية بذيول فروية، وقفص قضيب، وهزّاز بقيمة ١٠,٠٠٠ جنيه إسترليني مزوّد بأزرار أكمام متناسقة.[1] مَن كان يظن أن «التحرر الجنسي» يمكن أن يكون مربحًا إلى هذا الحد؟

كانت هذه الحيلة التسويقية منسجمة تمامًا مع روح سلسلة روايات (Fifty Shades)، التي تُثير الشهوة بالثروة بقدر ما تُثيرها بالهيمنة الجنسية. فــ «كريستيان جراي» (Christian Grey)، البطل الرومانسي المضطرب، ساحر ووسيم، ويعرف جيدًا كيف يتعامل مع سدّادة

1- http://www.glamourmagazine.co.uk/article/fifty-shades-red-room-ann-summers

شرجية فروية. وهو أيضًا ملياردير، والمرأة التي تستهدفها عواطفه، «أناستازيا» (Anastasia)، تُغوى بمروحيته من طراز Airbus EC130 بقدر ما تُغوى بسرداب الجنس الذي يسمّيه «الغرفة الحمراء». وبالطبع، إذا أزلنا كل هذه الزينة والمشتتات، فإن ما يفعله «كريستيان جراي» في حقيقته ليس سوى عنف منزلي اعتيادي. فهو يصبح مهووسًا بامرأة أصغر منه بكثير وعذراء، ويكسبها عبر إغراقها بالاهتمام، ثم يسيطر على كل تفاصيل حياتها، من ملابسها إلى الأشخاص الذين يُسمح لها بقضاء الوقت معهم، بل ويملي عليها حتى ما يُسمح لها أن تأكله.

وهنا تكمن المعضلة المقلقة: كثير من النساء أحببن هذا العمل. ليس جميع النساء — فأنا شخصيًا، لا أجد «كريستيان جراي» جذابًا، كما هو حال معظم الصديقات اللواتي تحدثتُ إليهن — لكن بالنسبة لأقلية ليست بالقليلة، فإن الجمع بين العنف المنزلي والثروة الاستعراضية كان مثيرًا للغاية، وبالتالي شديد الربحية: للكاتبة «إي. إل. جيمس» (E. L. James) نفسها، وللناشرين، وصنّاع الأفلام، وبائعي معدات الجنس العنيف (BDSM)، بمن فيهم متاجر «آن سامرز».

وقد فسّرت النسويات الراديكاليات تاريخيًا هذا النوع المقلق من الإثارة بوصفه نتاجًا خالصًا للتنشئة الاجتماعية، المتشبعة بثقافة تمجّد خضوع المرأة وهيمنة الرجل. ومع أن في هذا التفسير قدرًا من الصحة، فإنه لا يفسّر بالكامل شعبية الجنس العنيف (BDSM) بين النساء اللواتي اشترين رواية (Fifty Shades). والحقيقة المؤلمة هي أن أقلية من النساء يجدن الجنس العنيف (BDSM) مثيرًا جدًا، ولا يحتاج المرء إلى البحث بعيدًا ليجد نساء يدافعن علنًا عن هذه الممارسة بوصفها تعبيرًا عن «حريتهن الجنسية». ومن وجهة نظري، فإن تفسيرًا أكثر ترجيحًا — وأكثر إزعاجًا — لهذا السلوك يجب أن يعترف بأن بعض النساء قد جرى تهيئتهن نفسيًا ليجدن سلوك «كريستيان جراي» المسيء مثيرًا، وأن هذا التهيئة ليست نتاج الثقافة وحدها، بل نتاج عوامل بيولوجية أيضًا.

*****

فكرة التملُّك

في الفصل الثاني، تناولنا حقيقة أن هناك فروقًا — بشكل عام — مهمّة بين الرجال والنساء حين يتعلّق الأمر بالجنس. ومن السمات اللافتة في الجنس الأنثوي الانشغالُ بعلامات الولاء العاطفي التي يُظهرها الشريك. وهذا نتيجة منطقية لحقيقة أن المرأة الحامل أو المرضِعة تكون في وضع شديد الهشاشة، وأن فرص بقائها وبقاء طفلها تكون أكبر إذا كان لديها شريك ملتزم وذو موارد كافية. ويمكن للرجل أن يبرهن على أهليته لهذا الدور بطرق متعددة، مثل تقديم الهدايا، وإغداق شريكته بالاهتمام، وإظهار اللطف تجاه الأطفال.

غير أن بإمكانه أيضًا أن يُظهر التزامه بطرق أقل قبولًا. فـ «كريستيان جراي» (Christian Grey) شخصية عنيفة ومسيطرة ووحشية، لكن سلوكه الهوسي تجاه «أناستازيا» (Anastasia) يُظهر، على الأقل، التزامه الثابت بها. وتضفي رواية (Fifty Shades) جمالية السوط والسلاسل الحديدية على هذه العلاقة، غير أن كثيرًا من روايات الرومانسية القديمة تدور حول الدينامية نفسها تقريبًا: الرجل القوي الوسيم الذي يقع في حب البطلة بجنون، ويكون مستعدًا لفعل أي شيء من أجلها، بما في ذلك اللجوء إلى العنف.

في المرة المقبلة التي تزور فيها مكتبتك المحلية، ألقِ نظرة على أغلفة بعض روايات «ميلز وبون» (Mills & Boon)، المكتوبة لجمهور أكبر سنًا وأكثر تقليدية من جمهور رواية (Fifty Shades). فغالبًا ما يُصوَّر الأبطال على أنهم ضخام البنية وذوو عضلات بارزة، ويكونون إما مهنيين ذوي مكانة عالية (كالجراحين مثلًا)، أو مغامرين جوّالين (كالقراصنة أو قطّاع الطرق). صحيح أن هناك تنوّعًا داخل نوع الرواية الرومانسية، وقد يكون الأبطال أكثر أو أقل عدوانية بحسب العمل، لكن ثمة سمة واحدة تظل ثابتة: لم يُثَر قارئات الخيال الجنسي النسائي قط برجل يتمنّع، أو يتذبذب في اهتمامه، أو ينشغل بانتباه نساء أخريات. وقبل زمن طويل من ظهور رواية (Fifty Shades)، كان ما يثير هؤلاء القارئات هو خيال رجل يكون مهتمًا بهن حقًا، وغالبًا على نحو هوسي.

وأحيانًا يُفضي هذا التوق إلى اهتمام غير منقسم إلى تفضيل «العملاق اللطيف» الذي يكون محبًّا وحنونًا تجاه النساء والأطفال وحتى القطط الصغيرة. لكن رغبة المرأة العقلانية تمامًا

في شريك مخلص يمكن، في بعض الحالات، أن تُختطف من قِبل شخصيات على شاكلة «كريستيان جراي»، الذي لا شك في التزامه بـ «أناستازيا»، لكنه في الوقت نفسه مسيطر وخطير.

وتكمن المأساة في أن «كريستيان جراي» الخيالي قد يكون وفيًّا لـ «أناستازيا»، بينما نظيره في الحياة الواقعية غالبًا ما لا يكون كذلك. فمن السهل على امرأة قليلة الخبرة أو مفرطة الثقة أن تخلط بين الغيرة والوفاء، فتنجذب نتيجة ذلك إلى الأبطال العدوانيين في الخيال الجنسي. لكن في الواقع، لا تسير هاتان الصفتان بالضرورة جنبًا إلى جنب.

أما الكاتب المحافظ والطبيب النفسي «ثيودور دالريمبل» (Theodore Dalrymple)، فلم يكن يومًا ممن يكرّرون المسلّمات النسوية، وهو ما يجعل تحليله لديناميكية الغيرة في هذا السياق أكثر مباشرةً وصراحةً. وخلال عمله في مستشفى بمنطقة فقيرة في مدينة برمنجهام بإنجلترا، كان «ثيودور دالريمبل» يواجه باستمرار ضحايا العنف المنزلي ومرتكبيه على حد سواء، ويكتب عن تجارب مرضاه دون أي محاولة لتلطيف عباراته:

> إن الغالبية الساحقة من الرجال الغيورين الذين ألتقي بهم يكونون، على نحوٍ صارخ، غير أوفياء لموضوع عواطفهم المزعومة، وبعضهم يحتفظ بنساء أخريات خاضعات للغيرة والسيطرة نفسها في أماكن أخرى من المدينة، بل وحتى على بُعد مئة ميل. ولا ينتابهم أيُّ شعور بالذنب حيال جعل رجالٍ آخرين «مخدوعين»، بل إنهم يستمتعون بذلك فعلًا بوصفه وسيلة لتعزيز ذواتهم الهشّة. ونتيجة لذلك، يتخيّلون أن جميع الرجال الآخرين منافسون لهم، لأن التنافس علاقة متبادلة بطبيعتها. وهكذا، فإن مجرد نظرة في حانة موجَّهة إلى صديقة رجلٍ ما قد تكون كافية لإشعال شجار، لا بين الفتاة وعشيقها فحسب، بل — وقبل ذلك — بين الرجلين.[1]

أما النساء اللواتي يدخلن في علاقات مع مثل هؤلاء الرجال، فيكتب «ثيودور دالريمبل» (Theodore Dalrymple) عن غريزةٍ لإيذاء الذات لا يُعترف بها كثيرًا في الخطاب النسوي، لكنها مألوفة على الأرجح لكل من عمل مع ضحايا العنف المنزلي:

1- Theodore Dalrymple, Life at the Bottom: The Worldview that Makes the Underclass. Chicago: Ivan R. Dee, 2001, pp. 75–6.

ولكن لماذا لا تترك المرأةُ الرجلَ فور أن يُظهر عنفه؟ السبب هو أن العنف، على نحوٍ منحرف، هو العلامة الوحيدة التي تملكها على التزامه بها. وكما أنه يريد امتلاكها جنسيًا على نحوٍ حصري، فهي تريد علاقةً دائمةً معه. وهي تتخيّل — على نحوٍ خاطئ — أن لكمةً في الوجه أو يدًا خانقةً على الحلق تمثّل، على الأقل، إشارة إلى استمرار اهتمامه بها، وهي الإشارة الوحيدة — باستثناء الجماع الجنسي — التي يُحتمل أن تتلقّاها في هذا الشأن. وفي غياب مراسم الزواج، تصبح آثار الضرب على جسد المرأة سندَه التعهدي بالحب، والإكرام، والرعاية، والحماية.[١]

وفي هذا الفصل، أجادل بأن الجنس العنيف (BDSM) ليس سوى نسخة مُقنَّنة ومُشرعَنة حديثًا من ديناميكية سامة شائعة جدًا بين الرجال والنساء. فعلى الرغم من أن الهيمنة الجنسية لـ «الخاضعين» (subs) من قِبل «المهيمنين» (doms) قد أُلبِست مسحة ثقافةٍ مضادّة في العقود الأخيرة، فإنها في الواقع قديمة قِدم الزمن. وكما سنرى، فقد سعى المتحمسون للجنس العنيف (BDSM) جاهدين إلى تقديم ميولهم الجنسية بوصفها وسيلة لتقويض الوضع القائم، لكنها في الحقيقة لا تفعل شيئًا من هذا القبيل. فانتشار الجنس العنيف (BDSM) خدم، أولًا، حماية مصالح الرجال الذين يرغبون في ضرب النساء والإفلات من العقاب، وثانيًا، حقق أرباحًا طائلة لصناعة الإباحية ولمصنّعي الملابس الجلدية الرديئة. وبعبارة أخرى، فإن الجنس العنيف (BDSM) مفيد للرجال المسيئين، ومفيد لرأس المال. وهو لا يقوّض شيئًا.

وغالبًا ما يركّز التصوير الشائع للجنس العنيف (BDSM) على علاقة محددة وغير مألوفة، يدفع فيها رجل أعمال ثري لامرأة مهيمنة مقابل جلسات جلد منتظمة. وهذه العلاقات موجودة فعلًا، كما أن ديناميكياتها المعاكسة للحدس على نحوٍ لافت تجعلها جذابة لكتّاب السيناريو والصحافيين، لكنها ليست النمط السائد.

فمعظم «الخاضعين» (subs) نساء، ومعظم «المهيمنين» (doms) رجال. وقد وجدت دراسة أُجريت عام ٢٠١٣ على مشاركين في منتدى إلكتروني للجنس العنيف (BDSM) أن ٣٤٪ فقط من الرجال كانوا يفضّلون باستمرار موقع الخضوع، في حين أن نسبةً أصغر بكثير من

١- المصدر السابق، ص ٧٨

النساء، ٨٪، عرّفن أنفسهن على أنهن مهيمنات.[1] كما وجدت الدراسة نفسُها أن المهيمنين يميلون إلى انخفاض سمة «التوافق» في الشخصية، ما يعني أنهم أكثر جمودًا وتطلبًا. أما الخاضعون، فعلى النقيض، فكانوا يميلون إلى أن يكونوا أعلى من المتوسط في التوافق، أي أكثر ميلًا لإرضاء الآخرين. وتضع هذه النتائج موضع تساؤل الفكرة القائلة إن الناس ينجذبون إلى أدوار الجنس العنيف (BDSM) التي تخالف ميولهم الطبيعية؛ بل يبدو أن العكس هو الصحيح. ففي أغلب الأحيان، يظل المهيمنون مهيمنين خارج غرفة النوم (أو سرداب الجنس)، ويظل الخاضعون خاضعين. وفي العالم الواقعي، لا يتحدى الجنس العنيف (BDSM) الهيمنة الجنسية للرجال على النساء — بل يعزّزها.

*****

المرأة السَتكليفية[2]

لكن هذا، يؤسفني أن أقول، ليس الرأي النسوي المهيمن في القرن الحادي والعشرين. ولم يكن حتى الرأي المُجمَع عليه في سبعينيات القرن العشرين، حين كانت النسوية الراديكالية في أوج نفوذها. ففي النص المؤثّر «المرأة السادية» (The Sadeian Woman)، المنشور عام ١٩٧٨ مثلًا، حاولت «أنجيلا كارتر» (Angela Carter) القيام بتفكيك أدبي لكتابات الجدّ الروحي للجنس العنيف: «الماركيز دي ساد» (Marquis de Sade)، الأرستقراطي الفرنسي الذي سُمّيت «السادية» باسمه. ومنغمسةً في الأسلوب التحليلي النفسي الذي كان رائجًا آنذاك، رأت «كارتر» في أعمال ساد نوعًا من النسوية البدائية، ووصفت «صانع الإباحية» — الذي يُعدّ «ساد» مثالَه الأبرز — بأنه «حليف غير واعٍ» للنساء، «لأنه يبدأ في الاقتراب من نوعٍ ما من الحقيقة الرمزية».[3] ويأتي كتاب (The Sadeian Woman) ضمن تاريخ طويل ومؤسف لنسويات قدّمن متعتهنّ الفكرية الخاصة على واجبهنّ في الدفاع عن مصالح النساء والفتيات.

1- Andreas Wismeijer and Marcel van Assen, ‘Psychological characteristics of BDSM practitioners’, Journal of Sexual Medicine 10 (2013): 1943–52.

٢- لا يتعجب القارئ من هذا العنوان، فلن يفهمه إلا بعد قليل. (المترجم)

3- Angela Carter, The Sadeian Woman: An Exercise in Cultural History. London: Virago, 1979 [Kindle edn, location 360.

وليست «كارتر» وحدها من مجّد السيد «الماركيز دي ساد»؛ فمنذ نشر كتاب (The Sadeian Woman) انضمّت إليها كثيراتٌ من النسويات «الإيجابيات جنسيًا» اللواتي تحمّسن لاستعادة العنف الجنسي بوصفه ممارسة يمكن تأطيرها لمصلحة النساء. كما أن هناك عددًا كبيرًا من الرجال الذين استمتعوا تاريخيًا بأعمال «ساد». فقد أعاد «جوستاف فلوبير» (Flaubert) و«شارل بودلير» (Baudelaire) اكتشاف كتاباته في القرن التاسع عشر، وفي عشرينيات القرن العشرين انجذب السرياليون، ومن بينهم «مان راي» (Man Ray) و«أندريه بريتون» (André Breton) و«سلفادور دالي» (Dalí)، إلى دعوة «ساد» إلى الحرية الجنسية المطلقة.[١]

وكان هؤلاء المتمرّدون بعيدين كل البعد عن التيار السائد في زمنهم، بل إنهم واجهوا صعوبةً حقيقيةً في الحصول على نسخٍ من كتب «ساد»، نظرًا إلى أنها كانت محظورة في فرنسا حتى عام ١٩٥٧.[٢] لكن في ستينيات القرن العشرين أصبحت أعمال «ساد» متاحةً على نطاق واسع، واكتسبت هالةً جديدة من الجاذبية. ويرى «جونزاج سان بري» (Gonzague Saint Bris)، مؤلف سيرة حديثة عن «ساد»، أن تأثيره كان حاضرًا في الثورة الجنسية في ستينيات القرن العشرين.[٣] وبصفته شابًا في العشرين من عمره خلال اضطرابات الطلاب في باريس في مايو ١٩٦٨، يستعيد الكاتب «سان بري» الذكرى قائلًا:

> كنت أنظر إلى جميع اللافتات، أقرأ: «ممنوع أن تُمنَع الأشياء»، و«افعل ما تشاء». وفجأة أدركت أن شعاراتنا الثورية كانت في الحقيقة مستمدة من ساد. وبدأت أرى شبحًا يرتدي شعرًا مستعارًا مُغبّرًا يقف على المتاريس إلى جانبي![٤]

ولا يزال «ساد» يحتفظ اليوم بسمعة «أنيقة» في بعض الأوساط، إلى حدّ أن أحد أحفاده الأحياء، «كونت دي ساد» (Count de Sade)، استطاع استثمار اسم العائلة لإنتاج خطّ من السلع الفاخرة تحت علامة (Maison de Sade)، شملت النبيذ والشموع المعطّرة، بل و— احتفاءً بالذكرى المئوية الثانية لوفاته — تمثالًا نصفيًا لـ «ساد» بيع بسعر ٥,٧٠٠ دولار أمريكي. وفي

1- http://www.smithsonianmag.com/history/who-was-marquis-de-sade-180953980/?all

٢- المصدر السابق

3- Gonzague Saint Bris, Marquis de Sade: l’ange de l’ombre. Paris: Editions Télémaque, 2013

4- Perrottet, 2015 .

تلك السنة نفسها، نظّمت عدة متاحف باريسية مرموقة معارض لإحياء ذكرى حياة «ساد» وأعماله.[1]

وبقدر ما أستطيع أن أقدّر، فإن جميع هؤلاء المدافعين البارزين عن «ساد» يدركون تمامًا ما كان عليه سلوكه في حياته الواقعية: أنه سَجَنَ واغتصبَ وعذَّبَ عددًا كبيرًا من النساء البغايا والخادمات، من بينهن أطفال عدة، وأن هؤلاء الضحايا لم يوافقن قطعًا على ما تعرّضن له، بل أبلغن السلطات بذلك فور تمكّنهن من الفرار.

ومنذ سن السابعة والثلاثين، أمضى «ساد» جزءًا كبيرًا من حياته في السجن، ولم يعد قادرًا على تنفيذ خيالاته العنيفة إلا على الورق. وفي عمله الأشهر «١٢٠ يومًا من السادية» (120 Days of Sodom)، ينسج «ساد» خيالات تقوم على رعب كراهية النساء. ولو كان حرًّا، فمن المرجّح أن مغامراته الجنسية العنيفة وخيالاته القاتلة كانت ستتصاعد في نهاية المطاف إلى جرائم قتل فعلية، وأن ضحاياه كانوا سيُعثر عليهم بين النساء والأطفال الفقراء أنفسهم الذين اضطهدهم في السنوات التي سبقت سجنه. وقد يضفي عليه سياقه في القرن الثامن عشر مسحة من الغرابة، لكنه في جوهره لا يختلف عن أي معتدٍ جنسي معاصر لديه ولع بالتعذيب والتشويه. وربما كان الأجدر بـ «أنجيلا كارتر» أن تكتب نشيدًا لـ «سفّاح يوركشاير» (Yorkshire Ripper) وتُطلق عليه عنوان (The Sutcliffean Woman).[2]

قد تكون نسويات مثل «كارتر» قد انخدعن بالغموض القاتم الذي أحاط بـ «ساد»، لكن «أندريا دوركين» (Andrea Dworkin) لم تكن كذلك. ففي كتاباتها عام ١٩٧٩، رأت «دوركين» «ساد» على حقيقته: مختلًّا نفسيًا من طبقة أرستقراطية، استخدم جنسه وثروته وسلطته ليصل إلى أجساد الفقراء، فكتبت تقول:

> على أولئك اليساريين الذين يدافعون عن «ساد» أن يتذكّروا أن فرنسا ما قبل الثورة كانت تعجّ بالجياع. كان النظام الإقطاعي قاسيًا وفجًّا في آنٍ واحد. وكانت حقوق

---

1 Leland de la Durantaye, 'Who whips whom' London Review of Books, 19 February 2015.

٢- لا يمكن فهم هذه العبارة على وجهها الصحيح إلا مع شيءٍ من الشرح. فقد ألّفت السيدة «أنجيلا كارتر» كتابًا بعنوان The Sadeian Woman (المرأة السادية)، قدّمت فيه قراءةً تميل إلى تمجيد «ساد» وأعماله التي كانت عنيفة ضد المرأة. ومن هنا تقول الكاتبة إن مدح «ساد» والاحتفاء به لا يختلف كثيرًا، من حيث الموقف الأخلاقي، عن تمجيد قاتلٍ متسلسل معاصر مثل «سفّاح مدينة يوركشاير»، واسمه «بيتر ساتكليف» (Peter Sutcliffe). فإذا كان من المقبول أن يُكتب كتاب بعنوان «المرأة السادية» احتفاءً بالمجرم «ساد»، فلماذا لا يُمجَّد هذا السفاح أيضًا بكتابٍ افتراضي بعنوان The Sutcliffean Woman (المرأة الساتكليفية) نسبةً إلى «بيتر ساتكليف»؟ (المترجم)

> الأرستقراطية في عمل الفقراء وأجسادهم حقوقًا غير مطعون فيها وغير قابلة للطعن. وكان طغيان الطبقة مطلقًا. وكان الفقراء يبيعون كل ما استطاعوا بيعه، بما في ذلك أنفسهم، من أجل البقاء. لقد تعلّم ساد أخلاقيات طبقته، وحافظ عليها.[1]

وفي أحد أيام عيد الفصح عام ١٧٦٨، صادف «ساد» إحدى ضحاياه، وهي أرملة تُدعى «روز كيلر» (Rose Keller)، بينما كانت تتسوّل في شوارع باريس بعد أن أصبحت معدمة عقب وفاة زوجها. عرض عليها عملًا كمدبّرة منزل، فاصطحبها إلى بيته، حيث جلدها وألحق بها إصابات بالغة. وقالت «كيلر» لاحقًا إنها كانت تعتقد أن «ساد» سيقتلها، وإنها حين تمكّنت من الهرب من منزله ركضت نصف عارية، مذعورة، حتى وجدت ملجأً لدى بعض النساء المحليات، اللواتي قمن بإبلاغ الشرطة.

وليس من قبيل المصادفة أن تكون «كيلر» فقيرة. وليس من قبيل المصادفة أن يتمكّن «ساد» من تفادي السجن عبر رشوتها بالتراجع عن القضية. وليس من قبيل المصادفة أيضًا أن يختطفها في يوم عيد الفصح، إذ كان «ساد» يُثار بازدراء الدين تقريبًا بقدر ما كان يُثار بكراهية النساء، وقد أسهم هذا النزوع المعادي لرجال الدين إسهامًا كبيرًا في رفع مكانته بين المثقفين الملحدين في العصر الحديث. وبالنسبة لهؤلاء المثقفين، تُمحى ضحايا «ساد» من المشهد — يُختزلن في خادمات وعاهرات، ميتات منذ زمن — بينما يُمجَّد تمرّده على الأعراف المحافظة لعصره.

وقد أصابت السيدة «دوركين» كبد الحقيقة حين كتبت عن «الحرية» التي يمثّلها «ساد» لمعجبيه قائلةً:

> لقد عانى «ساد» — في نظر معجبيه — لأنه أقدم على أفعالٍ تعبّر عن رغباتٍ مكبوتة تتمنّى «أنت» أن تمارسها، ولذلك سُجن كما قد تُسجن «أنت» لو فعلت الشيء نفسه. غير أن هذا «الأنت» المقصود هنا ليس الإنسان عمومًا، بل الرجل تحديدًا. فالحرية التي يُنسب إلى «ساد» السعي إليها ليست حرية إنسانية شاملة،

1- Andrea Dworkin, Pornography: Men Possessing Women. New York: E. P. Dutton, [1979] 1989, p. 79

بل حرية تُصاغ وفق تصوّر ذكوري يبرّر إشباع رغبات الرجال، حتى حين تقوم على إيذاء النساء وإخضاعهن.

*****

الخنق

ليت تحليل «أندريا دوركين» (Andrea Dworkin) هو الذي انتصر في نهاية المطاف. غير أن الواقع، للأسف، هو أنه بين معظم نسويات القرن الحادي والعشرين، كانت الغلبة لرؤية «كارتر». فالحرية الذكورية التي يجسّدها «ساد» — حرية الإيذاء، والإهانة، والإذلال — أصبحت متاحة للتجربة لدى الرجال والنساء على حد سواء في ثقافتنا الجنسية «المتحررة» حديثًا، ولكن مع تعديل واحد فحسب: فبعكس طريقة «ساد»، يُطلب من الساديين اليوم السعي إلى الحصول على الموافقة الجنسية. وهذا، كما يُقال لنا، هو ما يُحدث الفارقَ كلَّه.

وتقدّم «روكسان جاي» (Roxane Gay)، على سبيل المثال، في كتابها الأكثر مبيعًا «النسوية السيئة» (Bad Feminist) توجيهًا يبدو للوهلة الأولى بسيطًا وواضحًا:

> بالنسبة للأشخاص الذين يستمتعون بالعنف الجنسي، هناك أمر يُسمّى «الموافقة» (consent)، وهو ما ينبغي أن يكون حاضرًا دائمًا في التفاعلات الإنسانية، لكنه يصبح بالغ الأهمية عندما تضع جسدك وعقلك في عهدة شخص آخر بهذه الطريقة. يمكنك أن تقول: «أريدك أن تؤذيني»، أو «أريدك أن تذلّني»، أو «أريدك أن تهيمن عليّ»، وسيقوم شخص آخر بذلك. لكن — وهذا هو المهم — عندما تقول، بأي صيغة كانت، «توقّف»، فإن الألم أو الإذلال أو الهيمنة تتوقف فورًا، من دون أي أسئلة.[١]

و«روكسان جاي» نفسها من مؤيّدي العنف الجنسي (BDSM)، وفي مجموعة قصص قصيرة حديثة لها عن هذا الموضوع، تكتب عن رجل يجد متعةً في صفع زوجته، وخنقها بحزام،

1- Roxane Gay, Bad Feminist. New York: HarperCollins, 2014, p. 184.

وتشويه ظهرها بشفرة حلاقة.[1] وفي نهاية القصة نكتشف أن الرجلَ متحولٌ جنسيًا، وهو ما يُفترض أنه يغيّر طبيعة الجنس المسيء داخل العلاقة.

ومن بين جميع الأفعال الجنسية المرتبطة بالعنف الجنسي (BDSM)، يُعدّ الخنق اليوم الأكثر شيوعًا، وكذلك الأكثر تمييزًا جندريًا. ففي المواد الإباحية، يخنق الرجال رجالًا، ويخنق الرجال نساءً، لكن النساء نادرًا جدًا ما يكنّ هنّ من يمارسن الخنق. كما أن الخنق خارج سياق الجنس هو بدوره فعل شديد التحيّز الجندري، إذ إن الغالبية الساحقة من الضحايا نساء، والغالبية الساحقة من الجناة رجال. وقد وجدت دراسة أُجريت في مدينة سان دييجو أن من بين ٣٠٠ سجلٍّ جنائي يتعلّق بالخنق، كان ٢٩٨ منها يتضمن رجلًا يخنق امرأةً. وهو جُرمٌ كثيرًا ما يتعرّض له ضحايا العنف المنزلي، ومعظمهم من النساء.

وتفيد مؤسسة «ريفيوج» (Refuge)، وهي جمعية بريطانية معنية بالعنف المنزلي، بأن ٤٨٪ من النساء اللواتي يستخدمن خدماتها أبلغن عن تعرّضهن للخنق أو كتم النفس أو الاختناق، وأن النساء اللواتي سبق أن تعرّضن للخنق على يد شركائهن يكنّ أكثر عرضة للقتل على أيديهم بثماني مرات، وغالبًا عبر الخنق، إذ يُعدّ هذا ثاني أكثر طرق القتل شيوعًا التي يستخدمها الرجال ضد النساء في المملكة المتحدة.[2]

وعند التصفّح المتكرر لما يُسمّى «إباحية الخنق»، ورؤية صورة تلو الأخرى لرجال يضعون أيديهم حول أعناق النساء، قد يُعذَر أي شخص غير متمرّس في أيديولوجيا النسوية الليبرالية إذا لم يرَ في ذلك سوى عنفٍ ذكوري اعتيادي ضد النساء — وهو النوع من العنف الذي يُفترض أن النسويات متّفقات على معارضته.

ولم يظلّ هذا الاتجاه حبيس عالم الإباحية. فقد أظهرت أبحاث أجرتها شركة (ComRes) عام ٢٠١٩ أن أكثر من نصف النساء في المملكة المتحدة، ممن تتراوح أعمارهن بين ١٨ و٢٤ عامًا، أفدن بتعرّضهن للخنق من قِبل شركائهن أثناء الجنس، مقارنة بنسبة ٢٣٪ فقط من النساء في الفئة العمرية الأكبر التي شملها الاستطلاع، بين ٣٥ و٣٩ عامًا.[3] وقد أفادت كثيرات من

1- In Garth Greenwell and R. O. Kwon, eds, Kink: Stories. New York: Simon & Schuster, 2021.
2- http://www.theguardian.com/society/2020/nov/22/if-im-not-in-on-friday-i-might-be-dead-chilling-facts-about-uk-femicide
3- http://www.bbc.com/news/uk-50546184

المشاركات بأن هذه التجربة كانت غير مرغوبة ومخيفة، في حين ذكرت أخريات أنهن وافقن عليها، أو حتى بادرن بطلبها.

وهنا تكمن المعضلة؛ إذ ليس من الصعب العثور على نساء يقلن إنهن يحببن التعرّض للخنق، وهؤلاء النساء الراضيات — فتيات في الواقع، كثيرات منهن — يُبرزن بوصفهن نماذج يُحتجّ بها من قبل المدافعين عن شيوع الخنق الجنسي. والحجة التي يقدّمها النسويون الليبراليون، مثل «روكسان جاي»، هي أنه طالما أن بعض النساء يستمتعن بالخنق، فمن الخطأ إدانة الخنق بحد ذاته؛ وإنما الخنق غير القائم على الموافقة وحده هو ما يستحق الإدانة. وهي، في جوهرها، الحجة نفسها التي واجهناها سابقًا في هذا الكتاب: «مع وجود الموافقة، كل شيء مباح».

في يوليو ٢٠٢٠، على سبيل المثال، نشرت مجلة (Men's Health) تقريرًا بعنوان: «لعبة التنفّس هي شكل شائع من العنف الجنسي (BDSM). إليك كيفية ممارستها بأمان».[١] وعندما انتقدت عضوة البرلمان «لورا فاريس» (Laura Farris) المقال بوصفه معاديًا للنسوية، واجهت موجةً عارمةً من الهجوم على تويتر، جاء معظمها من شابات أصررن على أن الخنق القائم على التراضي يمكن أن يكون شكلًا غير مؤذٍ من أشكال الممارسات الجنسية غير التقليدية. وانضمّت «جيجي إنجل» (Gigi Engle)، وهي كاتبة في شؤون الجنس لدى نفس المجلة (Men's Health)، إلى منتقدي «لورا فاريس»، فغرّدت قائلة: «لا يا لورا، يا عزيزتي، يمكن أن يكون الخنق فعلًا جنسيًا ممتعًا جدًا عندما يُمارَس بأمان وبالتراضي.»[٢]

لكن «إنجل» مخطئة في هذا الشأن. إذ تكشف دراسة مقلقة نُشرت عام ٢٠٢٠ عن الطيف الواسع من الإصابات التي يمكن أن يسبّبها الخنق غير القاتل، بما في ذلك توقّف القلب، والسكتة الدماغية، والإجهاض، واضطرابات النطق، والنوبات، والشلل، وأشكال أخرى من إصابات الدماغ طويلة الأمد.[٣] ورغم أن قتل شخص بالخنق قد يستغرق عدة دقائق، فإن فقدان الوعي أو «الإغماء نتيجة الخنق» يمكن أن يحدث خلال ثوانٍ، وهو يشير دائمًا على الأقل إلى إصابة دماغية خفيفة. وتذكر الدكتورة «هيلين بيتشارد» (Helen Bichard)، المؤلفة الرئيسية للدراسة، أن الإصابات

1- https://www.menshealth.com/sex-women/a33382089/breath-play-erotic-asphyxiation-bdsm /
2- https://twitter.com/GigiEngle/status/1286391789352620044
3- Helen Bichard, Christopher Byrne, Christopher W. N. Saville and Rudi Coetzer, 'The neuropsychological outcomes of non-fatal strangulation in domestic and sexual violence: a systematic review ' , Neuropsychological Rehabilitation, 12 January 2021.

الناجمة عن الخنق قد لا تكون مرئية للعين المجرّدة، أو قد لا تظهر إلا بعد ساعات أو أيام من الاعتداء، ما يجعلها أقل وضوحًا بكثير من إصابات مثل الجروح أو كسور العظام، وبالتالي قد لا تُكتشف أثناء التحقيقات الشرطية.

وترفض «هيلين بيتشارد»، استنادًا إلى أسس طبية، فكرة أن الخنق يمكن أن يُمارَس بأمان في أي ظرف، واصفةً ذلك بأنه خرافة شائعة، قائلة: «لا أستطيع أن أرى طريقةً آمنةً للإمساك بالرقبة من دون الضغط على أيِّ بُنىً جسدية هشّة».[١] وبالنظر إلى العواقب المحتملة للخنق — التي لم يكن يُفهم منها إلا القليل حتى وقت قريب — تجادل «هيلين بيتشارد» بأن الغالبية العظمى من غير المختصين غير قادرين على إعطاء موافقة واعية حقًا على هذه الممارسة.

كما أخطأ مقال مجلة (Men's Health) في نقطة أخرى، حين افترض أن الخنق يُعدّ مثيرًا أساسًا لأن «قطع إمداد الأكسجين عن الدماغ يمكن أن يسبّب شعورًا بالدوار». فهذه المحاولة الطبية–الحيوية لتفسير شيوع الخنق الجنسي شائعة وجذّابة في بساطتها، لكنها تتجاهل عاملًا جوهريًا. صحيح أن هوس الاختناق الذاتي الجنسي يثير اهتمام بعض الرجال، ومن حين لآخر يُعثر على رجال لديهم اهتمام جنسي بالخنق وقد لقوا حتفهم بعدما قتلوا أنفسهم عرضًا أثناء جلسة استمناء أُسيء تقديرها.[٢]

لكن الهوس بخنق النفس يكاد يكون معدومًا بين النساء، إلى درجة أنني لم أتمكن من العثور على حالة واحدة في المملكة المتحدة لامرأة توفيت عرضًا أثناء محاولة فاشلة للاختناق الذاتي الجنسي، مع الاستثناء اللافت لامرأة تبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا تُدعى «هوب باردن» (Hope Barden)، التي توفيت عام ٢٠١٩ بعدما دُفِع لها المال لتعليق نفسها أمام كاميرا ويب من قِبل «جيروم دانجر» (Jerome Danger)، وهو ساديٌّ جنسي مهووس بالإباحية المتطرفة.[٣]

وإذا كان صحيحًا فعلًا أن النساء ينجذبن إلى الخنق بسبب النشوة الناتجة عن حرمان الأكسجين، فلماذا لا يقمن بخنق أنفسهن بمفردهن، بل يطلبن من شركائهن الذكور أن يفعلوا

1- Interview with Helen Bichard, 30 July 2020.

2- http://www.hindawi.com/journals/crips/2016/5474862 /

3- https://metro.co.uk/2019/06/26/webcam-girl-21-died-pervert-paid-strangle-watched-online-10077321/?ito=cbshare

ذلك لهن؟ والإجابة واضحة بما يكفي: لأن هؤلاء النساء لا يبلغن النشوة من نقص الأكسجين، بل من لعبة القوة ذاتها.

ومن المؤسف أن الصور المتداولة أو التي تحظى بالإعجاب من قبل النساء على وسائل التواصل الاجتماعي، والنقاشات بين النساء على منصات مثل ريديت وتويتر، والشهادات التي سمعتها مباشرة من عدد كبير من الشابات، كلها تشير إلى أن كثيرًا من النساء اللواتي يسعين إلى الخنق يحملن فهمًا خاصًا للغاية — ومضللًا للغاية — لما يعنيه الخنق عندما يفعله الرجال بهن أثناء الجنس.

وبصراحة فجة، فإن كثيرًا من هؤلاء النساء واقعات في الوهم بقدر ضحية العنف المنزلي التي وصفها «ثيودور دالريمبل» (Theodore Dalrymple) في وقت سابق من هذا الفصل، والتي «تتخيّل — خطأً — أن لكمة في الوجه أو يدًا حول العنق هي على الأقل علامة على استمرار اهتمامه بها». فهن يعتقدن أن الخنق يدل على حب الرجل، وشغفه، ورغبته فيهن. غير أنه في أغلب الأحيان لا يدلّ على أيٍّ من هذه الأشياء. بل، وفي ثقافة يُنكر فيها بشكل روتيني وجود فروق بين الجنسانية الذكورية والأنثوية، ولا سيما من قبل النسويات الليبراليات، لا ينبغي أن يفاجئنا أن كثيرًا من هؤلاء الشابات يستلهمن من الخيال الجنسي مثل رواية (Fifty Shades)، ويسيئن تفسير عدوان شركائهن الذكور بوصفه علامة على الشغف، دون أن يدركن أن «كريستيان جراي» الحقيقيين في الحياة الواقعية لا يملكون عادة أي اهتمام يُذكر برفاه النساء اللواتي — باستخدام تعبير إباحي بغيض — «ينكحونهن بدافع الكراهية».

والدكتور «سكوت هامبتون» (Scott Hampton) هو أخصائي علم نفس سريري ومدير منظمة «إنهاء العنف» (Ending the Violence)، وهي منظمة أمريكية ملتزمة بمعالجة العنف القائم على النوع الاجتماعي. وقد أمضى «هامبتون» أكثر من ثلاثين عامًا في إدارة برامج علاج الجناة داخل السجون الأمريكية، وجمع سلسلة طويلة ومحبِطة من روايات مرتكبي العنف المنزلي، ناقش بعضهم فيها أسباب خنقهم لشريكاتهم أثناء الجنس.[١] وتوفّر هذه الروايات فهمًا أكثر صراحة ووضوحًا لدوافع الرجال الذين يخنقون النساء مما يمكن لأي خيال جنسي أن يقدّمه.

فمرضى «هامبتون» لا يخنقون بدافع الحب أو بدافع الرغبة في زيادة متعة شريكاتهم. إنهم يفعلون ذلك لإظهار مقدار قوتهم: «لا توجد طريقة أفضل لجذب انتباهها الكامل، خاصة

---

[١] http://www.endingtheviolence.us/articles.html

عندما تدرك أنني أستطيع إنهاء حياتها في لحظة، حرفيًا»، يقول أحد الرجال. «نظرة الرعب في وجهها تعطي اندفاعًا هائلًا. لا تستطيع إلا أن تنظر إليك. أنت هنا تمامًا»، يقول آخر. وبالنسبة لرجلٍ ذي شخصية هشّة، يمكن أن يكون الخنق مغريًا بوصفه وسيلة لاستعراض القوة المطلقة والهيمنة على امرأة تُجبَر عندئذٍ على النظر مباشرة في عينيه.

*****

لا يمكن الموافقة على هذا

حتى لو سلّمنا بالادعاء النسويّ الليبرالي القائل بإمكانية أن يوافق شخصٌ ما، بصدقٍ وبمعنى حقيقي، على أن يتعرّض للخنق على يد شريكه الجنسي، فإننا نظلّ أمام معضلةٍ أساسية: كيف يُفترض بالقانون أن يميّز بين حالات العنف الجنسي القائم على التراضي وتلك غير القائم عليه؟ وتُبرز قضية «إيمِت» (Emmett)، وهي سابقة قضائية إنجليزية تعود إلى عام ١٩٩٩، صعوبة هذا التمييز. فقد انطوت القضية على رجلٍ سكب سائل الولاعة على ثديي شريكته ثم أشعل النار فيهما، متسبّبًا لها بحروق من الدرجة الثالثة. لجأت المرأةُ إلى طبيبها العام لعلاج الإصابة، ولأن الطبيب — مشتبهًا في وجود عنفٍ منزلي — اتخذ خطوةً غير مألوفة بانتهاك سرية العلاقة بين الطبيب والمريض، فقد قدَّم بلاغًا إلى الشرطة. وعندما وصلت القضيةُ إلى المحكمة، رفضت المرأةُ الإدلاء بشهادتها، فيما أصرّ شريكُها على أنها كانت قد وافقت على كل ما فعله.

فما الذي يُفترض بالمحكمة أن تفعله في مثل هذه الحالة؟ يوضّح «جوناثان هيرينج» (Jonathan Herring)، أستاذ القانون في جامعة أكسفورد، ذلك قائلًا:

> في القضايا التي يُتَّهم فيها معتدٍ منزلي بالاعتداء على شريكته مع وجود إصابات مثبتة، فإن تفسير هذه الإصابات بوصفها ناتجة عن سادية أو مازوخية رضائية يُعدّ أحد الدفوع القليلة المتاحة له. وإذا كانت الضحية خائفة إلى حدٍّ يمنعها من الإدلاء بشهادتها، فإن هذا الدفاع يصبح صعب الدحض بالنسبة للمحامين.[١]

1- Jonathan Herring, ‘R v. Brown (1993)’, in Philip Handler, Henry Mares and Ian Williams (eds), Landmark Cases in Criminal Law. Oxford: Hart, 2017, pp. 348–9

وحتى لو كانت الضحية في قضية «إيمِت» (Emmett) مستعدة للإدلاء بشهادتها، ودعمت رواية شريكها، فقد تظلّ المحكمةُ مترددةً في الجزم بأن موافقتها كانت حرّة فعلًا. وكما يشير «هيرينج»: «توجد روابط مقلقة بين الحالات التي يسعى فيها المعتدي إلى السيطرة على ضحيته وعلى كل جانبٍ من حياتها، والحالات التي يسعى فيها المهيمن في الجنس العنيف إلى فرض السيطرة على الشخص الخاضع». فمن منظورٍ خارجي، تبدو علاقة الجنس العنيف (BDSM) رضائية وعلاقة إساءةٍ أو عنف متطابقتين تمامًا، ولذلك إذا أُصيبت «الخاضعة» أو قُتلت أثناء لقاءٍ جنسي، وادّعى «المسيطر» أن ما حدث كان حادثًا عرضيًا، فكيف يُفترض بالمحاكم أن تميّز بين الحالتين؟

وهذه ليست مشكلة نظرية فحسب. فحملة «لا يمكننا الموافقة على هذا» (We Can't Consent to This)، التي عملتُ عليها، وثّقت سبعةً وستين حالة في المملكة المتحدة قُتل فيها أشخاص، وادّعى قاتلوهم أن الوفيات كانت نتيجة «لعبةٍ جنسية خرجت عن السيطرة». وحتى الآن، كان جميع المشتبه بهم في هذه الجرائم من الذكور، وكانت ستون من الضحايا من الإناث. وقد توفي معظم الضحايا اختناقًا، رغم أن أقليةً ملحوظة عانت صدمات تناسلية خطيرة. وكان أغلب الضحايا زوجاتٍ أو صديقاتٍ للجناة، وغالبًا ما وُجدت أدلة على عنفٍ منزلي. أما نساءٌ أخريات فلم يكنّ قد التَقَين بالجناة إلا في ذلك اليوم نفسه، وكان عددٌ كبير من الضحايا منخرطًا في تجارة الجنس.

وتكشف البيانات التي جمعناها عن اتجاهين لافتين. أولًا، ارتفع عدد قضايا «الجنس العنيف» ارتفاعًا ملحوظًا منذ مطلع هذا القرن. وثانيًا، بات المتهمون الذين يعتمدون على هذا الدفاع في المحاكم والقضاء يحققون نجاحًا متزايدًا، إذ تنتهي قرابة نصف قضايا القتل هذه اليوم من دون إدانةٍ بجريمة القتل. وبعبارة أخرى، أصبحت المحاكم خلال العقدين الماضيين أكثر استعدادًا لتصديق المتهمين عندما يزعمون أن ضحاياهم ماتوا لأنهم — حرفيًا — «طلبوا ذلك».

وقد جاءت بعض الأحكام الصادرة في هذه القضايا مخفّفةً على نحوٍ صادم. فعلى سبيل المثال، أسفرت ثلاث قضايا في عام ٢٠١٨ عن إدانات بالقتل غير العمد بعدما اعتمد المتهمون على «دفاع الجنس العنيف» عند اتهامهم بالقتل. وحُكم على «جون برودهيرست» (John Broadhurst) بالسجن ثلاث سنوات وثمانية أشهر عندما توفيت صديقته «ناتالي كونولي»

(Natalie Connolly) في منزله نتيجة مزيجٍ من التسمم والنزيف المهبلي، بعدما قام بإيلاجها بعنف بزجاجة منظّف سجاد.[١] كما حُكم على «جيسون جاسكل» (Jason Gaskell) بالسجن ست سنوات عندما شقّ حنجرة «لورا هوتسون» (Laura Huteson) أثناء الجنس مستخدمًا سكينًا كان يحتفظ به تحت وسادته.[٢] كذلك حُكم على «مارك بروس» (Mark Bruce) بالسجن ست سنوات بعد أن التقط «كلوي ميازيك» (Chloe Miazek) وهي في حالة سُكرٍ شديد من موقف حافلات، وأعادها إلى منزله، ثم خنقها حتى الموت. وقد قال محامي «بروس» في المحكمة إنه: «من قبيل المصادفة التامة أن السيد «بروس» صادف شخصًا آخر يشاركه الاهتمام نفسه بتلك الممارسة بعينها».[٣]

وثّقت نسويات في مناطق أخرى من العالم أيضًا ارتفاعًا في استخدام ما يُعرف بـ «دفاع الجنس العنيف»، مع تسجيل قضايا مماثلة في كندا، وإيطاليا، وروسيا، والمكسيك، وألمانيا، والولايات المتحدة. ويبدو أن تزايد شيوع هذا الدفاع ونجاحه على الصعيد الدولي يعود إلى أن المحاكم باتت أكثر استعدادًا لتصديق أن النساء لا يوافقن فحسب، بل يسعين فعليًا إلى ذلك النوع من العنف الذي قد يكون قاتلًا. وبذلك يقدّم هذا الاتجاه دليلًا قويًا على الآثار الواسعة النطاق لتطبيع ممارسات الجنس العنيف (BDSM).

ويظهر هذا التطبيع بوضوح صارخ على الإنترنت، حيث انتقل محتوى الجنس العنيف (BDSM) — ولا سيما المحتوى الذي يتضمن الخنق — من مواقع إباحية هامشية إلى مواقع إباحية شهيرة، ثم إلى وسائل التواصل الاجتماعي، بما في ذلك منصات تروّج لنفسها بوصفها مناسبة للأطفال ابتداءً من سن الثالثة عشرة. فعلى إنستجرام، توجد عشرات الآلاف من الصور المُجنَّسة التي تتضمن الخنق، متاحة عبر وسوم مثل: chokeme#، #chokeher، #neckfetish، #breathplay، و#chokeherout.

وعلى موقع (Pinterest) تظهر صور لأطفال يُمسكون من حناجرهم. كما عرضت صورة على منصة (Tumblr) سريرًا رُصفت عليه بتلات ورد لتشكّل عبارة: «اكدم مريئي». وعلى هذه

---

[١] http://www.dailymail.co.uk/news/article-8552589/Businessman-killed-lover-used-rough-sex-defence-FREED-two-years.html
[٢] http://www.mirror.co.uk/news/uk-news/laura-huteson-death-killers-brutal-13109002
[٣] http://www.pressandjournal.co.uk/fp/news/aberdeen/1448323/sex-strangler-jailed-for-killing-20-year-old-chloe-miazek/

المنصات، يُقدَّم خنق النساء بوصفه فعلًا جميلًا، ومثيرًا، وأنيقًا، ومرغوبًا فيه، وأحيانًا مسليًا، وتُلتقط الصور في الغالب من منظور الشخص الذي يقوم بالخنق.

لا يحتاج المرء إلى البحث عن هذه الصور. فمجرد التعرّض للإباحية السائدة، أو حتى لوسائل التواصل الاجتماعي السائدة فحسب، يجعل مصادفتها أمرًا مرجّحًا من دون قصد. وقد نقل مقال في جريدة (Sunday Times) في يناير ٢٠٢٠ — مرفقًا، بطبيعة الحال، بصورة من (Fifty Shades) — عن طالبة شابة قولها إنها بدأت ترى مواد تتعلق بالخنق على منصة (Tumblr) منذ سن الرابعة عشرة:

> كنت أرى الكثير من المواد الإباحية من غير قصد، لأن الحسابات كانت تستخدم وسوم برامج تلفزيونية أو وسائل إعلام شائعة لجذب المتابعين إلى مواقعها الإباحية... وبعد تجاربي مع موقع «تمبلر»، شعرتُ أن الخنق قد جرى تطبيعه بوصفه سلوكًا جنسيًا. يُقدَّم على أنه تعبير عن الشغف، وكأنه أمر تُهَيَّأ الفتيات للقيام به. ولم يحدث إلا مؤخرًا أن بدأت أراه يُنتقد بوصفه سلوكًا إجراميًا.[١]

تستفيد المنصات الإباحية من آلية تصعيد مدروسة؛ إذ تُدخِل المستخدمين أولًا إلى محتوى أخف، ثم — بالنسبة لأولئك الأكثر قابلية للتأثر — تقترح محتوى أشد تطرفًا وأكثر إدمانًا مع تبلّد إحساس المشاهد تدريجيًا. وبالنسبة لكثير من المستخدمين، يقود هذا التبلّد حتمًا إلى الجنس العنيف (BDSM)، وحين تتكوّن ذائقة لأشكال «إبداعية» من العنف والإذلال، فقد لا تبقى هذه الذائقة حبيسة الخيال الفردي.

ويفضح أحد مرتكبي العنف المنزلي المُدانين، ممن قابلهم «الدكتور سكوت هامبتون» (Dr Scott Hampton)، هذه العملية حين يعترف قائلًا: «لم أفكر قط في [الخنق] حتى رأيته في فيلم إباحي». كما أن الانحراف العمري الكبير في بيانات الاستطلاعات المتعلقة بالخنق الجنسي يعزّز صدقية هذا الادعاء. فهل من المعقول حقًا أن يكون كل هؤلاء الشباب قد قرروا تلقائيًا أن الخنق هو، كما تصفه «جيجي إنجل» (Gigi Engle)، «فعلًا جنسيًا ممتعًا جدًا»؟ أم أن حقيقة أن هذا الجيل هو الأول الذي نشأ في ظل الإباحية عبر الإنترنت تلعب دورًا حاسمًا في ذلك؟

1 http://www.thetimes.co.uk/article/social-media-make-girls-think-choking-during-sex-is-normal-0jlrgf2b0

يصعب الجزم بهذا الأمر على نحوٍ قاطع في أي اتجاه. فلا توجد — ولن توجد — تجربة علمية عشوائية مزدوجة التعمية تثبت وجود علاقة سببية مباشرة بين استهلاك الإباحية والسلوك الجنسي، كما تقول كلير ماكجلين (Clare McGlynn)، أستاذة القانون في جامعة دورام. لكنها تقارن ذلك بالإعلانات التجارية: «ليس صحيحًا أنني أشاهد إعلانًا ثم أخرج فورًا لأشتري نوعًا محددًا من مسحوق الغسيل، لكن على مستوى ما يكون للإعلانات تأثير عليّ، ولهذا تنفق الشركات مليارات عليها».[١]

هذه مقارنة معقولة، لكنها تعيدنا أيضًا إلى الإشكالية المقلقة التي طرحتها في الفصل السابق؛ فكما أن شركات مساحيق الغسيل تستجيب للطلب، فإن منتجي الإباحية — يؤسفني القول — يفعلون الشيء نفسه. إن الخنق موضة روّجت لها الإباحية، لكنه في حقيقته تطوير لموضوع لم تخلقه صناعة الإباحية من الأساس. فهذا الموضوع يتمحور حول رجال عنيفين تثيرهم الهيمنة، ونساءٍ غير واثقات بأنفسهن يسعين إليها. وهو الموضوع ذاته الذي نراه في رواية (Fifty Shades)، وأحيانًا في روايات (Mills & Boon). إنه ليس جديدًا، لكنه جرى تضخيمه وتشويهه على نحوٍ فادح في العصر الحديث.

ومن هنا، فإن النداء النسوي الليبرالي إلى «الموافقة الجنسية» ليس كافيًا. فهو لا يفسّر الكيفية التي يمكن بها للإباحية، أو لغيرها من أشكال التأثير الثقافي، أن تشوّه الحياة الجنسية للشباب القابلين للتأثر. كما أنه لا يقدّم تفسيرًا مقنعًا لسبب اعتبار المرأة التي تؤذي نفسها مريضة نفسيًا، في حين تُقدَّم المرأة التي تطلب من شريكها أن يؤذيها بوصفها تمارس «حريتها الجنسية». والأخطر من ذلك أن إيمان النسوية الليبرالية بالرضا الجنسي يقوم على فرضية خاطئة في جوهرها: وهي أن الشخص الذي نكونه في غرفة النوم منفصل عن الشخص الذي نكونه خارجها.

في مقال حديث، أعادت كاتبة في صحيفة (Sunday Times)، «دوللي ألدرتون» (Dolly Alderton)، ترديد هذه الفكرة الساذجة في ردّها على رسالة من امرأة في التاسعة والعشرين من عمرها تشعر بالقلق لأنها تنجذب مرارًا إلى رجال معادين للنساء. إذ كتبت:

> أعتقد أن على الجميع أن يكونوا أحرارًا في فصل حياتهم الجنسية عن مواقفهم السياسية، طالما أن جميع الأطراف موافقة وتستمتع. المهم ألا تخلطي بين رغبتك

1- Interview with Clare McGlynn, 29 May 2020.

في التشييء الجنسي أو الهيمنة، وبين حاجتك إلى صديق حميم كاره للنساء أو متسلّط... وباختصار: أنتِ بحاجة إلى رجل لطيف وهادئ ومحترم في الشارع، ومنحرف قذر في السرير. هؤلاء موجودون فعلًا. أتمنى لك المتعة في العثور على أحدهم.[1]

كانت نصيحة «ألدرتون» أن تسعى صاحبة الرسالة إلى ممارسة الجنس العابر عبر تطبيقات المواعدة مع رجال مستعدين للتصرّف كمتسلّطين وكارهين للنساء في غرفة النوم، لكنهم في الوقت نفسه «لطفاء» في الخارج. ومن الصعب تخيّل نصيحة أسوأ من ذلك. فالنسوية الليبرالية هنا لا تكتفي بدفع الشابات إلى لقاء رجال غرباء من الإنترنت لممارسة الجنس، بل تشجّعهن أيضًا على اختيار هؤلاء الرجال مسبقًا بناءً على ميلهم إلى العنف.

أي رجل يستطيع الحفاظ على انتصابه وهو يضرب شريكته هو رجل يجب الابتعاد عنه بلا تردد. لكن أولئك المهتمين بالمازوخية لا يريدون سماع هذه الحقيقة القاتمة، كما أن المهتمين بالسادية لا يرغبون في كبح رغباتهم. وهكذا يصبح الخيار «المريح» للنسوية الليبرالية هو رسم خط فاصل مصطنع بين الحياة الجنسية والواقعية، ثم التمسك بكل يأس بـ «الموافقة الجنسية» في محاولة لركوب تيار الجنسية الذكورية بدل مواجهته.

غير أن المشكلة هي أن النساء المازوخيات قد يرغبن في تمثيل الاغتصاب، لكنهن لا يرغبن في أن يُغتَصبن فعليًا. ومع ذلك، فإن السعي إلى رجلٍ تثيره ممارسة العنف قد يؤدي، في الواقع، إلى هذه النتيجة بعينها.

وعندما وُجّهت إلى الموسيقي «آندي أنوكي» (Andy Anokye)، المعروف أيضًا باسم (Solo 45)، تهم الاعتداء على عدد من النساء — بأفعال شملت خنقهن، وتعريضهن للإغراق بالماء، وتوجيه سلاح ناري إلى رأس إحداهن، ووضع قطعة قماش مبللة على وجه أخرى — قدّم تفسيرًا بسيطًا لسلوكه: كان ذلك يثيره جنسيًا.[2]

1- http://www.thetimes.co.uk/article/dear-dolly-im-a-feminist-so-why-am-i-only-attracted-to-misogynists-20cgws8z8
2‘ Grime artist Solo 45 “choked woman with collar”, 16 December 2019, www.bbc.co.uk/news/uk-england-bristol-50816008 ;
‘Grime artist Solo 45 “waterboarded victim”, 28 November 2019, www.bbc.co.uk/news/uk-england-bristol-50591539 ;
‘Grime artist Solo 45 “held gun to head of rape victim”, 6 December 2019, www.bbc.co.uk/news/uk-england-bristol-50690488 ;

وقد صرّح هذا الإنسان السادي أمام المحكمة في مدينة بريستول عام ٢٠٢٠ بأنه كان يُثار بما يُعرف بـ الافتتان الجنسي بالدموع (dacryphilia)، وهو هوس جنسي ببكاء الضحايا المرعوبات، وهو ما دفعه إلى البحث عن ضحايا لإرهابهن جنسيًا. وأخبرت إحدى الضحايا المحكمة أن إساءة «آندي أنوكي» لها كانت مروّعة إلى درجة أنها، في لحظة ما، «تمنّت الموت».

وزعم فريق دفاع «أنوكي» أن النساء الخمس اللواتي قدّمن أدلة ضده كنّ جميعًا قد وافقن على أفعال العنف التي مارسها بحقهن، غير أن هيئة المحلّفين — ولحسن الحظ — لم تقتنع بهذه الرواية. وفي مارس ٢٠٢٠، أُدين بالإجماع بواحدٍ وعشرين اغتصابًا، وخمس تهم بالاحتجاز غير المشروع، وتهمتين بالاعتداء بالإيلاج، وتهمتين بالاعتداء المسبّب لأذى جسدي فعلي. وسيقضي ما لا يقل عن أربعٍ وعشرين سنة في السجن.[1]

وخلال التحقيق، استخدم المحققون مقاطع فيديو استُعيدت من هاتف «أنوكي» لتعقّب نساء أخريات كنّ قد تعرّضن لعنفه. وقدّمت عدة نساء من بينهن شهادات للادعاء، لكن إحداهن لم تفعل. ووصف المحققون المقاطع التي تظهر هذه المرأة بأنها «عنيفة» و«وحشية»، لكنها رفضت هذا التوصيف، وقالت للمحكمة، بصفتها شاهدةً للدفاع: «لم يكن ذلك اغتصابًا — لقد وافقتُ على هذا السلوك وعلى هذا الفعل».

لنتخيّل، جدلًا، أن جميع ضحايا «أنوكي» استجبن لعنفه بالطريقة نفسها التي استجابت بها هذه المرأة. لقد تعرّضت لنفس النوع من الإساءة التي تعرّضت لها النساء الأخريات تمامًا، لكنها — لأي سبب كان — لم تعترض عليها. ووفق هذا المنطق، تريدنا النسوية الليبرالية أن نصدق أنه لو صادف أن جميع ضحاياه شعرن بهذا الشكل، لما كان «أنوكي» قد ارتكب أي خطأ. ولم تكن أفعاله لتُعد بعد ذلك صادمة أو معادية للنساء أو إجرامية. بل ربما كانت ستُوصَف بأنها ثورية، تمامًا كما وُصفت أفكار «ساد» — «افعل ما تشاء»، كما كُتب على اللافتة في احتجاجات الطلبة عام ١٩٦٨— وهي نصيحة التزم بها «أنوكي» حرفيًا.

لكن هذا المنطق لا يمكن أن يصمد. فإما أن يكون «أنوكي» مجرمًا، أو لا يكون — ولا يمكن أن تعتمد إجراميته على ما إذا كان محظوظًا في اختيار ضحيته، وصادف أن اختار امرأة

'Solo 45 trial: grime artist a "narcissist and bully", 12 February 2020,
www.bbc.co.uk/news/uk-england-bristol-51478517 ;
Geoffrey Bennett, 30 July 2020,
www.bristolpost.co.uk/news/bristol-news/solo-45-rape-court-case-4378719 .
1 http://www.bristolpost.co.uk/news/bristol-news/solo-45s-defence-claims-four-3881370 ;

لا تشتكي عندما تُخنق، أو تُعرّض للإيهام بالغرق، أو تُكمَّم بقطعة قماش مغموسة في الماء. إن التحليل النسوي الليبرالي للعنف الجنسي ليس خاطئًا فحسب، بل هو خطير أيضًا. فهو يبعث برسالة إلى الناس — وغالبًا إلى الرجال — مفادها أنه إذا اكتشفوا في أنفسهم رغبة في إيذاء الآخرين، فلا ينبغي لهم مقاومتها، بل عليهم تنميتها، وحبس أنفسهم في دائرة من التعزيز الإيجابي يُكافَأ فيها الاستثارة الناتجة عن العنف بالنشوة الجنسية.

كما يوجّه رسالة إلى النساء — ولا سيما من لديهن نزعات مازوخية — مفادها أن هذه الرغبات ينبغي تشجيعها أيضًا. وأنه بدلًا من الهروب مذعورات من الرجال ذوي الميول العنيفة — كما هربت «روز كيلر» (Rose Keller) من «ساد» عبر شوارع باريس — ينبغي عليهن البقاء وتغذية هذا الميل، ومنح السادي ما يريده تمامًا، إلى أن يأتي يوم لا تعود فيه رغباته محصورة بغرفة النوم، ولا يعود يتوقف عند كلمة «لا».

الفصل السابع:
الناس ليسوا سِلعًا

حيثما وُجدت الجيوش، وُجدت بيوت الدعارة أيضًا، وغالبًا ما كان ذلك يتمّ بإقرارٍ صريح أو ضمني من السلطات العسكرية. فبالنسبة لمسؤولي الجيش البريطاني في ثمانينيات القرن التاسع عشر، على سبيل المثال، كانت الصلة الضرورية بين الدعارة والمشروع الاستعماري مسألة بديهية. فقد كان العدد الهائل من الرجال البريطانيين المتمركزين في الهند بحاجة إلى توفير بغايا لهم، وكانت السلطات تفضّل ألّا تجد نفسَها في مواجهة وباء من الأمراض التناسلية. وعلى هذا الأساس، وُضع نظامٌ للتوريد. فقد نصّت مذكرةٌ صادرة عن قائد الإمداد العام، ومؤرخة بسنة ١٨٨٦، على أنّ «من الضروري توفير عددٍ كافٍ من النساء والحرص على أن يكنّ جذّابات بما يكفي».[١]

وللحصول على هؤلاء النساء — اللواتي وُصِفن في المذكرة نفسها بـ «ترتيبات ملائمة» — كان المسؤولون البريطانيون يتوجّهون عادةً إلى القرى الهندية ويُبرزون أمرًا حكوميًا بتوفير بغايا. «كان الفقراء يخشون الرفض أو المقاومة؛ فتُسلَّم بناتهم»، كما أفاد أحد الأطباء. وكانت هؤلاء الشابات — وكثيراتٌ منهنّ دون سنّ الرضا المعمول به في بريطانيا آنذاك — يُشترين بثلاث روبيات للواحدة، ثم يُحتجزن فعليًا في بيوت الدعارة التابعة للجيش.

وكانت صاحبات البيوت ينتزعن ملابسهنّ فور وصولهنّ، ولا يتركن لهنّ سوى ثوبٍ شفافٍ يلفت النظر بضحالته الشديدة لو خرجن إلى الشوارع، ما يجعل الهرب صعبًا. كما كانت السيطرة عليهنّ تُمارَس عبر الإكراه الاقتصادي، إذ كان يُطلب منهنّ دفع رسمٍ يومي مقابل الإقامة، وقد جُعل هذا الرسم عمدًا أعلى من المبالغ الضئيلة التي كان يدفعها الزبائن، ما يعني أنّ المرأة البغيّ كانت تراكم ديونًا كلما «عملت» أكثر، فتُربَط بالبيت إلى الأبد.[٢]

1- Helen Mathers, Josephine Butler: Patron Saint of Prostitutes. Stroud: History Press, 2014, p. 165.

٢- المصدر السابق، ص ١٢٩

ولا نعرف هذه التفاصيل عن بؤس هؤلاء النساء اللواتي فارقن الحياة منذ زمن بعيد إلا بفضل جهود السيدة «جوزفين بتلر» (Josephine Butler)، وهي ناشطة إنجليزية يمكن أن نصفها اليوم بأنها «نسوية»، وإن لم يكن المصطلح مستخدمًا آنذاك. لم تقبل السيدة «بتلر» بالحاجة الذكورية إلى «ترتيبات ملائمة». ففي نظرها، كانت هؤلاء البغايا الهنديات «نساءَ عِرقٍ مغلوبٍ على أمره، مضطهَداتٍ على يد غزاتهنّ»،[1] وقد عملت إلى جانب ناشطين آخرين على إنهاء ممارسة الجيش البريطاني للعبودية الجنسية المؤسسية بنجاح.

ولا تُستحضَر ذكرى «بتلر» بعطف لدى معظم النسويات الليبراليات في القرن الحادي والعشرين. إذ تصف «أليسون فيبس» (Alison Phipps)، أستاذة دراسات الجندر في جامعة سَسِكس، حركة «بتلر» في فقرةٍ كثيفةٍ مليئة بعلامات التنصيص التحذيرية:

> إن «النسويات الرجعيّات» اليوم هنّ سلالاتُ «محارِبات الرذيلة» في القرن التاسع عشر، والواعظات المسيحيات، ومعارضات الاختلاط بين الجنسين، والنساء البرجوازيات اللواتي جنّدتهنّ الفوردية لـ «تحسين» الطبقة العاملة، وأولئك اللواتي أدرن مؤسسات الإصلاح للفتيات السود «المنحرفات» وأسأن معاملتهنّ «لمصلحتهن». وهذه السلالة ليست أيديولوجية فحسب. فقد أصبحت «مغاسل ماجدالين» في أيرلندا، التي شُيّدت في القرن الثامن عشر لإيواء «النساء الساقطات»، في وقتٍ أقرب منظمة «روهاما» (Ruhama)، وهي منظمةُ وصولٍ للنساء في الدعارة. كما أن حملات مكافحة الاتجار بالبشر كانت مُمهَّدة سلفًا بحالات الهلع من «العبودية البيضاء» المرتبطة بحركة الاعتدال في القرن التاسع عشر.[2]

وإلى مصطلحات «المنحرف»، و«التحسين»، و«محارِبي الرذيلة»، و«النساء الساقطات»، و«العبودية البيضاء»، يمكننا أيضًا أن نضيف ألفاظًا مثل «الإنقاذ»، و«الفضيلة»، و«حياة الخطيئة» — وهي مفردات استخدمها ناشطو القرن التاسع عشر، وترفضها اليوم جملةً وتفصيلًا جيلٌ جديد من النسويات اللواتي ينظرن إلى الدعارة نظرةً مختلفة تمامًا، ولا يكتفين

١- المصدر السابق، ص ١٦٥

2- Alison Phipps, Me, Not You: The Trouble with Mainstream Feminism. Manchester: Manchester University Press, 2020 [Kindle edn, location 1873.

بالاستنكار من الانتهاكات التي ارتكبها بعض الفيكتوريين، بل ينفرن كذلك من رؤيتهم الكونية بأسرها.

وعلى وجه الخصوص، فإن النزعة الدينية في الوعظ الأخلاقي الفيكتوري تُعدّ أمرًا مستهجَنًا تمامًا لدى الحركة النسوية المعاصرة ذات التوجّه العلماني الصارم. كانت «جوزفين بتلر» مسيحية، وكان إيمانُها الديني هو القوة الدافعة الأساسية وراء عملها. وعلى الرغم من أنها كانت، في آنٍ واحد، مناهِضةً للعبودية ومن أوائل المؤيدات لحق النساء في الاقتراع — وهما قضيتان تضعانها، من منظور اليوم، في «الجانب الصحيح من التاريخ» — فإنها تُدان أيضًا على أشياء أخرى. فهناك مؤرّخ، على سبيل المثال، يصف حملة «بتلر» ضد بيوت الدعارة التابعة للجيش بأنها قائمة على «تصويرٍ لأنوثة هندية عاجزة»، كما يصف «بتلر» نفسها بأنها متعاونة «في العمل الأيديولوجي للإمبراطورية».[١]

ولن يخطر ببال القارئ، عند الاطلاع على كتابات منتقديها المعاصرين، أن هدف «بتلر» كان في الأساس وقف الرجال البريطانيين عن اغتصاب الفتيات الهنديات.

وأنا أرفض إدانة «بتلر»، كما أرفض إحاطة المصطلحات التي استخدمتها هي وحلفاؤها لوصف عملهم بعلامات تنصيص ساخرة متعالية. نعم، لقد استخدمت الكتابَ المقدس في محاولاتها لمساعدة النساء على الخروج من الدعارة، وكانت تقتبس من الأناجيل وهي جالسة على الأرض تنفش ألياف الحبال إلى جانب أشخاص محتجزين في دور العمل الإنجليزية. ولا، لم تنجح في إسقاط الإمبراطورية البريطانية، ولا حتى في الابتعاد كثيرًا عن الإطار الإمبريالي السائد. لكنها، في المقابل، كانت تستقبل نساءً وفتياتٍ معدمات في منزلها، وتقوم بتمريضهنّ وهنّ يحتضرن بسبب أمراض تناسلية أُصبن بها عبر الدعارة — وكم من نسويات القرن الحادي والعشرين يمكنهنّ الادعاء بأفعال مماثلة؟

وإذا أردنا أن نفهم آليات تجارة الجنس ضمن سياقها التاريخي، فعلينا أن ننظر إلى «جوزفين بتلر» قبل أن ننظر إلى منتقديها المعاصرين، لأن الاستسلام لما يُعرف بـ «التعالي الزمني» في هذه الحالة لا يعني سوى الوقوع في خطأ جسيم. فالدعارة لم تكن يومًا مسألة اختيار

1- Antoinette M. Burton, ‘The white woman’s burden: British feminists and the Indian woman, 1865–1915’ , Women’s Studies International Forum 13 (1990): 295–308.

شخصي أو شكلًا من أشكال التمكين النسوي. بل إن موقع «المشتري» في مقابل «البائع» كان دائمًا لا يُحدَّد بالجنس وحده، بل كذلك بالعرق، والجنسية، وقبل كل شيء — بالطبقة الاجتماعية.

*****

حل قديم

في موضعٍ سابق من هذا الكتاب، عرضتُ أوجهَ الاختلاف بين متوسطَي النشاط الجنسي لدى الرجال والنساء، وذهبتُ إلى أن هذا الاختلاف نتاجٌ للتطور البيولوجي وليس مجرد أثرٍ ثقافي. ومن أهم هذه الفروق بين الجنسين أن الرجال يسجّلون درجات أعلى في السمة التي يسميها علماء النفس الجنس-الاجتماعي أو «السوسيوجنسية» (sociosexuality)، أي الرغبة في التنوع الجنسي. وهذا يعني أنه، في المتوسط، يكون الرجال أكثر ميلًا بكثير من النساء إلى تفضيل الجنس العابر.

ويؤدي هذا الفارق الجنسي إلى عدم تطابق بين رغبات الرجال والنساء على مستوى المجتمع ككل. فعدد الرجال الباحثين عن الجنس العابر يفوق بكثير عدد النساء الراغبات فيه، ما يفضي إلى إحباط عدد كبير من هؤلاء الرجال بسبب نقص الشريكات المستعدات لهذا النوع من العلاقات. وكما رأينا، فإن الحل الذي طُرح كثيرًا في عصر ما بعد الثورة الجنسية كان تشجيع النساء — ولا سيما الشابات الجذابات — على تجاوز تحفظهن وممارسة الجنس «بطريقة الرجال»، أي محاكاة النموذج الذكوري للجنس على نطاق واسع. وتذهب أطروحة هذا الكتاب إلى أن هذا الحل قد جرى تسويقه زيفًا بوصفه تحررًا جنسيًا للنساء، بينما هو في الحقيقة لا يخدم سوى مصالح الرجال وليس النساء. ومع ذلك، فقد حرصتُ طوال الكتاب على التأكيد أن وجود مشكلات خطيرة في ثقافتنا الجنسية الراهنة لا يعني أن الثقافات الجنسية السابقة كانت مثالية أو خالية من الظلم؛ فجميع المجتمعات تضطر إلى إيجاد حلٍّ ما لفجوة الرغبة الجنسية، وهذه الحلول كثيرًا ما تكون معادية للنساء بطرائق متعددة.

أما الحل الحديث، فيتمثل في تشجيع جميع النساء، من مختلف الطبقات الاجتماعية، على تلبية الطلب الذكوري على الجنس العابر. وعلى النقيض من ذلك، فإن الحل الذي تبنته أغلب المجتمعات قبل اختراع وسائل منع الحمل الموثوقة كان قصر ممارسة الجنس لدى غالبية النساء

على إطار الزواج (سواء أكان أحاديًا أم تعدديًا)، مع تحميل أقلية من النساء الفقيرات عبء استيعاب فائض الرغبة الجنسية الذكورية. وباستثناء عدد محدود من المحظيات الراقيات أو بائعات الهوى من الطبقات العليا اللواتي استطعن أحيانًا اكتساب قدر من المكانة الاجتماعية — وغالبًا ما كنّ في الأصل من أوساط فقيرة — فقد تكوّنت طبقة النساء المُمتهِنات للدعارة تاريخيًا من نساء لا يملكن أي بدائل أخرى: المعدمات، والمتروكات من شركائهن، والمدمنات على المخدرات أو الكحول، واللواتي أُسرن في الحروب أو خُدعن من قِبل المتاجرين بالبشر. فالدعارة تمثل حلًا قديمًا لفجوة الرغبة الجنسية، وهو حلٌّ لم يكن يومًا إنسانيًا أو رحيمًا.

ويصعب للغاية تفسير البؤس العميق الذي يطبع حياة هذه الفئة إذا صدّقنا الادعاءات النسوية الليبرالية المعاصرة بشأن «صناعة الجنس». فلماذا تنفر النساء إلى هذا الحد من بيع الجنس إذا لم يكن مختلفًا في أساسه وجوهره عن بيع أي منتج أو خدمة أخرى؟ ولماذا كانت العائلات الهندية ترغب في «الرفض أو المقاومة» حين جاء ضباط الجيش البريطاني لاقتلاع بناتهن؟

تحاول النسوية الليبرالية تفسير هذه الظاهرة بوصفها نتاجًا للوصم الاجتماعي. وهي تشير — بحق — إلى أن الدعارة موصومة، وتؤكد — بحق أيضًا — أن هذا الوصم يجعل حياة النساء في الدعارة أكثر خطورة وقسوة. لكنها لا تفسر لماذا ينشأ هذا الوصم من الأساس، سوى بالإيحاء — كما تفعل المؤرخة النسوية الإيجابية تجاه الجنس «كيت ليستر» (Kate Lister) — بأن «الثقافات التي قمعت الجنس» هي المسؤولة؛ «إذ أدّت المواقف الأبوية الداعية إلى البراءة والطهارة السائدة في الغرب إلى التعامل مع النشاط الجنسي للنساء بوصفه أمرًا يستوجب رقابة خاصة».[١]

ويذهب بعض النسويات الليبراليات إلى أبعد من ذلك. فمثلًا، تزعم ورقة أكاديمية نُشرت عام ٢٠١٤ بعنوان «العمل الجنسي يجرّد النظام الأبوي من كل حيله!» أن «السبب الدقيق الذي يجعل العمل الجنسي يقوّض النظام الأبوي هو كونه يتحدى باستمرار الصور النمطية الأبوية والفهم المعياري للأنوثة الجنسية، ما يثير شعورًا بعدم الارتياح والقلق لدى أولئك الساعين إلى حمل مشعل الأبوية».[٢] لكن «الأبوية» — إذا قصدنا بها نظامًا اجتماعيًا يقدّم مصالح الرجال على

1- Kate Lister,. ‘Sex and money’, in A Curious History of Sex. London :Unbound, 2020
2- Meena Seshu and Aarthi Pai, ‘Sex work undresses patriarchy with every trick!’, IDS Bulletin 45 (2014): 46–52.

مصالح النساء — لا تستلزم بالضرورة قمع الممارسة الجنسية النسائية على نحو مطلق أو متسق. فقد لا يرغب الرجال في أن تمارس زوجاتهم أو بناتهم علاقات جنسية «غير مشروعة»، لكنهم غالبًا لا يمانعون أن تفعل ذلك زوجات وبنات رجال آخرين. وهذا يعني أن الإبقاء على طبقة مخصّصة من النساء المستغَلَّات لأغراض المتعة الذكورية ينسجم تمامًا مع المصالح الذكورية. فلماذا، إذن، يُعزى النفور العميق والعابر للثقافات الذي تشعر به النساء إزاء احتمال الانضمام إلى هذه الطبقة إلى «أيديولوجيا أبوية تطهرية»؟

هناك تفسيرٌ أكثر إقناعًا بكثير لذلك النفور الحادّ والعميق الذي تشعر به النساء عادةً تجاه الدعارة. وكما أوضحتُ في الفصل الثاني، فإن تاريخنا التطوري قاد الرجال والنساء إلى تبنّي استراتيجيات إنجابية مختلفة، بوصف ذلك نتيجة مباشرة لاختلاف أدوارهم الإنجابية. وكما يكتب عالم الأحياء التطورية «ديفيد باس» (David Buss):

> منذ لحظة الإخصاب، حين يندمج ذلك الحيوان المنوي الصغير الوحيد مع البويضة الغنية بالمغذيات، تكون المرأة قد بدأت بالفعل في تقديم استثمار يفوق بكثير ما يقدّمه الرجل. ولا ينتهي هذا الخلل في حجم الاستثمار المتفاوت عند هذه النقطة. فالمرأة هي التي تحتضن البويضة المخصبة داخل جسدها، وهي التي تنقل السعرات الحرارية من جسدها عبر المشيمة إلى الجنين الذي ينمو... وهي التي تتحمّل عبء تسعة أشهر كاملة من الحمل، وهو استثمار طويل على نحوٍ مذهل إذا ما قورن بمعظم الثدييات.[١]

وبالنظر إلى كل ذلك، هل من المستغرَب أن تكون النساء أكثر انتقائية بشأن من يمارسن معه الجنس؟ ففي عالم يفتقر إلى وسائل منع حمل موثوقة، يكون قرار ممارسة الجنس أكثر تبعات على المرأة بكثير مما هو عليه بالنسبة للرجل، لأن احتمال حدوث حمل غير مرغوب فيه يضعها أمام خيارات شديدة القسوة: تربية طفل دون دعم من شريك، أو محاولة الإجهاض، أو قتل الرضيع. وعلى امتداد تاريخ نوعنا البشري، لم تكن النساء تمتلكن يومًا خيار «الانسحاب والفرار».

1- David Buss, Bad Men: The Hidden Roots of Sexual Deception, Harassment and Assault. London: Robinson, 2021, pp. 15–16.

لقد وُجدت حبوب منع الحمل منذ نحو سبعين عامًا فقط، في حين أن الإنسان العاقل (Homo sapiens) موجود منذ ما يقارب مئتي ألف سنة. وقد تطورنا في بيئةٍ كان الجنس فيها يقود مباشرة إلى الحمل، ولا تزال هذه التكيفات النفسية عالقة فينا حتى اليوم. وبطبيعة الحال، يمكن للطبيعة أن تُتجاوز إلى حدٍّ ما — فجميعنا نعيش حياة حديثة تختلف كثيرًا عن حياة أسلافنا القدماء — غير أن اقتلاع هذه التكيفات عميقة الجذور من العقل البشري أمر بالغ الصعوبة.

ومن الناحية العاطفية، إن لم يكن من الناحية القانونية، يصعب التمييز بين الدعارة والاغتصاب. فالناشطة النسوية «رايتشل موران» (Rachel Moran)، التي كانت تعمل في الدعارة منذ سن الخامسة عشرة حتى الثانية والعشرين، تصف استجابتها العاطفية الخاصة بوصفها مطابقة تمامًا لتلك التي تُختبر أثناء الاعتداء الجنسي، فتقول:

> كنت أشعر بالغثيان المقرف نفسه، وبالذعر المتصاعد ذاته الملازم للاعتداء الجنسي التقليدي، في كل تجربة دعارة مررتُ بها، وكنت أشعر أن ذلك قائم بغضّ النظر عمّا إذا التزم الرجل بالحدود الجنسية المتفق عليها أم لا... وعندما نفهم أن الجنس المدفوع في الدعارة يشترك في عدد كبير من خصائصه مع الجنس المسروق في الاغتصاب، يصبح من المنطقي أن تعقد كثيرٌ من النساء المستغَلّات في الدعارة مقارنات واضحة بين التجربتين.[١]

إن جوهر الجنس المدفوع هو أنه لا بد أن يُدفَع ثمنه. فهو ليس مرغوبًا فيه بشكل متبادل من الطرفين؛ بل يكون أحد الطرفين حاضرًا على مضض، مقابل المال، أو أحيانًا مقابل سلع أخرى مثل المخدرات أو الطعام أو المأوى. وعلى الشخص الذي يُدفَع له أن يتجاهل افتقاره إلى الرغبة الجنسية، بل وحتى نفوره العميق منها. ويُطلب منه كبت أكثر غرائزه الذاتية في الدفاع والمقاومة في خدمة متعة جنسية لشخص آخر. ولهذا السبب تجذب صناعة الجنس عادةً أفقر النساء وأكثرهن يأسًا — فهؤلاء هنّ اللواتي لا يمتلكن الوسائل اللازمة لمقاومتها.

تنكر الدعارةُ على النساء ما تطورن بيولوجيًا ليبحثن عنه: وهو فرصة اختيار شركائهن الجنسيين. وبدلًا من ذلك، تُجبر النساء العاملات في الدعارة على ممارسة جنس غير مرغوب فيه مع رجال لا يجدنهم جذّابين حتى من بعيد. وفي الحقبة التي سبقت وسائل منع الحمل الموثوقة،

1- Rachel Moran, Paid For: My Journey through Prostitution. Cork: Gill & Macmillan, 2013, pp. 112–13.

كان الحمل غير المرغوب فيه غالبًا ما يكون النتيجة، كما يتضح من الأدلة الأثرية، مثل تلك التي كُشف عنها في تنقيب أثري بمقاطعة باكنجهامشير في إنجلترا، حيث عُثر على سبعةٍ وتسعين هيكلًا عظميًا لرضّع دُفنوا تحت بيت دعارة روماني.[١]

وحتى في العالم الحديث، في البلدان ذات الدخل المنخفض والمتوسط، حيث قد يكون الوصول إلى وسائل منع الحمل غير موثوق، تبلغ احتمالية أن تحمل المرأة العاملة في الدعارة من أحد الزبائن في أي سنة معينة نحو واحدة من كل أربع.[٢] قد يكون الجنس متعةً عابرة بلا معنى بالنسبة للزبائن، لكنه ليس متعة ولا عابرًا ولا بلا معنى بالنسبة للنساء، ولا بالنسبة للأطفال الذين ينجبنهم.

*****

20 دولارًا و200 دولار

هناك ظاهرة لافتة تحدث في الخطاب السياسي المتعلق بصناعة الجنس. فعادةً ما يُعنى الأشخاص الذين يعرّفون أنفسهم بأنهم من اليسار الليبرالي بالدفاع عن مصالح الفئات الأكثر تهميشًا اقتصاديًا — أي الفقراء في مقابل الأغنياء، والعمّال في مقابل أصحاب العمل، وما إلى ذلك. غير أنّ هذا الموقف، عندما يتعلّق الأمر بالدعارة، ينقلب بطريقة خفيّة. فبدلًا من التركيز على النساء الموجودات في أدنى مراتب هذه الصناعة — شديدات الفقر، أو المدمنات على المخدرات، أو ضحايا الاتجار — نجد أن النسويات الليبراليات كثيرًا ما يسلّطن الضوء على النساء المنتميات إلى الشريحة الأكثر نخبوية داخل الصناعة. وهكذا، فإن الأعلى أجرًا، وليس الأدنى، هنّ من يحظين بأكثر الحلفاء حماسةً داخل اليسار.

ولا أنكر وجود بعض من يعرّفن أنفسهن بأنهن «عاملات جنس» ولا يعشن في فقر، بل إنهن لا يكتفين بدعم نزع التجريم عن الدعارة استنادًا إلى معطيات تجريبية، وإنما يصررن أيضًا على أن «العمل الجنسي» لا يختلف عن أي نوع آخر من العمل. وتتمتع هؤلاء النساء بحضور بارز

1- http://www.dailymail.co.uk/sciencetech/article-1289603/Romans-killed-100-unwanted-babies-English-brothel.html

2- F. H. Ampt, L. Willenberg, P. A. Agius et al., 'Incidence of unintended pregnancy among female sex workers in low-income and middle-income countries: a systematic review and meta- analysis' , BMJ Open 8 (2018): e021779; doi: 10.1136/bmjopen-2018-021779.

على نحوٍ خاص في وسائل الإعلام وعلى منصّات مثل تويتر. وبالمقارنة مع غيرهن من النساء العاملات في الدعارة، فهنّ — على نحوٍ غير متناسب — أكثر احتمالًا لأن يكنّ بيضاوات، غربيات، وحاصلات على تعليم جامعي. وإضافة إلى ذلك، وبحكم التعريف، فإن النساء القادرات على التحدث بحرية وعلانية عن تجاربهن في هذه الصناعة لا يكنّ خاضعات لسيطرة قسرية مشددة من القوّادين، ويتقنّ اللغة الإنجليزية، ويتمتعن بإمكانية الوصول إلى الإنترنت. وبذلك، فهنّ لا يمثّلن سوى الطرف الأكثر حظًا نسبيًا ضمن طيف «العمل الجنسي».

وعلى النقيض من ذلك، فإن النساء اللواتي يناضلن من أجل ما يُعرف بـ «النموذج الإسكندنافي» — الذي يجرّم المشترين والقوّادين، ويُبقي على عدم تجريم البائعات — يمتلكن في الغالب مسارات حياتية مختلفة تمامًا. فهنّ أكثر احتمالًا لأن يكنّ قد غادرن صناعة الجنس قبل بدء نشاطهنّ النضالي، وأن يكنّ قد عملن في الدعارة داخل بيوت الدعارة أو في الشوارع، لا في أعمال المرافقة (الإسكورت) أو العمل عبر الكاميرات. كما أنهنّ أكثر احتمالًا لأن يكنّ قد وُلدن في ظروف من الفقر.

وهذه ملاحظة يجدها كثير من المدافعين عن نزع التجريم مزعجة. فعلى سبيل المثال، تصف «جونو ماك» (Juno Mac) و«مولي سميث» (Molly Smith)، مؤلفتا كتاب «العاهرات الثائرات: النضال من أجل حقوق العاملات في مجال الجنس» (Revolting Prostitutes: The Fight for Sex Workers' Rights)، المأزقَ الذي يجدن أنفسهن فيه، حيث تُفقد آراؤهن، بوصفهن عاملات جنس، مصداقيتها وقيمتها فورًا بسبب خلفياتهن الطبقية، إذ تقولان:

> تشير كثير من الناشطات من عاملات الجنس إلى أن شهاداتهن لا تُؤخذ بجدية داخل المساحات النسوية، إذ يُقال إن كونهن ناشطات يجعلهن حالات استثنائية لا يمكن اعتبارها ممثّلة لمعظم النساء، وإن تجاربهن نابعة من امتياز خاص وخارج عن القاعدة السائدة.[١]

تحمل كل من «ماك» و«سميث» درجة الدكتوراه، لكن حتى دون معرفة هذه التفاصيل عن سيرتهما الذاتية، فإن لكنتهما المنتمية إلى الطبقة الوسطى كفيلة بكشف موقعهما الاجتماعي. وكذلك الأمر بالنسبة لي، بطبيعة الحال — فبوصفي كاتبة عمود ومؤلفة، أتحدث من منصة لا

1- Juno Mac and Molly Smith, Revolting Prostitutes: The Fight for Sex Workers' Rights. London: Verso, 2018, p. 18.

يتمتع الغالبية العظمى من الناس بإمكانية الوصول إليها. وبحكم التعريف، فإن هذا نقاش عام لا يستطيع المساهمة فيه إلا من يتمتعون بقدرٍ نسبي من الامتياز.

ومع ذلك، فإن الانتباه إلى الخلفيات الطبقية لناشطات «العمل الجنسي» أمر بالغ الأهمية، لا بوصفه وسيلةً لإسكات النقاش أو حيلةً جدلية، بل لأن المصالح الاقتصادية للفرد تؤثر تأثيرًا عميقًا في تفضيلاته الشخصية. وما إن يبدأ المرءُ في ملاحظة ذلك، حتى يتبيّن له أن عددًا كبيرًا من هؤلاء الناشطين قد خاضوا تجارب غير مألوفة داخل صناعة الجنس. وتكتب الصحفية الاستقصائية والناشطة المناهضة للعنف الجنسي «جولي بندل» (Julie Bindel) عن بعض أبرز الأصوات في النقاشات الإعلامية حول صناعة الجنس قائلةً:

> كثير من دعاة الدعارة ذوي الحضور الإعلامي المرتفع، الذين يتحدثون بوصفهم «عاملات/عمّال جنس»، هم ما يمكن أن أصفهم بـ «السُّيّاح». فـ «ميليسا جيرا-جرانت»، على سبيل المثال، متعلّمة تعليمًا عاليًا وتكسب رزقها كصحفية؛ و«بروك ماجنانتي»، الحاصلة على الدكتوراه، وقد ألّفت عدة كتب وتعمل عالِمة؛ و«دوجلاس فوكس»، الذي تمتلك شريكته إحدى أكبر وكالات المرافقة في بريطانيا — هؤلاء لا يمثّلون تجارة الجنس.[١]

تُتاح هذه المراوغة الخطابية جزئيًا بسبب السعة الكبيرة والمرونة المفرطة في معنى مصطلح «عامِل/ة جنس». ففي بعض الأحيان، قد يشير هذا المصطلح — كما في حالة «ماجنانتي» (Magnanti) — إلى ما يُعرف أحيانًا بـ «العمل الجنسي بالتواصل الكامل». وفي حالات أخرى — مثل «جيرا-جرانت» (Gira-Grant) — قد لا يتعدّى الأمر العمل عبر الكاميرات فقط. والأكثر فجاجة من ذلك أن رجلًا مثل «دوجلاس فوكس» (Douglas Fox) يستطيع بدوره أن يصف نفسه بأنه «عامل جنس مستقل من الذكور»، بل وأن يحتفظ بموقع بارز داخل «الاتحاد الدولي لعمّال الجنس»، على الرغم من أن حقيقته الفعلية أنه قوّاد.[٢]

وفي الوسط الأكاديمي، من الشائع على نحو خاص أن يصف بعض الباحثين أنفسهم بأنهم «عمّال جنس»، مع تعمّد الإبقاء على قدر كبير من الغموض بشأن الطبيعة الدقيقة لمشاركتهم في هذه الصناعة. وعندما تصبح العبارات من قبيل «استمعوا إلى عمّال الجنس»

1- Julie Bindel, The Pimping of Prostitution: Abolishing the Sex Work Myth. Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2017, p. 60.
2- http://www.theguardian.com/profile/douglas-fox

و«أتحدث بصفتي عامل/ة جنس» ذات قيمة رمزية عالية، فلا يكون من المستغرب أن تُتداول هذه الادعاءات على ألسنة أشخاص قد يكون الوصف الأدق لهم — وفق تعبير «جولي بندل» — أنهم «سُيَّاح».

وهذه مسألة قديمة ومتجذّرة داخل حركة «حقوق عمّال الجنس». فقد كانت إحدى أوائل وأكثر المنظمات تأثيرًا في الدعوة إلى نزع التجريم الكامل عن الدعارة هي منظمة COYOTE (اختصار لعبارة Call Off Your Old Tired Ethics، والتي تعني «تخلَّ عن أخلاقياتك القديمة البالية»)، التي تأسست في سان فرانسيسكو عام ١٩٧٣، وغالبًا ما وُصفت في وسائل الإعلام بأنها «أول نقابة للبغايا».[1] غير أنه عندما أجرت عالِمة الاجتماع «إليزابيث برنشتاين» (Elizabeth Bernstein) ثمانية عشر شهرًا من العمل الميداني بين بائعات الهوى في مدينة سان فرانسيسكو، تبيّن لها أن عضوية (COYOTE) بعيدة جدًا عن أن تكون ممثِّلة للواقع العام:

> الغالبية الساحقة من أعضاء (COYOTE) من البيض، وينتمون إلى الطبقة الوسطى، ومتعلمون تعليمًا عاليًا، تمامًا كما يدّعي خصومُهم السياسيون. وهم في معظمهم عاملات اتصال هاتفي (call-girls)، ومرافقات (escorts)، وراقصات غريبات، ومدلِّكات؛ وقلة منهم مختصّات في الميول الجنسية الخاصة (fetish specialists)، مثل الدوميناتريكس أو ما يُعرف بــ «السويتش» (أي من يتناوبن بين أدوار السيطرة والخضوع). ويعمل كثير منهن من منازل فاخرة التأثيث أو من «أماكن عمل» مستأجرة، عبر نشر إعلانات في الصحف، ويحققن دخلًا لا يقتصر على تغطية النفقات، بل يساعد أيضًا في تمويل مسارات فنية وفكرية بديلة... ويبلغ متوسط الأجر في الساعة — سواء كانت المرأة «تعمل لحسابها الخاص» أم لا — نحو ٢٠٠ دولار.

كما وصفت «برنشتاين» الاجتماعات الشهرية لمنظمة (COYOTE)، حيث كتبت تقول:

> يُقدّم الأعضاء الجدد أنفسَهم غالبًا من خلال سرد «قصص خروجهم إلى العلن»، من قبيل: «تخرجتُ من كلية سميث بدرجة بكالوريوس في الفلسفة، ثم انتقلتُ إلى هنا لأصبح عاملة جنس»، ويُقابل ذلك بتصفيق حار. ويُقدَّم كون المرء «عاملة جنس» على أنه تجربة تتعلق بالاستمتاع بالجنس، أو بتحرير الطاقات المكبوتة،

[1] Bindel, The Pimping of Prostitution, p. 22.

أو باستكشاف المناطق القصوى من الخيالات الجنسية التي يُنظر إليها اجتماعيًا على أنها خطرة.

ويقف هذا الوصف في تناقض صارخ مع الفئة الأخرى من النساء في الدعارة، التي وصفتها «برنشتاين» بأنها تقع «على الطرف الآخر من العالم»: نساء مشرّدات، مدمنات على الهيروين، يبعن الجنس مقابل ٢٠ دولارًا، ثم ينفقن العائد فورًا على المخدرات. وكانت معظم هؤلاء النساء خاضعات لسيطرة مشددة من القوّادين، ويبدين بوضوح مريضات، ومنهكات، ومضطربات نفسيًا.[١]

ولا تُعدّ «إليزابيث برنشتاين» قريبةً بأي حال من أن تكون من دعاة إلغاء تجارة الجنس، وأتوقّع أنها ستعارض بشدة كثيرًا مما أطرحه في هذا الكتاب.[٢] ومع ذلك، فإنها تُسلّط الضوء على مشكلة جوهرية في الخطاب السائد حول صناعة الجنس غالبًا ما يجري تجاهلها. فالتوجيه الشائع القائل «استمعوا إلى عمّال الجنس» يُستخدم بكثرة من قبل لوبي نزع التجريم، لكن السؤال الحاسم يظل قائمًا: إلى أيّ عمّال جنس ينبغي أن نستمع؟

*****

المعتقدات الفاخرة

ابتكر عالم النفس «روب هندرسون» (Rob Henderson) مصطلح «المعتقدات الفاخرة» (luxury beliefs) لوصف نوعٍ من الأفكار والآراء التي تمنح مكانة اجتماعية للأثرياء بتكلفة ضئيلة جدًا عليهم، بينما تُلقي بأعباء حقيقية على الفقراء.[٣] ويرى «هندرسون» أن هذه المعتقدات تمثّل شكلًا من أشكال «سلع فيبلن»، المنسوبة إلى عالم الاجتماع «ثورستين فيبلن»؛ أي تلك السلع التي لا تخضع للقواعد التقليدية للعرض والطلب، بل تُطلب بسبب ارتفاع ثمنها، وليس رغمًا عن هذا الارتفاع.

1- Elizabeth Bernstein, ‘What’s wrong with prostitution? What’s right with sex work? Comparing markets in female sexual labor’ , Hastings Women’s Law Journal 10 (1999): 91.
2- Emily Bazelon, Times, 5 May 2016. ‘Should prostitution be a crime?’ , New York.
3- https://quillette.com/2019/11/16/thorstein-veblens-theory-of-the-leisure-class-a-status-update /

لكن مع مرور الوقت، ومع تحوّل السلع الفاخرة إلى منتجات أسهل تصنيعًا وأكثر إتاحة، لم يعد بوسع الأثرياء الاعتماد عليها وحدها لإظهار تفوّقهم الطبقي، فاضطروا إلى البحث عن «سلع فيبلنية» جديدة. وهنا، كما يكتب «هندرسون»، تمّ نقل المكانة الاجتماعية من عالم السلع إلى عالم المعتقدات:

> لقد فصل الأثرياءُ المكانةَ الاجتماعية عن السلع، وأعادوا ربطها بالمعتقدات... والمنطق هنا يشبه منطق الاستهلاك الاستعراضي: فإذا كنتَ طالبًا تحصل على دعم مالي كبير من والديك، وأنا لا، يمكنك أن تتحمّل إهدار ٩٠٠ دولار بينما لا أستطيع أنا ذلك، وبالتالي فإن ارتداء معطف من علامة (Canada Goose) يصبح وسيلة لإعلان تفوقك المالي ومكانتك الاجتماعية. وبالطريقة نفسها، فإن الترويج لسياسات ستكلّفك، بوصفك فردًا من الطبقة العليا، أقل بكثير مما ستكلّفني أنا، يؤدي الوظيفة ذاتها.

في الدوائر النخبوية للإعلام، والمنظمات غير الحكومية، والجامعات المرموقة، يمنح ترديد عبارات مثل «العمل الجنسي هو عمل» مكانةً للمتحدث. فهي توحي بانفتاح ذهني رائع، وبموقف متمرّد على المعايير الجنسية البرجوازية، وبعلاقة متعاطفة مع الصورة المتخيَّلة لـ «عاملة الجنس» — أي رائدة أعمال مستقلة لا تمانع الجنس في حد ذاته، لكنها تعترض على تدخل الدولة في نشاطها.

وغالبًا ما يشارك أنصار هذا المعتقد وسومًا على تويتر مثل #supportsexworkers و#decrimnow، ويطالبون من يخالفهم الرأي بأن «يستمع إلى عاملات الجنس». لكن هؤلاء في العادة لم يلتقوا قط، ولم يتحدثوا، مع أي شخص عاش دعارة العشرين دولارًا، أو ربما حتى دعارة المئتي دولار. غير أن مصطلح «عاملة الجنس» يدمج هاتين الفئتين المختلفتين في تصنيف واحد، مما يجعل الفوارق الطبقية بينهما سهلة الإخفاء.

غير أن هذا الدمج اللغوي لا يُلغي الفوارق الطبقية الواقعية. فالدعم لإلغاء تجريم الدعارة وقبولها في المجتمع قد لا يبدو، ظاهريًا، «معتقدًا فاخرًا»، لأن أنصاره يستخدمون عادةً لغة القمع والتهميش. إلا أنه في جوهره معتقد فاخر، لأن تكاليف هذه السياسات لا تتحمّلها الطبقات العليا التي تكتسب مكانة رمزية من التعبير عن دعمها لها، بل تتحمّلها الطبقات الدنيا — وغالبًا النساء — وهن الأكثر احتمالًا لأن ينتهين فعليًا داخل صناعة الجنس.

إن إلغاء تجريم صناعة الجنس أو تشريعها يؤدي إلى زيادة الطلب على الجنس التجاري. ففي البلدان التي اعتمدت هذه النماذج القانونية، ترتفع نسبة الرجال الذين سبق لهم شراء الجنس، كما تتوسع صناعة السياحة الجنسية. وبما أن عدد النساء اللواتي سيدخلن تجارة الجنس طوعًا ضئيل جدًا، فإن نمو الطلب يستدعي البحث عن نساء غير راغبات لتلبية هذا الطلب.

وعلى المستوى العالمي، تُنتج البلدان الفقيرة «السلعة»، بينما توفّر البلدان الغنية الطلب. فبيوت الدعارة في المملكة المتحدة وهولندا وألمانيا تضم أعدادًا كبيرة من النساء القادمات من الأجزاء الفقيرة من الاتحاد الأوروبي، ولا سيما رومانيا، إضافة إلى نساء من غرب أفريقيا وجنوب شرق آسيا،[١] بعضهن جرى الاتجار بهن قسرًا، بينما توجد أخريات نتيجة أشكال مختلفة من الفقر. وفي المقابل، تمتلئ بيوت الدعارة في بانكوك، التي تستهدف السياح، بمشترين للجنس من أوروبا وأستراليا وأمريكا الشمالية. ويميل المشترون إلى امتلاك بشرة أفتح لونًا من بائعات الجنس، لأن الجنس يُباع في اتجاه واحد فقط على طول التدرّج الاقتصادي.

عند التجوّل في حي باتبونج (Patpong)، أحد أشهر أحياء الجنس في مدينة بانكوك، سترى عددًا كبيرًا من الرجال البيض. وكان الحال نفسه إبّان حرب فيتنام (Vietnam War)، حين كانت بانكوك إحدى الوجهات المفضّلة لقضاء أسبوع «الراحة والتعافي» (R&R) للجنود الأمريكيين: والذي يسمى رسميًا «الراحة والتعافي» (Rest & Recuperation)، ويسمى بشكل غير رسمي «اغتصاب ثم فرار» (Rape & Run).[٢]

وتشرح المؤرخة «ميريديث لير» (Meredith Lair) كيف منح الجيش الأمريكي، خلال الحرب، قبولًا ضمنيًا لممارسة الدعارة:

> في صالونات التدليك ذات التسميات التلطيفية، وفي الحمّامات البخارية المنتشرة في أنحاء جنوب فيتنام، كان بإمكان الجنود الحصول على الجنس الفموي أو الجماع مقابل دولارين فقط. وكانت السلطات العسكرية تتغاضى عن بيوت الدعارة داخل القواعد الأمريكية، مكتفيةً بإيماءة ولمحة، مع تقديم الرعاية الطبية لكلٍّ من النساء المومسات والزبائن، وهو ما أرسل رسالةً قويةً إلى الجنود

1- http://www.streetlight.uk.com/the-facts /

2- Meredith H. Lair, Armed with Abundance: Consumerism and Soldiering in the Vietnam War. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2011, p. 207.

الأمريكيين مفادها أن استغلالهم للنساء الفيتناميات لم يكن عاديًا فحسب، بل كان أيضًا مُجازًا به بوصفه مكافأة إضافية على عام كامل من الخدمة.

ولا تزال وجهات السياحة الجنسية حتى اليوم تتكدّس حول القواعد العسكرية الأمريكية. ففي كوريا، تتمركز آلاف النساء — من بينهن نحو خمسة آلاف فلبينية، وعدد أكبر من الروسيات — في محيط هذه القواعد، مع وجود ضغط متزايد من أجل «استيراد» نساء أصغر سنًا، ومن خلفيات تُوصَف بأنها أكثر «غرابة»، لتلبية الطلب على التنوع.[١]

وكان مسؤولو الجيش البريطاني في ثمانينيات القرن التاسع عشر، الذين قاموا بتأمين شابات هنديات لجنودهم، إنما يتصرّفون وفق نمط تاريخي قائم وموجود.

كثير من مشتري الجنس يتّسمون بعنصرية عميقة، ولا يبذلون أيَّ جهد لإخفاء ذلك، بل يتحدثون علنًا وبألفاظ فظة عن ازدرائهم للنساء اللواتي يشترون منهن الجنس. ففي كلٍّ من المراجعات المنشورة على الإنترنت والمقابلات مع الباحثين، يحتل العِرق موقعًا بارزًا في تقييمات المشترين لــ «المنتَج». وليس من النادر العثور على عبارات عنصرية بغيضة، مثل الاختصار LBFM («آلات جماع ذات جسم صغير») المستخدم للإشارة إلى نساء جنوب شرق آسيا اللواتي تكون بنيتهن الجسدية ضعيفة نسبيًا.

ويقول أحد مشتري الجنس في لندن: «وضعت قائمة في ذهني. قلت لنفسي إنني سأكون مع أعراق مختلفة، مثل اليابانيات، والهنديات، والصينيات... وبعد أن أكون معهن أشطب أسماءهن من القائمة. الأمر أشبه بقائمة تسوّق».[٢]

يبدي بعضُ المدافعين عن إلغاء التجريم أو التقنين قدرًا من التفاؤل تجاه هذه الديناميكيات القائمة على العِرق، مشيرين إلى أن هناك صناعات أخرى تعتمد بدرجة كبيرة على العمالة المهاجرة. ومع أنهم يعترفون بأن بيع الجنس محفوف بالمخاطر — إذ إن معدل القتل بين النساء في الدعارة أعلى بكثير منه بين غير المشتغلات بها،[٣] فضلًا عن معدل مرتفع وصادم

1- https://sisyphe.org/spip.php?article2475
2- Bindel, The Pimping of Prostitution, p. 132 .
3- S. Cunningham, T. Sanders, L. Platt et al., 'Sex work and occupational homicide: analysis of a U.K. murder database' , Homicide Studies 22 (2018): 321–38 .

للوفيات الناتجة عن تعاطي المخدرات والكحول[1] — فإنهم يؤكدون أن هذا ليس المجال الوحيد الذي ينطوي على مخاطر.

فـ «بروك ماجنانتي» (Brooke Magnanti)، على سبيل المثال، التي كانت تعمل سابقًا كمرافقة للرجال، تكتب تحت الاسم المستعار (Belle de Jour)، تقارن العمل في بيع الجنس بالعمل في صيد أعماق البحار — كلاهما خياران خطِران، نعم، لكن كليهما، في رأيها، شكلان مشروعان من أشكال العمل.[2]

وعندما يُدفَع هذا التصور إلى نهايته المنطقية، نصل إلى لغة أعمال معقّمة تُفرض على بيت الدعارة أو الزقاق الخلفي. ففي الكتابات الأكاديمية التي تسعى إلى فرض هذا الإطار، يُعاد توصيف نشاط القواد ومديرات البيوت بوصفه «إدارة العمل الجنسي»،[3] ويُعاد تعريف الاغتصاب باعتباره «خرقًا للعقد»،[4] بينما تُصنَّف مظاهر العنف، والحمل، والمرض على أنها «مخاطر صحية مهنية».[5]

ويُطمَس رعب ما يحدث فعليًا عن قصد، لأن هذا الإطار لا يفترض بنا أن نشعر بالرعب أصلًا. أما الموقف الليبرالي «العقلاني»، فيتمثل في مقاومة هذه الاستجابات العاطفية، والنظر إلى الدعارة بوصفها لا تختلف كثيرًا عن صيد أعماق البحار، مع إضافة طبقة زائدة من الوصم عديم الجدوى — بوصفه مجرد بقايا من عصور أقل «استنارة».

*****

إعادة توزيع الجنس

1 John J. Potterat, Devon D. Brewer, Stephen Q. Muth et al., ‘Mortality in a long-term open cohort of prostitute women’ , American Journal of Epidemiology 159 (2004): 778–85 .

2- Brooke Magnanti, The Sex Myth: Why Everything We’re Told Is Wrong. London: Weidenfeld & Nicolson, 2012 .

3- Tiggey May, Alex Harocopos and Michael Hough, For Love or Money: Pimps and the Management of Sex Work. London: Home Office, 2000 .

4- S. Adriaenssens and J. Hendrickx, ‘What can internet data tell about safe work? Unsafe sex and contract breach as proxies of quality of work in prostitution’ , COST ProsPol Action meeting, Ljubljana, 2016 .

٥- المصدر نفسه.

طوال هذا الكتاب، استخدمتُ مصطلح «نزع السحر الجنسي» (sexual disenchantment) لوصف أمرين في آنٍ واحد: عملية تاريخية من جهة، وادّعاء سياسي من جهة أخرى. وقد استعرتُ هذا المصطلح من «آرون سيباريوم» (Aaron Sibarium)، الذي يكتب:

> في الماضي، كانت الأنظمة الجنسية تفرض قيودًا على من يمكنه ممارسة الجنس مع مَن، ولأي غاية. أمّا اليوم، فتُهاجَم هذه القيود بوصفها متخلّفة واستبدادية، مع وعد — على غرار الليبرالية الكلاسيكية — بترك الأفراد يفعلون ما يشاؤون.
>
> فالزواج، وعلاقة لليلة واحدة، وعلاقة ثلاثية، وعلاقة عابرة، وبيت دعارة: جميعها تُقدَّم بوصفها وسائل متساوية المشروعية للحصول على الجنس، الذي لا يُفترض أن تكون له قيمة جوهرية في ذاته تتجاوز ما يضفيه عليه بالغون راضون. وإذا كانت الثورة العلمية قد نزعت السحر عن العالم، على حدّ تعبير «ماكس فيبر» (Weber)، فإن الثورة الجنسية قد نزعت السحر عن الجنس نفسه، من خلال تحريره من القيود التنظيمية.[١]

تُدرج النسوية الليبرالية «نزع السحر الجنسي» بوصفه مبدأً أساسيًا من مبادئها، وتُصرّ على أن النظر إلى الجنس اليوم باعتباره بلا قيمة جوهرية — في عصر ما بعد الثورة الجنسية — هو أمر إيجابي. غير أن الواقع العملي يُظهر أن النساء النسويات الليبراليات لا يتصرّفن، في الغالب، كما لو كنّ يؤمنّ فعلًا بحقيقة هذا «النزع للسحر». وفي الحقيقة، يكاد لا يفعل ذلك أحدٌ.

وغالبًا ما يُستدعى مفهوم نزع السحر الجنسي من قِبل من يدعمون تقنين الدعارة أو إلغاء تجريمها. ومن الشائع سماع أنصار هذا الموقف يقارنون «العمل الجنسي» بأشكال أخرى من العمل، ثم يتحدّون منتقديهم أن يبيّنوا الفارق. وتنجح هذه الحيلة الخطابية فقط لأنها تعتمد على قبول جماعي مسبق بفكرة نزع السحر الجنسي. فإذا أردتَ أن تكون «ليبراليًا صالحًا»، فلا يُفترض بك أن تؤمن بأن للجنس أي خصوصية تجعله مختلفًا عن أيِّ أفعال بشرية أخرى.

ومع ذلك، حتى أكثر الليبراليين التزامًا بهذه المبادئ يشعرون بأن الجنس يظل مختلفًا على نحو ما، حتى إن عجزوا عن التعبير عن هذا الاختلاف بوضوح. فالناس يهتمون إذا مارس شريكُهم الجنس مع شخص آخر، وليس فقط لأن ذلك ينطوي على خرق وعد. ونظرة سريعة إلى

---

[١] /https://americancompass.org/the-commons/three-theses-about-cuties

أي منتدى إلكتروني معنيّ بتعدّد العلاقات تكشف عددًا كبيرًا من الأشخاص الذين يحاولون بجدية ممارسة «اللا-أحادية الأخلاقية» (ethical non-monogamy)،[١] ومع ذلك يعانون من عذاب الغيرة الجنسية.

كما يدرك الناس بشكل فطري أن مديرًا يطلب ممارسة الجنس الفموي مقابل ترقية يختلف اختلافًا جوهريًا عن مدير يطلب ساعات عمل إضافية مقابل الترقية نفسها. ويبدو لي مُحيّرًا أن عددًا كبيرًا من النسويات الليبراليات اللواتي يدافعن بحماسة عن شعار «العمل الجنسي هو عمل» يكنّ شديدات الحساسية تجاه أي إيحاء بعدم اللياقة الجنسية داخل أماكن عملهن. فهؤلاء النساء ينفرن من دعوة زميلٍ ذكرٍ إلى العشاء، أو من لمسةٍ عابرةٍ على الذراع أو الساق، ويصفن مثل هذه الأفعال بأنها «تحرّش جنسي». لكن إذا كان هذا يُعد تحرّشًا جنسيًا، فكيف ينبغي لنا إذن أن نصف ما يحدث داخل بيوت الدعارة؟

وبنبرة ساخرة، أشتبه في أن هذا التباين في المواقف تجاه هذين النوعين من «أماكن العمل» يعود في جوهره إلى المصلحة الذاتية. ولا أقصد بذلك الادعاء بأن النساء من الطبقتين الوسطى والعليا لا يتحمّلن كلفة الثورة الجنسية — فهنّ يتحمّلنها بالفعل. كما أن ثقافة العلاقات العابرة (hook-up culture) لها آثار ضارّة في أفضل جامعات أمريكا وبريطانيا، كما أن شركاء النساء المتمتعات بامتياز اقتصادي معرّضون للإدمان على الإباحية بقدر أي رجل آخر.

لكن هناك أشكالًا معيّنة من الأذى الجنسي تكون أشدّ خطرًا بكثير على الأشخاص الذين يجتمع فيهم كونهم صغار السن، وإناثًا، وفقراء في الوقت نفسه. والدعارة واحدة من هذه الأشكال. ومن اللافت أنه عندما يُحتمل أن تمسّ العواقب المدمّرة لنزع السحر الجنسي نساءً لسن عادةً معرّضات للانخراط في الدعارة، فإن هذا التناقض ينكشف بوضوح.

فعلى سبيل المثال، شهدت السنوات الأخيرة غضبًا إعلاميًا واسعًا ردًّا على حالات قيام مُلّاك عقارات بعرض خيارات «الجنس مقابل الإيجار» على شابات يبحثن عن سكن. وتصف مجلات ليبرالية مثل مجلة (Glamour) هذه العروض بأنها «مقزّزة» و«مُرعبة»،[٢] في حين تأسف صحيفة الجارديان لكونه «لا يُفعل ما يكفي» لملاحقة مُلّاك العقارات الذين ينشرون مثل هذه

١- «اللا-أحادية الأخلاقية» (ethical non-monogamy): هي ممارسة علاقات عاطفية أو جنسية متعددة، لكن بطريقة يُدَّعى أنها أخلاقية ومتفق عليها بين جميع الأطراف. (المترجم)

2- http://www.glamourmagazine.co.uk/article/sex-for-rent

الإعلانات.[1] وقد تعهّد حزب العمال (Labour Party) باتخاذ إجراء إذا عاد إلى الحكم، عبر إدخال جريمة محدّدة تتعلّق بعرض «الجنس بدل الإيجار»،[2] كما يدعم الديمقراطيون الليبراليون (Liberal Democrats) هذه الدعوة إلى تشريع جديد.[3]

وتشير متحدثة باسم مؤسسة (Rape Crisis England & Wales) إلى أن «الموافقة على ممارسة الجنس تحت ضغط الخوف من التشرد، أو مقابل الحق الأساسي في امتلاك مكان للعيش، لا تعادل الموافقة الصادرة عن اختيار حر... فأي نشاط جنسي من دون رضا يُعد جريمة جنسية خطيرة جدًا». ومع ذلك، فإن هذه منظمة نسوية تصرّح على موقعها الإلكتروني بأن «مجرد كونك منخرطًا أو سبق لك الانخراط في صناعة الجنس لا يعني بالضرورة أنك قد تعرّضت لعنف جنسي»،[4] — أي إن بيع الجنس مقابل المال يمكن أن يتم برضا، لكن بيع الجنس مقابل الإيجار لا يمكن.

وفي الوقت الذي يُظهر فيه كلٌّ من حزب العمال والديمقراطيين الليبراليين اشمئزازًا واضحًا من ظاهرة «الجنس مقابل الإيجار»، فإن الأخيرين يؤيدون رسميًا إلغاء تجريم بيع الجنس مقابل المال،[5] وقد صرّح الزعيم السابق لحزب العمال — «جيريمي كوربين» (Jeremy Corbyn) — بأنه يعتبر إلغاء تجريم صناعة الجنس الخيار «الأكثر تحضّرًا».[6]

لماذا يُفترض أن يُلغى تجريم تبادل الجنس مباشرة مقابل المال ويُنزَع عنه الوصم، بينما لا يُفترض الأمر نفسه عندما يكون تبادل الجنس مقابل السكن؟

نحن جميعًا نتعامل براحة تامة مع فكرة أن للإيجار قيمة نقدية واضحة، حين يتعلّق الأمر مثلًا بالتفاوض على عقود المربّيات. سامحوني إن بدوت ساخرة، لكن ألا يمكن أن يكون السبب هو أننا نعيش حاليًا أزمة سكن حقيقية، جعلت شابات من الطبقة الوسطى — وخصوصًا بنات السياسيين والصحافيين — يشعرن حديثًا بقلق فعلي بشأن قدرتهن على دفع الإيجار؟

1- http://www.theguardian.com/money/2018/apr/02/sex-for-rent-accommodation-rogue-landlords-campaign
2- http://www.landlordzone.co.uk/news/labour-seeks-mps-support-for-specific-offence-of-sex-for-rent /
3- https://twitter.com/libdems/status/1221842805607276545?lang=en
4- http://www.rasasc.org.uk/e-newsletter/outreach-with-women-in-sex-work /
5- http://www.libdems.org.uk/f9_towards_safer_sex_work
6- http://www.theguardian.com/politics/2016/mar/04/jeremy-corbyn-decriminalise-sex-industry-prostitution

ويزداد هذا القلق حدةً بفعل التغطية الإعلامية التي تسلّط الضوء كثيرًا على هشاشة الطلاب أمام عروض «الجنس مقابل الإيجار»، مع الإشارة إلى العثور على «عروض قذرة» في مدن جامعية متعددة، من بينها أوكسفورد وبريستول وبرايتون — وهي مدن تضم بعض أعرق الجامعات في المملكة المتحدة.[١]

أو خذ مثالًا آخر على تناقض النسوية الليبرالية، يتمثل في حالة الذعر المحيطة بما يُعرف بــ الإنسيلز (incels): وهم رجال عزّاب قسرًا يجتمعون عبر الإنترنت للتذمر من فشلهم في جذب شريكات عاطفيات. ففي عام ٢٠١٨، نشر الاقتصادي التحرري «روبن هانسون» (Robin Hanson) تدوينة عبّر فيها عن تعاطفه مع هؤلاء الرجال، قائلًا:

> يمكن للمرء أن يجادل — على نحو يبدو معقولًا ضمن هذا المنطق — بأن الأشخاص الذين يعانون من نقص شديد في الوصول إلى الجنس يعانون معاناة تشبه معاناة ذوي الدخل المنخفض. وبناءً على ذلك، قد يسعون — كما يفعل الفقراء اقتصاديًا — إلى تنظيم أنفسهم حول هذه الهوية، من أجل الضغط لتحقيق نوع من «إعادة التوزيع» على هذا الأساس، بل وقد يلوّحون، ولو ضمنيًا، باستخدام العنف إذا لم تُستجب مطالبهم. ووفقًا لهذا الطرح، يمكن أن يتم هذا التعويض إمّا عبر إتاحة الجنس نفسه بشكل مباشر، أو عبر إعادة توزيع المال بوصفه تعويضًا عن هذا الحرمان الجنسي.[٢]

وقد أثارت هذه الأفكار موجة غضب عارمة في وسائل الإعلام التقدمية. تساءلت مجلة (Slate) عمّا إذا كان «هانسون» هو «أكثر اقتصاديي أمريكا إثارة للاشمئزاز»،[٣] فيما عبّرت «مويرا دونيجان» (Moira Donegan) في مجلة (Cosmopolitan) عن سخطها الشديد، قائلة:

> في صميم أيديولوجيا الإنسيل تكمن فكرة أن ممارسة الجنس مع شخص آخر — وبالتحديد الجنس الكامل مع النساء — ليست امتيازًا للرجال، بل حقًّا لهم. ويتحدث الإنسيلز عن الجنس مع «ستيسيز» (Stacys)، وهو مصطلحهم للنساء الجذّابات، بالطريقة نفسها التي يتحدث بها أشخاص أكثر عقلانية عن الطعام

1- http://www.dailymail.co.uk/news/article-9105215/Preyed-sex-rent-landlords-Men-touting-rooms-exchange-sexual-favours.html
2- http://www.overcomingbias.com/2018/04/two-types-of-envy.html
3- https://slate.com/business/2018/04/economist-robin-hanson-might-be-americas-creepiest-professor.html

والماء والمأوى: بوصفه ضرورة أساسية للبقاء... النساء لسن سلعًا، ولسن قابلات للمقايضة والاستبدال.[1]

ومن الواضح أنني أوافق على هذا الموقف. لا أرى أن الإنسيلز مستحقون لأي وصول جنسي إلى أي شخص، سواء أُعيد توزيع المال بوصفه تعويضًا أم لا. لكن يجدر بنا الانتباه إلى الفرق اللافت في النبرة بين عبارات من قبيل «نحن لا ندين لكم بالجنس» أو «أعضاؤنا التناسلية ليست حقًا لكم»، وبين اللغة المستخدمة في مقالات تقدمية أخرى حول «العمل الجنسي»، بما في ذلك نصوص كتبتها «دونيجان» نفسها أو نُشرت في مجلتي (Slate) و(Cosmopolitan).

فعندما تكون السلامة الجنسية للنساء المُستغَلّات في الدعارة هي موضع النقاش، تسود براغماتية قاسية، ولا ينشغل النسويون الليبراليون إلا بتقليل الضرر الناتج عن الوصم الاجتماعي. أما عندما تكون أجساد نساء غير منخرطات في الدعارة معرّضة لخطر «إعادة التوزيع»، فإن خطاب نزع السحر الجنسي يُنسى فجأة، ويحلّ محله غضب أخلاقي جامح: كيف يجرؤ الإنسيلز على الاعتقاد بأن نساء جميلات قد يمنحنهم حتى مجرد لحظة اهتمام؟

هذا الغضب يكشف عن معرفةٍ داخلية عميقة — حتى لو لم يُصرّح بها — مفادها أن الجنس يختلف جوهريًا عن غيره من أشكال التفاعل الاجتماعي، وأن بيع الجنس يختلف بطبيعته عن أي نشاط آخر. وتُلخّص «فيدنيتا كارتر» (Vednita Carter)، الناجية من الدعارة والناشطة المناهضة للاتجار الجنسي، هذه الفكرة بعبارة موجزة وواضحة:

يسألني الناس: ما الضرر المتأصل في الدعارة؟ — والجواب أن الضرر المتأصل هو الفعل الجنسي نفسه.[2]

*****

متلازمة قبضة الموت الثقافية

يُستخدم مصطلح «متلازمة قبضة الموت» (Cultural Death Grip Syndrome) بوصفه تعبيرًا شبه طبي لوصف نوع من العجز الجنسي قد ينجم عن الإفراط في استهلاك المواد

1- http://www.cosmopolitan.com/politics/a20138446/redistribution-sex-incels /
2- http://www.youtube.com/watch?v=2Y-VmuKmsP0

الإباحية. وهذه المتلازمة ليست حالة واحدة بسيطة، بل هي مشكلة مركّبة: فهي جسدية جزئيًا، إذ تنشأ عن الاستمناء العنيف الذي يؤدي إلى فقدان تدريجي للإحساس، وهي نفسية جزئيًا أيضًا، بسبب التعرّض المفرط لمحفزات جنسية شديدة الكثافة. والمصابون بهذه المتلازمة — وغالبيتهم الساحقة من الرجال — يصلون إلى مرحلة يصبحون فيها غير قادرين على ممارسة الجنس مع شخص حقيقي، لأن استجاباتهم الجنسية تكون قد خَدِرت وتبلّدت مع الوقت.

في الفصل الخامس، تناولتُ المفارقة التي تطرحها الإباحية في علاقتها بمستخدميها؛ إذ يبدو أنها، من جهة، تقلّل من رغبتهم في ممارسة الجنس مع أشخاص حقيقيين، ومن جهة أخرى، تعرّضهم في الوقت نفسه لمحفزات جنسية أشدّ وأكثر تطرفًا. وهذا التأثير المتناقض لا يظل محصورًا داخل غرفة نوم الفرد، بل يمتد إلى المجال العام. ومع ازدياد فرط المواد الجنسية في الحياة العامة، أقترح أننا دخلنا بالفعل مرحلة يمكن تسميتها «عصر متلازمة قبضة الموت الثقافية». فنحن اليوم نتعرّض يوميًا لكمٍّ هائل من الصور والإيحاءات الجنسية، إلى درجة أنها لم تعد تُحدث فينا التأثير الذي كانت تُحدثه سابقًا.

عندما أطلقت شركة (Wonderbra) حملتها الإعلانية الشهيرة «Hello Boys»، والتي ظهرت فيها العارضة «إيفا هيرزيجوفا» (Eva Herzigová) وهي تتأمل شكل صدرها الجميل، كانت هذه الملصقات ملفتة إلى حد أنها — بحسب التقارير — تسببت في حوادث سير بسبب تشتيت انتباه السائقين. كان ذلك عام ١٩٩٤. أمّا اليوم، فجرّب أن تسير في أيٍّ شارع تجاري رئيسي في بريطانيا، وأن تحصي خلال عشر دقائق عدد الصور التي تُظهر صدورًا وأردافًا بملابس داخلية: ستجدها في واجهات المحلات، وعلى جوانب الحافلات، وعلى أغلفة الصحف والمجلات.

في مركز التسوق القريب مني، تُعرض حاليًا صورة ضخمة — بطول يقارب ستة أقدام — لعارضة ترتدي لباس سباحة وتلعق داخل فم عارضة أخرى مفتوح. وهذه الصورة أكثر فجاجة بكثير من صورة «Hello Boys» عام ١٩٩٤، ومع ذلك، فمن المرجّح أنني لم أكن لألاحظها أصلًا، لأن هذا النوع من الصور بات شائعًا إلى درجة أنه أصبح جزءًا من الخلفية البصرية اليومية، أشبه بورق الجدران. وفي سوق حرة لا يقيّدها رادع أخلاقي، فإن الإغراق الجنسي هذا لا يسير إلا في اتجاه واحد، ولسبب بسيط: الجنس يبيع أكثر وينتشر، والشركات تدرك ذلك جيدًا.

وفي بعض الأحيان، يظهر عمل ثقافي يتعمّد خرق ما يُعدّ مقبولًا اجتماعيًا من أجل لفت الانتباه. ومن الأمثلة الحديثة على ذلك الفيديو الموسيقي لأغنية (Wet Ass Pussy) للمغنيتين الأمريكيتين (Cardi B) و(Megan Thee Stallion)، الذي قوبل بإشادة من معلّقين ليبراليين رأوا في إباحيته وجرأته اللفظية تعبيرًا إيجابيًا عن «الجنسانية الأنثوية»، واعتبروه — كما قال أحد كتّاب صحيفة الجارديان — احتفاءً بالأنوثة دون خجل أو اعتذار.[١]

لكن هذا «الاحتفاء» كان في حقيقته غريبًا ومثيرًا للتساؤل. فحتى لو افترضنا أن التكرار المستمر لكلمة عاهرة «whore» في كلمات الأغنية يُقصد به المعنى المجازي، فإن كثيرًا من مضمون الأغنية يوحي بنظرة تبادلية للجنس. فالرجل موضوع الشهوة يُقيَّم وفق معايير واضحين: حجم عضوه الجنسي، وحجم رصيده البنكي. تقول «ميجان» (Megan) مخاطبة هذا الرجل المتخيَّل: «ادفع أقساط دراستي»، مطالبةً إياه بأن «يمطر المال» إن كان يريد نِعَمها الجنسية. وترد عبارات مثل: «اطلب سيارة أثناء الجنس»، و«ابصق على الميكروفون» للحصول على عقد تسجيل، و«دعني أخبرك كيف حصلتُ على هذا الخاتم». وهكذا، فإن ما يُعرض بوصفه «سخاءً جنسيًا» لا يخدم متعة أنثوية بقدر ما يخدم تحقيق مكاسب مادية.

لهذا، فإن أغنية «WAP» لا تعبّر كثيرًا عن الجنس الأنثوي الحقيقي، لكنها تكشف بوضوح عن أحد أسوأ جوانب الجنس الذكري: جانبه القهري والمجرَّد من الإنسانية، وهو جانب يسهل استغلاله لتحقيق الربح. ففي حين تكاد لا توجد نساء يؤمنّ فعلًا بفكرة نزع السحر عن الجنس — حتى لو تظاهرن بذلك — توجد أقلية من الرجال تؤمن بها، ولو جزئيًا. هؤلاء يهتمون بالشباب والمظهر، لكنهم لا يكترثون كثيرًا بمَن يقذفون فيهم حيواناتهم المنوية، ولا يهمهم إن كان الطرف الآخر يستمتع أم لا. وإذا أُتيحت لهم الفرصة، فإنهم يتعاملون مع الشركاء الجنسيين كما لو كانوا فتحات بلا إحساس.

وهنا يحسن التذكير بالمذكرة الصادرة عن مكتب الجيش البريطاني عام ١٨٨٦، والمقتبسة في بداية هذا الفصل، والتي جاء فيها: «من الضروري توفير عدد كافٍ من النساء [والحرص] على أن يكنّ جذّابات بما فيه الكفاية».[٢] هذه هي نظرة الزبون إلى المسألة.

1- http://www.theguardian.com/commentisfree/2020/aug/15/cardi-b-megan-thee-stallion-wap-conservatives-female-sexuality
2- Mathers, Josephine Butler, p. 165 .

هذا النمط من الجنس الذكري يصعب على كثير من النساء فهمه، لأنه يختلف جذريًا عن الجنس الأنثوي المعتاد. غير أن من يشكك في وجوده يمكنه الاطلاع على التعليقات التي يتركها الرجال في مواقع مثل (Punternet)، المخصّصة لتقييم البغايا من منظور الزبائن. وقد قام مشروع نسوي كندي يُدعى «The Invisible Men» — وأُعيد تطبيقه لاحقًا في دول أخرى — بجمع اقتباسات من هذه المواقع لإظهار مدى ضآلة الاحترام أو الاكتراث الذي يُبديه المشترون تجاه الأشخاص الذين يشترون منهم الوصول الجنسي.[١] (وهي قراءة غير مريحة على الإطلاق.)

إن هذه الإباحية الثقافية تضع منطق هؤلاء الرجال في مركز القيادة. فهي تتبنّى — وبصراحة — رؤية سيكوباتية للجنس البشري، وتسمح لها بالتغلغل في الحياة العامة. وتتعامل مع البشر بوصفهم قابلين للاستبدال: أي يمكن إحلالهم وتبادلهم. فمن الناحية الجنسية، لا يُنظر إليهم إلا بوصفهم مجموعة من الأعضاء الجسدية. لسان يمكن أن يكون لأي شخص، يلعق داخل فمٍ يمكن أن يكون لأي شخص. هكذا يُختزل الجنس إلى أبسط آلياته الميكانيكية.

*****

«بفضل موقع OnlyFans»

لا يمكن إلا لثقافةٍ واقعةٍ تحت هيمنة أسوأ أشكال الجنسانية الذكورية أن تكون قد حوّلت صورة القضيب — ونظيراتها الأنثوية المبتورة — إلى موضوع أو شيء جنسي. لا أعرف ما الذي يتخيله الرجال أننا مطالبات بفعله مع صور قضيبهم، لكنني لا أعرف امرأةً واحدةً قد تستمني على صورةٍ جرى فيها اقتطاع بقية الجسد، بحيث لا يبقى سوى قطعة لحمٍ معزولة، جاهزة لأن تُفرد على طاولة عالم التشريح. إن الطبيعة الجنسية الأنثوية العادية لا تتجه بطبيعتها إلى هذا النوع من الصور. ومع ذلك، فإن الإنترنت يعجّ بها.

لقد انتقلت كثيرٌ من الشابات على وسائل التواصل الاجتماعي، بسلاسة ملحوظة، من نشر صور السيلفي — التي كانت قبل عقدٍ واحد فقط موضوع نقاش إعلامي واسع — إلى نشر ما يُعرف بصور «بيلفي» (belfies، أي صور المؤخرة). ويغصّ كلٌّ من إنستجرام وتيك توك، على وجه الخصوص، بصدورٍ ومؤخراتٍ شابة لنساءٍ يسعين بيأسٍ إلى نيل قدرٍ من الاهتمام الذكوري

[١] https://invisible-men-canada.tumblr.com/

الإيجابي. وبالنسبة لبعض هؤلاء النساء، قد يضعهن نشر صورٍ جنسية لأنفسهن على الإنترنت على طريق إنشاء حساب على موقع (OnlyFans)، وهي منصة تتيح لـ «صانعة» (وغالبيةُ هؤلاء نساء) كسب المال من خلال منح «المستخدمين» (وغالبيةُ هؤلاء رجال) اشتراكًا للوصول إلى محتوى عبر الإنترنت، يكون معظمه إباحيًا. وإذا كانت المرأة معتادة أصلًا على تسويق صورٍ مثيرة لنفسها مقابل «الإعجابات»، فقد لا يبدو لها تسويق تلك الصور مقابل المال الحقيقي خطوةً ذات تبعات جسيمة.

والحوافز، بلا شك، جذابة. فبين الحين والآخر، تنتشر تغريدة لصانعة على (OnlyFans) لم تكن معروفة من قبل، تعرض فيها صور المنزل الذي استطاعت شراءه «بفضل OnlyFans». غير أن الكاتب «توماس هولاندز» (Thomas Hollands)، في تحليله المُفصَّل لنموذج (OnlyFans)، يبيّن أن مثل هذه الحالات التي تنتقل من الفقر إلى الثراء نادرة للغاية. إن توزيع الدخل على المنصة شديد التفاوت، إذ إن أعلى ١٪ من الصانعات يحققن ٣٣٪ من إجمالي الأرباح. وباستخدام مؤشر جيني — وهو مقياس معياري لعدم المساواة الاقتصادية — يخلص «هولاندز» إلى أن (OnlyFans) أكثر لا مساواةً بكثير من جنوب أفريقيا، التي تُعدّ البلد الأكثر لا مساواةً في العالم.[١] إن القلة الضئيلة من الصانعات اللواتي يحققن نجاحًا ملحوظًا على المنصة هن في الغالب من المشاهير الموجودات أصلًا، ما يعني أن النساء اللواتي ينشرن قصص نجاح «بفضل OnlyFans» على وسائل التواصل الاجتماعي لا يمثّلن الصانعات العاديات، بل يشبهن أولئك الزبائن النادرين الذين يغادرون كازينو وهم مليونيرات بعد أن راهنوا بكل ما يملكون على اللون الأحمر.

في الواقع، من المرجّح أن تخسر معظم النساء على موقع (OnlyFans)، إذا ما أُخذ في الاعتبار مقدار الوقت الذي يُطلب منهن قضاؤه في صناعة المحتوى والتفاعل المستمر مع المستخدمين. فالصانعة المتوسطة لا تجذب سوى ثلاثين مشتركًا تقريبًا، لكنها تتحمل القدر نفسه من مخاطر التعرض العلني والتحرش الذي تتحمله نظيراتها الأكثر نجاحًا. ولا يشبه موقع (OnlyFans)، من حيث مستوى الخطر، الدعارة القائمة على الشارع أو بيوت الدعارة — فهو أقرب بكثير إلى دعارة الـ ٢٠٠ دولار منه إلى دعارة الـ ٢٠ دولارًا — إلا أنه مع ذلك ينطوي على

1- https://xsrus.com/the-economics-of-onlyfans

مخاطر حقيقية، تتعلق في المقام الأول بآفاق المرأة لعلاقات طويلة الأمد، وهي عنصر محوري في سعادتها على المدى البعيد.

وكما أوضحتُ في الفصل الرابع، يتخذ معظم الرجال موقفًا سلبيًا للغاية تجاه ما يعتبرونه تاريخًا من العلاقات الجنسية المتعددة لدى شريكة محتملة للزواج، حتى وإن لم يعترفوا بذلك علنًا بالضرورة. وهذا يعني أنه، رغم أن حسابًا على (OnlyFans) قد يمنح المرأة دفعة قصيرة الأمد من تقدير الذات، وربما أيضًا دخلًا نقديًا، فإنه في المقابل يُضيّق دائرة الرجال المستعدين للزواج منها، لأن (OnlyFans)، في سوق الزواج، يشبه السجل الجنائي في سوق العمل.

وهناك تكاليف أخرى تترتب على تحويل الإنسان نفسه إلى سلعة جنسية. تكتب عارضة الأزياء العالمية «إميلي راتاجكوفسكي» (Emily Ratajkowski) — التي يُنظر إليها على نطاق واسع باعتبارها واحدة من أجمل نساء العالم — في سيرتها الذاتية (My Body) عن الخلل النفسي الذي ينشأ حين يرى الإنسان نفسه دائمًا من خلال عدسة تجارية مُسَلْعَنَة. فهي، على سبيل المثال، تقول إنها تُصِرّ على مراقبة نفسها في المرآة أثناء ممارستها الجنس مع زوجها، «حتى أستطيع أن أرى أنني حقيقية».[١] وهي تدرك في الوقت نفسه أن هذا السلوك غير صحي.

لكن، في عصر تطبيقات المواعدة، لا يقتصر تشويه الجنسانية بفعل السوق الجنسي على عارضات الأزياء العالميات وحدهن. فبرنامج (Tinder) ومنافسوه لا يختلفون كثيرًا عن مواقع التسوق الإلكتروني. إذ يشجّع هذا الشكل المستخدمين على تصفّح الخيارات المتاحة، واختيار ما يفضّلونه من منازلهم، بجهدٍ ضئيل للغاية، ومن دون أي حميمية تُذكر. وفي مقال نُشر عام ٢٠١٥ عن تطبيقات المواعدة في مجلة (Vanity Fair)، يصف أحد المستخدمين الذكور النزعة النَّهِمة التي تعزّزها هذه التطبيقات قائلًا:

> الرجال ينظرون إلى كل شيء بوصفه منافسة: مَن نام مع أفضل وأكثر الفتيات جاذبية؟
>
> مع هذه التطبيقات، أنت دائمًا في حالة ترصّد. يمكنك التحدث إلى فتاتين أو ثلاث في حانة واختيار الأفضل، أو يمكنك تمرير مئات الأشخاص يوميًا — فحجم العيّنة هنا أكبر بكثير. الأمر يشبه ترتيب موعدين أو ثلاثة عبر تطبيق

1- Emily Ratajkowski, My Body. London: Quercus, 2021, p. 102.

(Tinder) في الأسبوع، وعلى الأرجح النوم معهن جميعًا، بحيث يمكنك أن تجمع مئة فتاة نمتَ معهن خلال عام واحد.

كان أحد الأشخاص الآخرين الذين أُجريت معهم مقابلات أكثر صراحة في التعبير عن نزعة الاستهلاك الجنسي لديه، إذ يقارن تطبيق (Tinder) بخدمة توصيل الطعام عبر الإنترنت — «لكنّك تطلب شخصًا».[١] وهو يرى في ذلك أمرًا إيجابيًا.

ومع ذلك، وعلى الرغم من كل هذه السهولة والراحة، يتسبّب (Tinder) لمستخدميه بمزيد من التعاسة أكثر من أي تطبيق آخر تقريبًا.[٢] وفي مثال إضافي على ما أسميه «متلازمة قبضة الموت الثقافية»، يفيد المستخدمون بأن تطبيقات المواعدة تنجح في تحويل ما يُفترض أن يكون تجربة مثيرة وممتعة إلى تجربة باهتة ومحبِطة، لأن وفرة الخيارات لا تزيد الإثارة الجنسية، بل تُفضي إلى إخمادها.

لستُ بحاجة إلى إقناع القارئ بأن الدعارة القائمة على الشارع أو بيوت الدعارة خطيرة ومُحدثة لصدمات نفسية عميقة. فإذا كنت تقرأ هذا الكتاب، فمن غير المرجّح أنك تحتاج إلى إقناع في هذه النقطة. لكن ما أراه ضروريًا هو التحذير من عواقب نزع السحر عن الجنس التي تتجاوز ما هو واضح ومباشر. وهذا يعني أنه، على المستوى الشخصي، لا يكفي أن نرفض المشاركة في صناعة الجنس ثم ننام على ظهورنا راضين عن أنفسنا. لقد أوضحتُ بالفعل أنني لا أرى إمكانية لاستهلاك الإباحية بصورة أخلاقية، وبالطبع أُطبّق القاعدة نفسها على الدعارة. غير أن رفض النظر إلى البشر بوصفهم منتجات يتجاوز هذا الموقف السلبي؛ إذ يتطلّب منا تحدّي الفكرة المنزوعة السحر عمّا ينبغي أن يكون عليه الجنس في جوهره.

إن العدد الكبير من المقالات التي تحمل عناوين مثل: «ثماني نصائح جنسية ضرورية جدًا من عاملات جنس» أو «خمس نصائح جنسية ثاقبة من عاملة جنس محترفة»[٣] يكشف عن رؤية للجنس آخذة في الانتشار على نحو مقلق. فلا يمكن لعاملات الجنس أن يُقدَّمن بوصفهن مصادر للنصيحة الجنسية إلا إذا فهمنا الجنس على أنه مجموعة مهارات تقنية يجب تعلّمها وصقلها عبر شركاء مختلفين، بحيث يكون «الجنس الجيد» نتيجة إتقان تقني، لا ثمرة حميمية

1- Quoted in James Mumford, Vexed: Ethics Beyond Political Tribes. London: Bloomsbury Continuum, 2020, pp. 77–8.

2- http://www.humanetech.com/app-ratings

3- http://www.cosmopolitan.com/sex-love/news/a48407/sex-tips-from-sex-workers /

متبادلة. وفي هذا الإطار، يصبح الجنس فعلًا يُمارَس على شخص آخر، لا تجربة تُعاش مع شخص آخر. وهكذا تُفرَّغ التجربة من بعدها العاطفي، ليبقى منطق «الزبون» هو المنتصر.

علينا مقاومة هذا المنطق بكل ما أوتينا من قوة. فإذا حاولنا الادعاء بأن الجنس لا يمتلك قيمة خاصة تميّزه عن غيره من الأفعال الإنسانية، فإننا نفتح الباب أمام عواقب شديدة الظلمة. فإذا لم يكن للجنس مكانته الأخلاقية الخاصة، فلن يكون للتحرش الجنسي أو الاغتصاب أي تميّز أخلاقي كذلك. وإذا قبلنا بأن الجنس ليس سوى خدمة يمكن بيعها وشراؤها بحرية، فلن يتبقّى لدينا أي أساس لمعارضة الـ incels الذين يطالبون «بإعادة توزيعه»، ولا لمسؤولي الجيوش الذين يسعون إلى توفير «ترتيبات مريحة» لجنودهم. وإذا لم نُبدِ أي اعتراض على مبدأ «الجنس يبيع»، فلا يحق لنا أن نستغرب حين تُغمر فضاءاتنا العامة بفرط التَجْنِيس، وحين نجد أنفسنا نتصفّح شركاء جنسيين محتملين على تطبيقات المواعدة بالطريقة نفسها التي نتصفّح بها أي سلعة استهلاكية أخرى. وما إن نسمح بفكرة أن البشر يمكن أن يُعاملوا كمنتجات، حتى يبدأ كل شيء في التآكل والانهيار.

الفصل الثامن:

الزواجُ أمرٌ جيد

أثناء عرض حجّتي ضد الثورة الجنسية، كثيرًا ما واجهتُ نوعًا معيّنًا من الإشكالات، وهو ليس حكرًا على هذا الموضوع وحده. أسمي هذا الإشكال «مشكلة التوزيع الطبيعي» (the problem of normal distribution).

يُعرَف التوزيع الطبيعي أيضًا باسم «منحنى الجرس»، لأن الشكل البياني الذي ينتجه يشبه الجرس إلى حدٍّ كبير. وهو توزيع احتمالي مستمر يتميّز بالتماثل والتشابه حول المتوسط؛ أي أن معظم القيم تتجمّع قرب الوسط، وكلما ابتعدت قيمة ما عن المتوسط، قلّ احتمال ظهورها. ويظهر هذا النمط مرارًا في العلوم الطبيعية: فأحجام رقائق الثلج، وأعمار المصابيح الكهربائية، وكميات الحليب التي تنتجها الأبقار، كلها تتبع توزيعًا طبيعيًا.[1] وينطبق الأمر نفسه على كثير من الصفات الجسدية البشرية، مثل الطول، ومقاس الحذاء، ووزن المولود عند الولادة.

أما الظواهر الاجتماعية فهي أكثر تعقيدًا بعض الشيء، ومع ذلك يظل التوزيع الطبيعي في كثير من الأحيان تقريبًا معقولًا لما نلاحظه في المجتمعات البشرية. فالسوسيوجنسية، على سبيل المثال — أي الميل إلى التنوّع الجنسي — تقترب من أن تكون موزعة توزيعًا طبيعيًا. فمعظم الناس يقعون قرب المتوسط، بينما تظهر أقلية صغيرة عند أحد الطرفين أو كليهما: بعض الأشخاص لا يبدون أي اهتمام يُذكر بالجنس العابر، في حين يوجد آخرون شديدو الشهوة إلى حدٍّ استثنائي. والمهم هنا — كما أوضحتُ سابقًا في الفصل الثاني — أن منحنى الجرس الخاص بالرجال يختلف قليلًا عن منحنى النساء؛ إذ يميل متوسط الرجال أكثر نحو الطرف الأعلى من طيف السوسيوجنسية. وهذا يعني أن عدد الرجال شديدي الرغبة الجنسية أكبر بكثير من عدد

1- Aidan Lyon, 'Why are normal distributions normal?' , British Journal for the Philosophy of Science 65 (2014): 621–49.

النساء شديدات الرغبة، وفي المقابل فإن عدد النساء شديدات العزوف الجنسي أكبر من عدد الرجال شديدي العزوف.

وتكمن «مشكلة التوزيع الطبيعي» في الآتي: عندما يُفرض تغيير ما على مجتمعٍ بأكمله، فإن الناس لا يتأثرون هذا التغيير بالطريقة نفسها. ومن الصعب للغاية — بل شبه المستحيل — تصميم سياسة تؤثّر في فئة واحدة فقط عند نقطة محددة من المنحنى، من دون أن تمتد آثارها إلى بقية المنحنى. وعندما نتحدث عن حدث تاريخي واسع النطاق مثل الثورة الجنسية — وهو حدث لم يخطط له أحدٌ ولم يتنبأ به أحدٌ على نحو كامل — تصبح هذه اللادقة في النتائج أكثر وضوحًا وحدّة.

الرضا الزوجي، بدوره، يتوزّع (تقريبًا) توزيعًا طبيعيًا.[١] فمعظم الناس يصفون زيجاتهم بأنها مُرضية إلى حدٍّ معقول، في حين تُبلِغ أقلية عن سعادة كبيرة جدًا، وأقلية أخرى عن تعاسة شديدة.

في الماضي، كان الطلاق بالغ الصعوبة حتى بالنسبة للأزواج الذين يعيشون تعاسة حقيقية. تصف الصحفية «ميجان مكاردل» (Megan McArdle) عملية الحصول على الطلاق في الولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر على النحو التالي:

> كان الأمر يستغرق سنوات طويلة، ويكلّف مبالغ كبيرة، ويتطلب إثبات أن الزوج قد هجر زوجته لفترة طويلة دون أي دعم مالي؛ أو — إذا كان الزوج رجلًا — أنه لم يكن يلهو سرًّا فحسب، بل كان يجاهر بعلاقاته علنًا؛ أو أنه لم يكن يضرب زوجته أحيانًا حين تحتدّ المشادات، بل كان ينهال عليها ضربًا بشكل متكرر حتى شارفَت على الهلاك.
>
> وبعد إتمام الطلاق، كانت المرأة تصبح منبوذة اجتماعيًا في كل مكان تقريبًا باستثناء أكبر المدن. وإذا كانت امرأة تعرّضت لظلم بالغ، فقد تلجأ إلى تغيير اسمها، فتتخذ اسم عائلتها قبل الزواج اسمًا أول لها، وتُبقي على لقب زوجها، في إشارة إلى أنها تتوقع أن تواصل العيش كما لو كانت لا تزال متزوجة — أي بعفة وانضباط — وأن تحافظ على حدٍّ أدنى من العلاقات الاجتماعية مع

1- H. J. Eysenck and James A. Wakefield, 'Psychological factors as predictors of marital satisfaction' , Advances in Behaviour Research and Therapy 3 (1981): 151–92.

الجيران. ومع ذلك، لم يكن يُدعى أمثالها إلى المناسبات الكنسية أو السهرات الاجتماعية.

أما النساء المتمتعات بأمان مالي، فكنّ — وهذا توصيف دقيق لا مبالغة فيه — يهاجرن في الغالب إلى أوروبا. فقد انتقلت «إديث وارتون» (Edith Wharton) إلى باريس بعد طلاقها، وكتبت لاحقًا نصوصًا مؤثرة تصف فيها الكيفية التي كانت تُقصى بها النساء المطلقات ويُنبَذن اجتماعيًا في أوطانهن.[١]

إذا سعى شخصٌ إلى الطلاق خلال تلك الحقبة، فكان ذلك — في الغالب — لأنه كان يقع في أقصى الطرف التعيس من «التوزيع الطبيعي» للسعادة الزوجية. وبالتالي — ولا أظن أن في هذا ما يثير الجدل — كان مستحقًا للمساعدة والتعاطف. وهذا بالفعل ما تبنّاه المصلحون الاجتماعيون الذين بدأوا، في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، حملاتٍ تطالب بتحرير قوانين الطلاق.

فابتداءً من ستينيات القرن العشرين تقريبًا، وفي مختلف أنحاء العالم الغربي، أصبح الحصول على الطلاق أسهل بكثير. وتحرر أشخاص كُثُر كانوا عالقين قانونيًا في زيجات قاسية لا تُطاق، وكان ذلك تطورًا إيجابيًا بلا شك. غير أن ما تلا ذلك كشف عن مشكلة «التوزيع الطبيعي».

فعند الرجوع إلى النقاشات البرلمانية التي سبقت إقرار قانون إصلاح الطلاق لعام ١٩٦٩ — وهو التشريع الأساسي الذي حرّر قوانين الطلاق في المملكة المتحدة — لا يبدو أن مؤيدي القانون كانوا يدركون تمامًا ما الذي سيترتب عليه لاحقًا. لقد اعتقدوا أن إصلاحاتهم ستُقدَّم كفعل رحمة موجَّه إلى العدد القليل من الأشخاص الواقعين في الطرف التعيس من المنحنى، بينما سيظل بقية التوزيع على حاله دون تأثر.

وقد صرّح «اللورد ستو هيل» (Lord Stow Hill)، المدعي العام السابق، قائلًا: «إن هذا القانون لا يفتح الباب أمام الطلاق السهل. فهذا الباب مفتوح بالفعل، بموجب القانون القائم، ومن الصعب أن يُفتح على نحو أوسع من ذلك».[٢]

1- https://web.archive.org/web/20050406215537/http://www.janegalt.net/blog/archives/005244.html
2- Hansard, House of Lords debates, vol. 303, col. 297, 30 June 1969.

لكن الواقع أثبت أن الباب قد انفتح فعلًا. ففي العقد الذي أعقب صدور قانون إصلاح الطلاق، تضاعف عدد حالات الطلاق ثلاث مرات، ثم واصل الارتفاع ليبلغ ذروته في ثمانينيات القرن العشرين.[١] ومنذ ذلك الحين، شهدت معدلات الطلاق انخفاضًا طفيفًا، لا بسبب عودة حقيقية إلى استقرار الزواج طويل الأمد، بل لأن الطلاق بات أقل شيوعًا ببساطة لأن الزواج نفسه أصبح أقل شيوعًا. فلا يمكن الطلاق إذا لم يحدث الزواج أصلًا، ومعدلات الزواج اليوم عند أدنى مستوياتها تاريخيًا.[٢]

في عام ١٩٦٨، وُلد ٨٪ من الأطفال لآباء غير متزوجين؛ أما في عام ٢٠١٩، فقد اقتربت النسبة من ٥٠٪.[٣] واليوم، لا يوجد في المملكة المتحدة سوى زيجتين فقط مقابل كل حالة طلاق سنويًا.[٤] وبذلك، فإن مؤسسة الزواج — كما كانت تُعرَف سابقًا — أصبحت إلى حدٍّ كبير شبه منتهية.

وفي الولايات المتحدة، تبدو الصورة أكثر قتامة. فقرابة نصف الزيجات تنتهي بالطلاق،[٥] كما ظهرت فجوة طبقية جديدة وواضحة. فقبل سبعينيات القرن العشرين، كان معظم الأميركيين يتزوجون ويستمرون في زواجهم، بغضّ النظر عن مستوى دخل الأسرة. أما اليوم، فإن ٦٤٪ من الأميركيين الواقعين ضمن الثلث الأعلى من الدخل يعيشون في زيجات مستقرة، أي أنهم تزوجوا مرة واحدة فقط ولا يزالون في زواجهم الأول. وعلى النقيض من ذلك، لا تتجاوز هذه النسبة ٢٤٪ بين الأميركيين في الثلث الأدنى من الدخل.[٦] وهكذا، بات الزواج المتين طويل الأمد يتحول سريعًا إلى امتياز أو «ترف» خاص بالطبقات العليا.

وبالطبع، لا يمكن إنكار أن بعض الزيجات ينبغي أن تنتهي، وفي مثل هذه الحالات كان تحرير قوانين الطلاق نعمة حقيقية. فمع أن النساء المتزوجات لسنَ أكثر عرضة للعنف الأسري

1- Gavin Thompson et al., Olympic Britain: Social and Economic Change since the 1908 and 1948 London Games. London: House of Commons Library, 2011 .

2- http://www.independent.co.uk/news/uk/home-news/marriage-rate-uk-latest-figures-lowest-record-ons-a9464706.html

3- Births in England and Wales: summary tables, Office for National Statistics, Release date: 22 July 2020 .

4- Thompson et al., Olympic Britain .

5- http://www.nytimes.com/2005/04/19/health/divorce-rate-its-not-as-high-as-you-think.html

6- https://ifstudies.org/blog/the-marriage-divide-how-and-why-working-class-families-are-more-fragile-today

من غير المتزوجات — بل تشير البيانات إلى العكس[1] — إلا أنه من الواضح أن من الأفضل ألا تواجه الزوجات المُعنَّفات عوائق قانونية جسيمة عندما يحاولن مغادرة أزواجهن. لقد كان الطرف الأشد تعاسة من منحنى السعادة الزوجية بحاجة فعلية إلى الطلاق، وقبل إصلاحات منتصف القرن العشرين، لم يكن هذا الخيار متاحًا له في كثير من الأحيان.

لكن مشكلة «التوزيع الطبيعي» جعلت من المستحيل أن تُصيب هذه الإصلاحات الحالات القصوى وحدها إصابةً دقيقة. فمعظم حالات الطلاق الحديثة ليست نتيجة عنفٍ منزلي،[2] بل تنطوي غالبًا على زوجين تباعدا مع الوقت، وخفَت بينهما الحبُ، ويسعيان إلى بداية جديدة. غير أنّ وعد العلاقات البديلة الأكثر سعادة لا يتحقق في كثير من هذه الحالات، ولا سيما بالنسبة إلى النساء، اللواتي يكنّ أكثر عرضة من الرجال للبقاء بلا شريك بشكل دائم بعد الطلاق.[3]

وفوق ذلك، تُظهر الاستطلاعات في المملكة المتحدة أن ما بين ثلث ونحو نصف المطلقين يصرّحون بأنهم يندمون على قرار الطلاق.[4] فهناك مساحة واسعة بين «السعادة» و«التعاسة التي لا يمكن إصلاحها». في الماضي، كان الأشخاص الذين يقعون في هذه المساحة الوسطى يظلون متزوجين؛ أمّا اليوم، فإنهم في الغالب لا يفعلون.

وفي ثقافة ترتفع فيها معدلات الطلاق، تصبح حتى الزيجات التي كان يمكن أن تستمر مهدَّدة بالتقويض. وحين لم تعد عهود الزواج مُلزمةً حقًا، بدأ الأزواج يشعرون بقدر أقل من الثقة في علاقاتهم. فقد وجدت دراسة، على سبيل المثال، أجرتها الاقتصادية الأميركية «بيتسي ستيفنسون» (Betsey Stevenson)، أن الاستثمار الزوجي انخفض في أعقاب قوانين الطلاق «من دون خطأ»، إذ بات الأزواج الجدد في الولايات التي أقرت هذه القوانين أقل احتمالًا بنحو ١٠٪ لدعم أحد الزوجين للآخر خلال الدراسة الجامعية أو الدراسات العليا، وأقل احتمالًا بنحو ٦٪ لإنجاب طفل معًا.[5]

1- Susan B. Sorenson and Devan Spear, 'New data on intimate partner violence and intimate relationships: implications for gun laws and federal data collection' , Preventive Medicine 107 (2018): 103–8.

2- Paul Amato and Alan Booth, A Generation at Risk: Growing Up in an Era of Family Upheaval. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1997, p. 220.

3- http://www.nytimes.com/2016/10/11/health/marital-status-elderly-health.html

4- http://www.divorcemag.com/blog/if-you-divorce-now-will-you-regret-your-divorce-later

5- Betsey Stevenson, 'The impact of divorce laws on marriagespecific capital' , Journal of Labor Economics 25 (2007): 75–94.

وعندما فقد الزواج طابعه الدائم، تغيّرت المؤسسة بأكملها، ومعها أشياء كثيرة أخرى. ومن المستبعد جدًا أن يكون المصلحون حسنو النيّة في ستينيات القرن الماضي قد توقّعوا مثل هذه النتيجة. فقد كان قصدهم نبيلًا: توفير مخرجٍ لأولئك العالقين في زيجات بائسة، ورفع الوصمة عن تلك الأقلية الصغيرة آنذاك التي مرّت بتجربة الطلاق.

لكن مشكلة التوزيع الطبيعي تدخلت. فقد كان هناك دائمًا حدٌّ من الخلل تُعدّ بعده الزيجة غير قابلة للإنقاذ، وكان المصلحون ينوون خفض هذا الحد قليلًا فقط. غير أنّ كل حالة طلاق هامشية جعلت الحالة التالية أكثر احتمالًا، والتي تليها أكثر احتمالًا كذلك، فانحدر ذلك الحد بسرعة كبيرة إلى أسفل.

*****

أموالي، خياري

لم تكن إصلاحات قوانين الطلاق وحدها المسؤولة عن تآكل مؤسسة الزواج، بالطبع. فقد شكّلت جزءًا من حزمة أوسع من العوامل، يمكن إرجاعها جميعًا إلى تغيّرات مادية مهمّة شهدها منتصف القرن العشرين. وقد خفّف المشرّعون القيودَ على الطلاق لأن مؤسسة الزواج نفسها كانت قد بدأت بالفعل في التعثّر، فجاءت هذه الإصلاحات بمثابة الدفعة الأخيرة.

وكان أهم هذه التغيّرات المادية اختراع حبوب منع الحمل، التي تقدّم مثالًا بالغ الوضوح على النتائج غير المتوقعة — وأحيانًا غير القابلة للتنبؤ — لما يُعرف بـ «الصدمة التكنولوجية». فمن الغريب، عند النظر إلى الأمر بأثر رجعي، أن يؤدّي إدخال وسيلة جديدة لمنع الحمل إلى زيادة عدد المواليد خارج إطار الزواج بدلًا من تقليصه. ومع ذلك، فهذا ما حدث فعلًا.

والسبب في ذلك أن الحبوب أنهت المحرَّم الاجتماعي المتعلّق بالجنس قبل الزواج، من دون أن توفّر في الواقع حماية كاملة من الحمل. وهي لا تزال لا تفعل ذلك حتى اليوم، رغم أنها تبقى الوسيلة الطبية الأكثر شيوعًا لمنع الحمل في المملكة المتحدة والولايات المتحدة.[١] فمع الاستخدام المثالي، تكون فعالية الحبوب ٩٩٪، لكن مع الاستخدام الاعتيادي تنخفض الفعالية

1- http://www.theguardian.com/uk-news/2019/mar/07/revealed-pill-still-most-popular-prescribed-contraceptive-in-england

إلى نحو ٩١٪، أي إن نحو ٩ من كل ١٠٠ امرأة يستخدمنها سيصبحن حوامل خلال عام واحد.[1] وعلى مستوى المجتمع بأكمله، فهذا يعني عددًا هائلًا من حالات الحمل غير المرغوب فيها.

وجاء إلغاء تجريم الإجهاض في معظم أنحاء العالم الغربي — بعد فترة وجيزة من إدخال الحبوب — ليشكّل خيارًا «احتياطيًا» في حالات فشل وسائل منع الحمل. ففي الولايات المتحدة المعاصرة، تشير نحو نصف النساء اللواتي خضعن للإجهاض إلى أنهن كنّ يستخدمن وسائل منع الحمل عندما حدث الحمل،[2] كما أن نحو ربع حالات الحمل تنتهي بالإجهاض. وبالنسبة لامرأة متزوجة قادرة على التعايش مع طفل «غير مخطّط له»، قد تكون الحبوب خيارًا مناسبًا. أمّا بالنسبة لغيرها، فهي لا تحقّق في الواقع ما يُفترض أن تحقّقه. ومع ذلك، فقد كانت فعّالة بما يكفي لإحداث تغيّر جذري في الأعراف الاجتماعية.

وقد تأمّلت الكاتبة الصحفية «فرجينيا أيرونسايد» (Virginia Ironside) لاحقًا في أثر إدخال الحبوب وإلغاء تجريم الإجهاض على النساء البريطانيات الشابات، فقالت:

> كان النوم مع رجل يبدو في كثير من الأحيان أكثر تهذيبًا من طرده خارج الشقة. صحيح أننا تربّينا على قول «لا» للجنس، لكن السبب الوحيد لذلك كان الخوف من الحمل... أما الآن، ومع امتلاك الحبوب، ومع معرفة كل رجل أنكِ تمتلكينها، لم يعد الحمل سببًا لقول «لا» للجنس. وقد استغل الرجال هذا الأمر بلا رحمة. فأصبح «لا» تعني دائمًا «نعم».[3]

ومنذ سبعينيات القرن العشرين فصاعدًا، أصبح انتظار الزواج أو الخطوبة قبل ممارسة الجنس أقل شيوعًا بكثير بين النساء. ورغم أن خيار رفض الجنس قبل الزواج ظل موجودًا نظريًا، فإنه أصبح عمليًا خيارًا أصعب بكثير للالتزام به. ففي الولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين، يبلّغ العذارى المتقدّمون في السن نسبيًا عن تعرّضهم للوصم الاجتماعي من أقرانهم،

1- http://www.nhs.uk/conditions/contraception/how-effective-contraception /
2- http://www.guttmacher.org/news-release/2018/about-half-us-abortion-patients-report-using-contraception-month-they-became
3- http://www.dailymail.co.uk/home/you/article-1346813/%EE%81%A2e-flip-1960s-sexual-revolution-We-paid-price-free-love.html

كما أنهم أقل قبولًا كشركاء محتملين في العلاقات.[1] ويبدو أن هذه الوصمة أشدّ على الرجال العذارى، لكنها — وربما للمرة الأولى تاريخيًا — باتت تلاحق النساء العذارى أيضًا.

لقد منحت الثورةُ الجنسية النساءَ فرصة اختيار عدم انتظار الزواج، لأن كثيرين اعتقدوا أن وسائل منع الحمل الجديدة أزالت خطر الحمل غير المرغوب فيه من ممارسة الجنس خارج الزواج. وبالطبع، لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا، لكن إلغاء تجريم الإجهاض وفّر خيارًا احتياطيًا، ما يعني أن أي رجل لم يعد مضطرًا للخوف من «زواج الإكراه». وعندما أصبحت الأمومة خيارًا بيولوجيًا للنساء، تحوّلت الأبوة إلى خيار اجتماعي للرجال.

أو كما عبّر الكوميدي «ديف تشابيل» (Dave Chappelle) — مازحًا، لكنه واصفًا موقفًا حقيقيًا للغاية — بقوله:

> للنساء الحق في اتخاذ القرار، ولا أرى أن عليهن استشارة أحد سوى الطبيب. أيها الرجال، هذا عادل.
>
> لكن — أيتها النساء — ومن باب الإنصاف لنا نحن الرجال، إذا قررتِ إنجاب الطفل، فلا ينبغي إلزام الرجل بدفع أي نفقة... مالي أنفقه فقط إن كان الخيار خياري أنا.[2]

ويبدو أن عددًا كبيرًا من الرجال المعاصرين يوافقون هذا الطرح. فقبل أفول مؤسسة الزواج، لم يكن يرفض الاعتراف بأطفاله أو تقديم الدعم المادي لهم إلا أكثر الرجال انحطاطًا، إذا كان في علاقة معترف بها علنًا مع أمهم وقت الحمل. أما اليوم، فقد أصبح الآباء المتخلّفون عن النفقة أمرًا شائعًا. ففي المملكة المتحدة، يدفع أقل من ثلثي الآباء غير المقيمين مع أطفالهم — وغالبيتهم الساحقة من الرجال — النفقة كاملة.[3] وفي الولايات المتحدة، تنخفض النسبة إلى أقل من النصف.[4] ونتيجة لذلك، لا يقتصر الأمر على أعداد قياسية من الأطفال الذين ينشؤون دون أب في المنزل، بل إن كثيرًا من هؤلاء الأطفال لا يتلقّون أيَّ دعم مالي على الإطلاق من آبائهم الغائبين.

1- Nikola Komlenac, Manuel Pittl, Susanne Perkhofer et al., 'Links between virginity beliefs, negative feelings after virginity loss and sexual performance anxiety in a sample of German-speaking heterosexual-identified women and men' , Journal of Sex & Marital Therapy 48 (2022): 1–18.
2- http://www.youtube.com/watch?v=MoudH-RPnEE
3- Hansard, House of Commons debates, vol. 561, col. 229, 15 April 2013.
4- http://www.census.gov/content/dam/Census/library/publications/2020/demo/p60-262.pdf

على الرغم من الجهود الشجاعة التي تبذلها الأمهات العازبات في كثير من الأحيان، تُظهر البيانات بوضوح أنه، في المتوسط، لا يحقق الأطفال الذين يعيشون من دون آباء في المنزل نتائج جيدة بقدر ما يحققها الأطفال الآخرون. وكما يكتب عالما الاجتماع «سارا مكلاناهان» (Sara McLanahan) و«جاري دي. سانديفور» (Gary D. Sandefur):

> الأطفال الذين ينشأون في أسرة تضم والدًا بيولوجيًا واحدًا فقط يكون حالهم أسوأ، في المتوسط، من الأطفال الذين ينشأون في أسرة يعيش فيها كلا الوالدين البيولوجيين، وذلك بغض النظر عن عِرق الوالدين أو خلفيتهما التعليمية، وبغض النظر عما إذا كان الوالدان متزوجين عند ولادة الطفل، وبغض النظر عن زواج الوالد المقيم مرة أخرى.[١]

ويرتبط غياب الأب بمعدلات أعلى من السجن لدى الأولاد،[٢] وبمعدلات أعلى من حمل المراهقات لدى البنات،[٣] وباحتمال أكبر لظهور مشكلات عاطفية وسلوكية لدى الجنسين كليهما.[٤] ولا يرجع ذلك فقط إلى أن الأطفال يُحرمون من الدعم المادي الذي كان من الممكن أن يقدمه لهم آباؤهم، بل أيضًا إلى أن الأمهات العازبات يُجبرن على تحمّل المهمة شبه المستحيلة المتمثلة في القيام بكل شيء بمفردهن: الكسب الكامل للدخل، إضافة إلى الرعاية، والتنشئة الاجتماعية، وتأديب الأطفال.

ثم هناك التأثير السلبي أحيانًا لزوجات أو أزواج أحد الوالدين — وغالبًا ما يكون ذلك، عمليًا، أزواج الأم، نظرًا لأن الغالبية الساحقة من حالات الحضانة الأساسية تُمنح للأمهات، وبالتالي فالأمهات هن الأكثر احتمالًا لإدخال شريك جديد إلى منزل طفل صغير. ويشير علماء النفس التطوريون بنبرة قاتمة إلى ظاهرة تُعرف باسم «تأثير سندريلا»، وهي ارتفاع معدلات إساءة معاملة الأطفال من قِبل زوجات أو أزواج أحد الوالدين مقارنة بالوالدين البيولوجيين. ويُعد هذا التأثير واضحًا إلى حد أن «ستيفن بينكر» (Steven Pinker) وصف وجود زوج أو زوجة أحد

1- Sara McLanahan and Gary D. Sandefur, Growing Up with a Single Parent: What Hurts, What Helps. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1994, p. 1 .

2- Cynthia C. Harper and Sara S. McLanahan, 'Father absence and youth incarceration' , Journal of Research on Adolescence 14 (2004): 369–97 .

3- McLanahan and Sandefur, Growing Up with a Single Parent .

4- Nicholas Zill and Charlotte A. Schoenborn, Developmental, Learning, and Emotional Problems: Health of Our Nation's Children, United States, 1988. Hyattsville, MD: National Center for Health Statistics, 1990, p. 9.

الوالدين بأنه «أقوى عامل خطر لإساءة معاملة الأطفال تم تحديده على الإطلاق». ويكون زوج أو زوجة أحد الوالدين أكثر احتمالًا بما يتراوح بين أربعين إلى مئة مرة من الوالد البيولوجي لقتل طفل،[١] كما أن أزواج الأم أكثر احتمالًا بكثير من الآباء الجينيين لإساءة معاملة الأطفال جنسيًا.

ويجد أبناء زوجات أو أزواج أحد الوالدين، في المتوسط، أن الحياة المنزلية أكثر توترًا مما هي عليه لدى الأطفال الآخرين. وهم يغادرون المنزل في سن أصغر، ويكونون أكثر ميلًا للإبلاغ عن أن الصراع الأسري كان السبب الرئيسي لمغادرتهم. كما تكون لديهم مستويات أعلى مزمنة من هرمون التوتر الكورتيزول. ويعانون من معدلات وفيات أعلى عمومًا، ليس فقط بسبب اعتداءات زوجات أو أزواج أحد الوالدين، بل أيضًا نتيجة زيادة معدلات الحوادث. ويخصص أزواج أو زوجات أحد الوالدين موارد أقل لرعايتهم، بما في ذلك الموارد الغذائية، ما يؤدي إلى أن يكون متوسط طولهم أقصر من متوسط طول أقرانهم في العمر نفسه. وكل ذلك ينطبق عبر الثقافات المختلفة.[٢]

وبالطبع، يكون من الأفضل أحيانًا للأطفال ألا يعيشوا مع آبائهم الجينيين، أو حتى ألا تكون لهم صلة بهم، ولا سيما إذا كان هؤلاء الرجال مسيئين أو غير مستقرين على نحو خطير. وبالطبع، هناك عدد كبير من أزواج وزوجات أحد الوالدين المخلصين الذين يصبحون آباء وأمهات ممتازين على نحو استثنائي. نحن نتحدث هنا عن مخاطر، لا عن حقائق مطلقة — فوجود زوج أو زوجة أحد الوالدين في منزل طفل صغير يزيد من خطر النتائج السلبية، لكنه لا يضمن حدوثها. ومع ذلك، فإن نتائج الأبحاث ليست مطمئنة، ويخدع الآباءُ أنفسَهم إذا اعتقدوا أن الطلاق أو الانفصال بين الوالدين لن يكون له أي تأثير على أطفالهم. وقد نُشرت حالة فاضحة بشكل خاص من خداع الذات في صحيفة «نيويورك تايمز» (New York Times) عام ٢٠٢١، في مقال للباحثة القانونية «لارا بازيلون» (Lara Bazelon)، وصفت فيه تجربتها الشخصية مع الطلاق:

> حتى يومنا هذا، يُصوَّر الطلاق على أنه أمر محفوف بالمخاطر وقاتم. ويُجعل الآباء الذين تنهار زيجاتهم يشعرون بأنهم فشلوا فشلًا كارثيًا. الطلاق مُشين، وصادم نفسيًا، وسيئ للأطفال.

1- Steven Pinker, How the Mind Works. New York: W. W. Norton, 2009, p. 434 .

2- Martin Daly and Margo Wilson, 'The "Cinderella effect" is no fairy tale' , Trends in Cognitive Sciences 9 (2005): 507–8 .

> لكنني تعلمت أن الطلاق يمكن أن يكون أيضًا فعلًا من أفعال حب الذات القوي، الذي يترك الأسرة بأكملها في حال أفضل... لقد طلّقت زوجي ليس لأنني لم أعد أحبه، بل لأنني أحببت نفسي أكثر.[١]

وسواء كان ذلك فعلًا من أفعال «حب الذات القوي» بالنسبة لواحد أو أكثر من البالغين أم لا، فإن الأطفال لا يستفيدون من طلاق والدين غير مسيئين. فالأبحاث قاطعة في هذه النقطة. وبينما قد يكون والد مثل «بازيلون» قادرًا على التخفيف من أثر الصدمة على أطفاله من خلال دفع تكاليف العلاج النفسي، والمربيات، والمدارس الخاصة، فإن معظم الأمهات العازبات غير قادرات على القيام بذلك.

كما يحدث في كثير من الأحيان، تكون النساء الفقيرات هن الأكثر تضررًا في حقبة ما بعد الثورة الجنسية. فمن ناحية أولى، يخلّف الطلاق أضرارًا مالية جسيمة على الأمهات. وكما خلصت «لينور فايتسمان» (Lenore Weitzman)، استنادًا إلى دراستها للطلاق في ولاية كاليفورنيا:

> بالنسبة لمعظم النساء والأطفال، يعني الطلاق انحدارًا حادًا ومفاجئًا في الحراك الاجتماعي — اقتصاديًا واجتماعيًا على حد سواء. ويؤدي انخفاض الدخل إلى الانتقال من المساكن، والعيش في مساكن أدنى جودة، وإلى تقلص شديد أو اختفاء كامل للموارد المخصصة للترفيه وأوقات الفراغ، فضلًا عن ضغوط مكثفة ناتجة عن نقص الوقت والمال.[٢]

ويكون الوضع أسوأ حتى بالنسبة للأمهات اللاتي لم يتزوجن من الأساس. فقد تضمّن فيلم وثائقي لهيئة (BBC) عُرض عام ٢٠١٩ عن الأمهات العازبات المشرّدات مقابلةٌ مع والد أحد الأطفال الصغار الذين ظهروا في البرنامج. وكان كل من الطفل وأمه يعيشان في نُزل تديره السلطة المحلية، مثقلين بالديون، ويعتمدان على إعانات الرعاية الاجتماعية للبقاء. وكانت الأم تتوق بشدة إلى العودة إلى شريكها السابق، بينما كان هو يزور النُزل بين الحين والآخر ليقضي وقتًا مع ابنهما، مُطلِقًا وعودًا غامضة عن إمكانية أن يعيشوا معًا يومًا ما كأسرة واحدة. وأثناء حديثه أمام الكاميرا، شرح نظرته إلى الوضع قائلًا:

1- http://www.nytimes.com/2021/09/30/opinion/divorce-children.html
2- Quoted in Diane Jeske and Richard Fumerton, eds, Readings in Political Philosophy: Theory and Applications. Peterborough, Ont.: Broadview Press, 2011, p. 649.

من الجيد دائمًا أن أقضي وقتًا مع طفلي. أتمنى لو كان بإمكاني رؤيته متى أردت، لكنني أعتقد أنه في بعض الأحيان يجب أن تعطي الأولوية لنمط حياتك القائم.[١]

كان ذلك استعراضًا وافرًا لـ «حب الذات القوي» من رجل بدا أنه يكن مودة لطفله ولصديقته السابقة، لكنه لم يكن مستعدًا لتقديم حتى أبسط تضحية من أجل أن يوفر لهما حياة منزلية مستقرة. ولماذا ينبغي له أن يفعل؟ فمن وجهة نظره، كانت هي التي قررت عدم اللجوء إلى الإجهاض، وبالتالي فعليها أن تتحمل العواقب وحدها.

وهو ما يعني أنها تصبح معتمدةً على الدولة. وهنا أيضًا نرى تحولًا اجتماعيًا نتج عن تحول مادي. فقد كان الازدهار الاقتصادي الذي أعقب الحرب هو ما أتاح إنشاء دولة رفاهية واسعة النطاق، والتي جعلت بدورها من الممكن — وإن لم يكن ذلك سهلًا أو مريحًا — أن تتمكن الأمهات العازبات الفقيرات من البقاء من دون دعم من آباء أطفالهن.

ويقارن صديقي «مايسون هارتمان» (Mason Hartman) الدولة الحديثة بنوع من «الزوج الاحتياطي». فإذا جرى الاستعانة بها، فإنها توفر الطعام، والمأوى، والحماية من العنف، لكنها لا تؤدي أيًّا من ذلك على نحو جيد على وجه الخصوص. كما أن الدولة لا تقدم أي دفء إنساني أو صحبة إلى جانب هذه الضروريات الأساسية. ولا أقترح، ولو للحظة، أن هذا «الزوج الاحتياطي» ينبغي أن ينسحب الآن، لأن القيام بذلك سيترك عددًا كبيرًا من الأمهات العازبات وأطفالهن في فقر مدقع. ذلك أن المنظومة المعقدة من المعايير التي حافظت لقرون على المحظور المتعلق بالجنس قبل الزواج قد تلاشت منذ زمن بعيد، ولا يمكن إعادة بنائها بسهولة. ولو اختفت دولة الرفاه، لكانت النتيجة بؤسًا وفوضى تطال أكثر فئات مجتمعنا هشاشة.

ومع ذلك، لا أرى أن «الزوج الاحتياطي» يقترب في جودته بأي حال من الأحوال من الشيء الحقيقي. فعلى الرغم من كل الجهود المبذولة، لم ينجح النسويون حتى الآن في إيجاد بديل عملي لنظام تبيّن، في نهاية المطاف، أنه كان يؤدي دورًا مهمًا في حماية مصالح النساء، وكذلك — وهو الأهم — مصالح أطفالهن.

*****

1- The Hostel for Homeless Young Mums, episode 1, BBC Three, 7 June 2019.

رضيع وشخص ما

يرى بعض الناس أن أفولَ مؤسسة الزواج أمرٌ إيجابي، وكثير من هؤلاء من النسويات. فقد كانت معارضة الزواج موضوعًا بارزًا في جانب كبير من كتابات الموجة النسوية الثانية، حيث دعت نسويات مثل «أندريا دوركين» (Andrea Dworkin) و«جيرمين جرير» (Germaine Greer) و«كيت ميليت» (Kate Millett) صراحةً إلى إلغائه. وفي عام ١٩٦٩، شددت عالمة الاجتماع الأمريكية «مارلين ديكسون» (Marlene Dixon) على أن «مؤسسة الزواج هي الوسيلة الأساسية لاستدامة اضطهاد النساء»، مُلخِّصةً بذلك النقد النسوي السائد آنذاك، وأضافت: «ومن خلال دور الزوجة يتم الحفاظ على إخضاع النساء».[١]

لكن ليس من قبيل المصادفة أن غالبية النسويات اللواتي عارضن الزواج لم يكنّ أمهات. وقد تناولتُ سابقًا في هذا الكتاب الصراع بين النسويات الليبراليات والنسويات الراديكاليات حول قضايا مثل الدعارة والإباحية، وهي قضايا تظهر فيها اختلافات واضحة ومهمة بين هذين التيارين النسويين. أما فيما يخص الأمومة، فقد كانت الفروق بينهما دائمًا ضئيلة للغاية. إذ لا يمتلك أيٌّ من التيارين إجابة مقنعة عن سؤال كيفية التوفيق بين سعي النساء إلى الحرية وبين حالة وجود تفرض، بحكم طبيعتها، قيودًا على تلك الحرية.

فإذا كانت الحرية هي القيمة العليا التي تتقدم على كل ما سواها، فإن الأمومة — وفق هذا المنطق — يجب رفضها، لأنها حالة تُقيّد حرية المرأة في معظم الأوجه الممكنة، لا خلال فترة الحمل فحسب، بل طوال ما تبقى من حياتها، إذ ستظل مرتبطة دائمًا بالتزامات تجاه أطفالها، وسيظلون هم بدورهم مرتبطين بالتزامات تجاهها. إنها علاقة لا تُفصم إلا في أقسى الظروف وأشدها تطرفًا.

وقد نجحت النسويات، تاريخيًا، في تحدي هذا القيد على الحرية عبر المطالبة بتوسيع نطاق إتاحة وسائل منع الحمل والإجهاض، وهو ما أثبت فعاليته إلى حدٍّ ما، إذ أتاح للنساء تحكمًا أكبر في توقيت الإنجاب أو في قرار الإنجاب من عدمه. لكن ماذا يحدث عندما يولد الأطفال فعليًا؟ هنا نواجه نزعةً مناهِضة للإنجاب حاضرةً في كل من التقليدين النسويين الليبرالي والراديكالي،

1- Barbara A. Crow, Radical Feminism: A Documentary Reader. New York: New York University Press, 2000, p. 76.

وهي نزعة تُقصي الأمهات من النقاش، ما يعني — حتى في ظل معدلات الإنجاب المنخفضة تاريخيًا — أن ما لا يقل عن ثلاثة أرباع النساء يُستبعَدن. ولا تحظى الأمومة بالنقاش إلا في أقل من ٣٪ من الأوراق البحثية أو المقالات الأكاديمية أو الكتب الدراسية المتعلقة بنظرية الجندر الحديثة،[1] ومع ذلك فإن أقل من نصف الأكاديميات الحاصلات على التثبيت الوظيفي لديهن أطفال،[2] الأمر الذي يجعل هذا الغياب أقل إثارة للدهشة. لقد تلاشى الموضوع بأكمله تقريبًا من مجال الرؤية.

ولا غرابة في ذلك، إذ إن منطق الفردانية ينهار عند ملامسته للأمومة. فجسد المرأة الحامل يضم شخصين، لا يتمتع أيٌّ منهما باستقلال حقيقي كامل. يعتمد الجنين اعتمادًا كليًا على أمه من أجل البقاء، ولا تستطيع الأم قطع هذه الرابطة الجسدية إلا من خلال تدخل طبي يفضي إلى موت الجنين. وحتى بعد الولادة، تظل ثنائية الأم–الرضيع وحدة واحدة مترابطة، عاطفيًا وجسديًا. ولمدة سنوات طويلة بعد الولادة، لا يمكن النظر إلى الطفل الصغير بوصفه فردًا مستقلًا، لأن غياب الرعاية المتفانية من شخص بالغ واحد على الأقل يجعل الموت أمرًا حتميًا.

وقد كتب المحلل النفسي وطبيب الأطفال «دونالد وينيكوت» (Donald Winnicott) أن «لا وجود لشيء اسمه رضيع؛ بل يوجد فقط رضيع وشخص ما». وقد وسّعت الكاتبة «ليا ليبرسكو سارجنت» (Leah Libresco Sargeant) هذه الفكرة بقولها:

> تفترض الليبرالية أن الإنسان كائن مستقلّ بذاته، لكن هذا الافتراض لا يصمد أمام الواقع. فالحالة الطبيعية للإنسان هي الاعتماد المتبادل، لا الاكتفاء الذاتي. نحن نولد معتمدين بالكامل تقريبًا على غيرنا، وغالبًا ما نعود إلى حالة مشابهة في نهاية حياتنا، وحتى ما بين البداية والنهاية، تمرّ حياتنا بمحطات كثيرة من الضعف والحاجة.[3]

وتذهب بعض النسويات إلى الإصرار على أن على النساء التخلي عن الأمومة كليًا. فقد جادلت «شولاميث فايرستون» (Shulamith Firestone)، على نحوٍ شهير، في كتاب (The Dialectic of Sex)، الذي نُشر لأول مرة عام ١٩٧٠، بأن النساء لا يمكن أن يتحررن من النظام

1- http://www.theguardian.com/commentisfree/2018/may/26/is-motherhood-the-unfinished-work-of-feminism
2- https://slate.com/human-interest/2013/06/female-academics-pay-a-heavy-baby-penalty.html
3- http://www.plough.com/en/topics/justice/culture-of-life/dependence

الأبوي ما لم يتحررن من عملية الإنجاب ذاتها. وبناءً على ذلك، اقترحت أن يُحتضَن الأطفال يومًا ما خارج الجسد البشري. فإذا لم يكن بوسع النساء المشاركة في الإنجاب بالطريقة نفسها التي يشارك بها الرجال، بحسب «فايرستون»، فلا ينبغي لهن المشاركة فيه أصلًا.

يصل هذا الطرح إلى حدٍّ معين من الفاعلية — على مستوى الفرد، على الأقل، إن لم يكن على مستوى النوع البشري. غير أنه لا يمكن رفض الاعتماد رفضًا كاملًا، لأن المرأة، حتى لو اختارت ألا تُنجب أطفالًا مطلقًا، ستتقدم في العمر يومًا ما، وستعتمد على الآخرين كما لو كانت رضيعة من جديد. فـ «شولاميث فايرستون» (Shulamith Firestone) نفسها — بعد أن أصبحت منفصلة عن أسرتها في مراحل لاحقة من حياتها، ولم تتزوج قط، ولم تُنجب أطفالًا — قضت السنوات الأخيرة من حياتها في حالة من الهشاشة العميقة الناجمة عن مرض عقلي شديد. وقد تلقت دعمًا لفترة من الزمن من شبكة من الصديقات والمعجبات النسويات، غير أن هذه المجموعة تفرقت في نهاية المطاف، إذ لم تكن الروابط التي تجمع أفرادها روابط دم أو زواج، كما أن العلاقات القائمة على الإعجاب المتبادل أو المثالية الفكرية ليست متينة بقدر تلك التي تنطوي على التزام يمتد مدى الحياة. وهكذا تُركت «فايرستون» من دون رعاية، وتوفيت وحيدة في منزلها عن عمر سبعةٍ وستين عامًا، وبقي جسدها غير مكتشف لعدة أيام. وافترض الطبيب الشرعي أنها توفيت جوعًا.[١]

ويمكن تطبيق صيغة معدلة من مقولة «وينيكوت» على معظم البالغين في مرحلة ما من حياتهم: «لا يوجد شيء اسمه شخص. يوجد فقط شخص وشخص آخر». فأن تكون ذلك «الشخص الآخر» يعني التخلي عن جزء من حريتك، وهو أمر يتعارض مع ما يُفترض بنا جميعًا أن نريده. وقد وصفت كثير من نسويات الموجة الثانية هدفهن بأنه «تحرير المرأة» — فالنساء، على حد قولهن، كنّ مكبلات بالسلاسل، وكان لا بد من كسر تلك السلاسل.

ولم يكن هذا الهدف خاليًا من الوجاهة، بالنظر إلى أن النساء ما زلن، في كثير من الأحيان، يُحصرن بصورة دائمة في دور «الشخص الآخر» — دائمات الرعاية، نادرًا ما يحظين بالرعاية. غير أن حل هذه المشكلة لا يمكن أن يكون في الفردانية، لأن هذا المفهوم برمته قائم على وهم. ففي دورة الحياة الإنسانية الطبيعية، نبدأ حياتنا أطفالًا معتمدين، ثم نقضي فترة قصيرة جدًا بوصفنا شبابًا بالغين يتمتعون بقدر نسبي من الاستقلال، قبل أن ننتقل إلى رعاية أطفالنا

1- http://www.newyorker.com/magazine/2013/04/15/death-of-a-revolutionary

المعتمدين علينا، ثم ننهي حياتنا فيما أطلق عليه «شكسبير» اسم «طفولتنا الثانية».[1] وقد أتاح لنا منع الحمل الحديث أن نُطيل هذه المرحلة الشابة بصورة مصطنعة، مانحًا إيانا وهمًا بأن الاستقلال هو حالتنا الدائمة. لكنه ليس كذلك — بل هو مجرد ومضة عابرة، قد لا يختبرها بعضنا إطلاقًا. فإما أن نكون «شخصًا آخر» للغير، أو نحتاج إلى «شخص آخر» لنا؛ وذلك هو نصيبنا كبشر. وهذا يعني أنه لا بد لنا من أن نجد طريقة للعيش في حالة من الاعتماد المتبادل بعضنا على بعض.

*****

حماية الزواج العادي

غير أن مسألة الاعتماد تظل تمثل إشكالًا مستمرًا أمام النسوية، ولا سيما فيما يتعلق بالأمومة. وبالقدر الذي قدّمت فيه النسوية، سواء الليبرالية أو الراديكالية، أي نوع من المساعدة الافتراضية للأمهات، فقد كانت تلك المساعدة متموضعة خارج نطاق الأسرة، وداخل إطار الدولة بالكامل. فالدولة، بوصفها «الزوج الاحتياطي»، تُناط بها مهمة توفير رعاية مؤسسية للأطفال من خلال مراكز حضانة تعمل على مدار الساعة طوال أيام الأسبوع. ويُعد هذا نموذجًا اقتصاديًا أنيقًا؛ إذ بدلًا من وجود أم واحدة مكرَّسة لطفل واحد (بصورة تُعد، في هذا المنطق، إهدارًا، لأنه طفلها هي)، يقوم «الزوج الاحتياطي» بتخصيص عاملة واحدة لعدد كبير من الأطفال (بكفاءة، لأنهم ليسوا أطفالها). وبهذا تتمكن الأمهات من العودة سريعًا إلى سوق العمل، وتوجيه عائدات ضرائبهن نحو تشغيل منظومة الحضانة هذه.

ويقوم هذا النموذج على الفصل الجسدي بين النساء وأطفالهن، وعلى جعل هذين الكائنين مستقلين قدر الإمكان وفي أسرع وقت ممكن. وبهذا تُعظَّم حرية النساء، وتُقاوَم — أو على الأقل تُخفى — حقيقة الاعتماد المتبادل الملازمة لعملية الإنجاب. وما لا يتيحه هذا النموذج للنساء هو طريقة للوجود الجسدي مع أطفالهن، مع تلقي الدعم المادي والعاطفي في الوقت نفسه من بالغين آخرين.

1- As You Like It, Act II, scene VII.

وقد حاولت بعض النسويات معالجة هذه الإشكالية عبر إنشاء بُنى جديدة شبيهة بالأسرة. ففي كتاب (The Female Eunuch)، على سبيل المثال، كتبت «جيرمين جرير» (Germaine Greer) عن «الأسر العضوية ذاتية التنظيم»، حيث تشتري مجموعات من النساء عقارًا معًا ويعشن حياة جماعية، على أن يزور آباء أطفالهن المكان بين الحين والآخر فقط،[1] وغالبًا ما يُفوَّض دور الأم إلى آخرين. وبعد خمسين عامًا من كتاب «جيرمين جرير»، تدعو «صوفي لويس» (Sophie Lewis) في كتابها «تأجير الأرحام الكامل الآن» (Full Surrogacy Now) إلى ما تسميه «الشيوعية الحملية»، حيث يمكن «فصل روابط الأم–الطفل وتسليمها وتكثيرها بسهولة أكبر».

ويشير عالم الاجتماع «نيكولاس كريستاكيس» (Nicholas Christakis) إلى أن فكرة تربية الأطفال بصورة جماعية لم تكن حكرًا على راديكاليي سبعينيات القرن العشرين:

> لقد جرى السعي إلى هذه الفكرة دوريًا منذ العصور القديمة بوصفها شكلًا من أشكال الاضطراب الاجتماعي المرغوب. فقد كان «أفلاطون» يعتقد أن تربية الأطفال جماعيًا ستجعلهم يعاملون جميع الرجال بوصفهم آباءهم، وبالتالي بمزيد من الاحترام. كما ارتبطت المجتمعات الشيوعية بتربية الأطفال جماعيًا؛ إذ تُعد الأسرة تهديدًا لأيديولوجيا الدولة لأنها تنمّي شعور الانتماء إلى وحدة أسرية، بينما تتطلب الأيديولوجيا الشمولية إخضاع الولاء للأسرة للولاء للحزب أو للدولة.[2]

غير أنه، كما يكتب «كريستاكيس»، فإن «محاولات إعادة هيكلة الرابطة بين الوالد والطفل على نحو جذري، أو التقليل من شأنها، نادرًا ما استمرت، إن استمرت أصلًا». وأسباب ذلك واضحة: فالبشر كائنات حية تطورية، ينحدرون من أسلاف نجا نسلُهم حتى سن البلوغ، ولذلك فإن الانتقاء الطبيعي يُفضّل الأمهات الأكثر يقظة وانتباهًا.

ويعني هذا أنه عندما تنهار البُنى الاجتماعية، تكون النتيجة في الغالب أن الشخص الذي يُترك حرفيًا وهو يحمل الطفل هو الشخص الذي تجعل غرائزه الطبيعية أكثر تفانيًا في رعاية ذلك الطفل. وقد أدركت «شولاميث فايرستون» (Shulamith Firestone) هذه الحقيقة، فكتبت: «بما أن علاقة «الأم/الطفل» تظل قائمة، فلا عجب أنه عندما تتفكك الروابط الاجتماعية، يختفي

1- Germaine Greer, The Female Eunuch. London: Harper Perennial, [1970] 2006, pp. 264–6 .
2- Nicholas A. Christakis, Blueprint: The Evolutionary Origins of a Good Society. New York: Little, Brown, 2019, p. 74.

جميع «الآباء الروحيين»، وكذلك الأب الجيني نفسه، تاركين الأم عالقة — من دون حتى حماية الزواج العادي».

وتتمثل حجة «فايرستون»، بطبيعة الحال، في أن تربية الأطفال جماعيًا لا تحرر النساء من اضطهاد الأمومة، وأن المشروع بأكمله ينبغي لذلك رفضه. غير أن عبارة «من دون حتى حماية الزواج العادي» معبّرة بدقة. فالتفسير النسوي الاختزالي للزواج يراه مجرد أداة يستخدمها الرجال للسيطرة على الحياة الجنسية للنساء. وهو يؤدي هذا الدور بالفعل، بلا شك، لكنه لم يكن يومًا وظيفته الوحيدة. فهناك أيضًا وظيفة وقائية للزواج، غير أنها لا تصبح مفهومة إلا إذا نُظر إليها في علاقتها بالأطفال.

*****

الجندي الخائن

كان الزواج يُعرَّف في السابق بوصفه اتحادًا زوجيًا، «سرًّا مقدسًا يصبح فيه الرجل والمرأة جسدًا واحدًا»، وفق تعبير طقس الزواج في كنيسة إنجلترا. وبالطبع، وُجدت دائمًا استثناءات على هذا التعريف — فقد كان يُسمح للعقيمين بالزواج، وكذلك للأشخاص الذين تجاوزوا سن الإنجاب — إلا أن الزواج ظل، مع ذلك، يُفهَم على أنه قائم، كما يوضح «روبرت بي. جورج» (Robert P. George)، أستاذ الفقه القانوني في جامعة برينستون، على «التكامل الجنسي–الإنجابي» بين الزوجين... وهو تكامل «كان مناسبًا على نحو خاص، ويتحقق بطبيعته، من خلال إنجابهما للأطفال وتربيتهما معًا».[١]

أما اليوم، فلم يعد هذا هو معنى الزواج بالنسبة لمعظم الغربيين. فقد تتبع عالم النفس «إيلي فينكل» (Eli Finkel) التطور التاريخي للزواج في العالم الغربي، وعزا تحولاته إلى تغير الظروف الاقتصادية.[٢] فقبل منتصف القرن التاسع عشر، كان تحدي البقاء اليومي — ولا سيما لدى سكان الريف — يعني أن إنتاج الغذاء، وتوفير المأوى، والحماية من العنف كانت هي الأولويات الأساسية عند اختيار الزوج أو الزوجة. ثم أدت لاحقًا عمليتا التحضر والتصنيع إلى ازدياد الرفاه، وأصبح لدى الأزواج ترف إيلاء قدر أكبر من الاهتمام للحب والرفقة داخل الزواج.

1- http://www.thepublicdiscourse.com/2011/03/2638 /
2- Eli J. Finkel, The All-or-Nothing Marriage: How the Best Marriages Work. New York: Dutton, 2017.

وبعد ذلك، وفي ستينيات القرن العشرين الميسورة، دخلنا عصر ما يسميه «فينكل» «الزواج التعبيري عن الذات»، حيث غدت معرفة الذات، وتقدير الذات، والنمو الشخصي المؤشرات الأساسية لنجاح الزواج.

وحيث كان الزواج في السابق يتمحور أساسًا حول الإنجاب وتجميع الموارد، بات يُفهَم اليوم، في كثير من الأحيان، على أنه وسيلة للإشباع الجنسي والعاطفي — أي «علاقتك مع الشخص رقم واحد في حياتك»، بحسب تعبير الفيلسوف «جون كورفينو» (John Corvino)،[١] ومن ثم أصبح من المفهوم تمامًا — بل، في رأيي، أمرًا حسنًا وصائبًا — توسيع حقوق الزواج لتشمل الأزواج من نفس الجنس، الذين يفتقرون بالضرورة إلى «التكامل الجنسي–الإنجابي». وبما أن المعنى القديم للزواج قد تلاشى اليوم، فإن حرمان الأزواج من نفس الجنس من حق الزواج في العصر الراهن يبدو في آن واحد قاسيًا وعديم المعنى.

لكن ينبغي ألا نقع في خطأ تشويه الوظيفة التاريخية للزواج، وكذلك الوظيفة التاريخية لتحريم الجنس قبل الزواج. فالنسويات المعاصرات، اللواتي لم يعرفن سوى عالم تشكّله حبوب منع الحمل، قد ينسين بسهولة أن تحريم الجنس قبل الزواج، في زمن لم تكن فيه وسائل منع الحمل متاحة، كان يخدم مصالح النساء لا الرجال، لأنه كان يحمي الفئة التي تتحمل — حرفيًا — تبعات الحمل خارج إطار الزواج.

وقد كان هذا الأمر مفهومًا بوضوح لدى النسويات اللواتي وُلدن قبل اختراع حبوب منع الحمل بوقت طويل، واللواتي أدركن تمامًا ما يعنيه الحمل خارج الزواج لامرأة تعيش في مجتمع بلا دولة رفاه. نعم، من الصحيح أن جزءًا من الأذى كان يتمثل في الضرر الذي يلحق بالسمعة، حيث كانت الأمهات العازبات وأطفالهن يُوصمون من قِبل أسرهم ومجتمعاتهم. غير أن هذه الكارثة الاجتماعية كانت ثانوية مقارنة بالكارثة العملية للأمومة العازبة نفسها، التي كانت من الفداحة بحيث دفعت بعض النساء الفقيرات إلى الاختيار بين الدعارة والمجاعة، أو إلى بدائل أخرى لا تقل رعبًا: محاولة خطيرة للإجهاض، أو التخلي عن طفل في دار أيتام، أو قتل الرضيع. وقد تسبب الوصم المرتبط بالأمومة العازبة في قدر هائل من المعاناة لضحاياه الكُثر. ومع ذلك، فقد وُجد هذا الوصم لسبب: ردع النساء عن ارتكاب خطأ لا رجعة فيه من أجل رجل عديم القيمة.

1- John Corvino and Maggie Gallagher, Debating Same-Sex Marriage. New York: Oxford University Press, 2012.

وتكشف المنظّرة النسوية «ماري هارينجتون» (Mary Harrington) منطق هذا التحريم القديم للجنس خارج الزواج من خلال الأغاني الشعبية الإنجليزية التي تتناول صورة «الجندي الخائن» والمرأة الشابة التي يُغويها.

تحكي أغنية (Cold Blow and the Rainy Night) قصة جندي يصل، وقد تجمّدت قبعته على رأسه من شدة البرد، متوسلًا إلى امرأة شابة أن تسمح له بالدخول. وفي نهاية المطاف ترضخ. وفي لحظة ما بعد العلاقة، تسأله: «والآن، بعد أن نلتَ مرادك مني / أيها الجندي، هل ستتزوجني؟» فيجيبها بالنفي. فتقول الأغنية:

آه، لعنت تلك الليلة الماطرة

التي سمحتُ له فيها بالدخول — آه

ثم قفز من السرير

ووضع قبعته على رأسه

وكانت قد فقدت عذريتها

وسمعت أمها الضجيج — آه

وتروي أغنية أخرى، (The Greenwood Side)، قصة امرأة شابة تحمل حملًا غير مشروع، فيهجرها عشيقها، فتنجب توأميها وحيدة في الغابة، وتُخفي الحقيقة بقتل طفليها. وتُسرد وقائع العلاقة، والهجر، والولادة، وقتل الرضيعين بإيجاز حاد، بينما يأتي متن الأغنية على هيئة حوار هلوسي بينها وبين طفليها المقتولين. وتمزج الكلمات المقلقة بعمق بين الرعب من فعلها والشفقة العميقة على المرأة:

والآن، يا أيها الفتيان الحسان، أخبروني

آه، عن الوردة ونبات الليبنزي، آه

أي نوع من الحياة سأحيا بعد الموت؟

هناك، عند جانب غابة جرينوود، آه

لقد وُجدت مثل هذه الأغاني لتحذير النساء الشابات من الأخطار التي يمثلها «الجندي الخائن» وأمثاله. وما قد يُفسَّر اليوم بوصفه «تشهيرًا بالنساء المنفلتات جنسيًا»، أو خوفًا من حرية المرأة الجنسية، كان في الواقع يحمل غاية ملحّة للغاية. وقد تبدو تلك الغاية اليوم قديمة إلى حد ما في عصر وسائل منع الحمل، لكنها لم تصبح عديمة القديمة تمامًا. فما زالت العلاقات غير المشروعة تنتهي بالصدمة والمأساة، لأن الجنس لا يزال — كما كان دائمًا — فعلًا ذا عواقب حقيقية.

وكانت كثير من النسويات اللواتي عشن قبل ستينيات القرن العشرين يدركن هذا الأمر إدراكًا أعمق مما ندركه اليوم. فقد تأملن حالات اللاتكافؤ المتأصلة في العلاقات الجنسية، والعواقب القاتمة التي جلبها «التحرر الجنسي» على النساء، وخلصن إلى أن الرغبة الجنسية الذكورية تحتاج إلى ضبط وكبح. ولهذا السبب خُصص فصلان من الفصول الثلاثة عشر في كتاب «ماري وولستونكرافت» الشهير «دفاعًا عن حقوق المرأة» (A Vindication of the Rights of Woman) للتنديد بانعدام العفة لدى الرجال — وهم الجنس ذو الدافع الجنسي الأعلى — ومن ثم، في نظر «وولستونكرافت»، لتحميلهم مسؤولية أكبر في كبح شهواتهم. وكان شعار «حق التصويت للنساء، والعفة للرجال» شعارًا حقيقيًا لحركة المطالبة بحق الاقتراع، لكنه أصبح اليوم منسيًا.[١]

*****

إعادة ابتكار الزواج

لكن كيف يمكن إقناع الرجال — إن لم يكن بالعفة — فبالضبط الجنسي؟ لقد كتبتُ سابقًا في هذا الكتاب عمّا سميته نمطي «المستهتر أو المتلاعب» و«الأب» في النشاط الجنسي الذكوري، حيث يتجه الأول نحو الجنس العابر، بينما يتجه الثاني نحو الالتزام. ومع أن بعض الرجال يكونون، بطبيعتهم، متمركزين حول أحد هذين النمطين دون غيره، فإن الأكثر شيوعًا بكثير هو أن يقف الرجال في منطقة وسطى، متنقلين بين النمطين تبعًا لأعمارهم وسياقاتهم الاجتماعية.

1- Erika Bachiochi, The Rights of Women: Reclaiming a Lost Vision. Notre Dame, IN: University of Notre Dame Press, 2021, p. 16.

وقد قاربتُ الآن نهاية هذا الكتاب، وآمل أن أكون قد نجحت في إقناعك بأن نمط «المستهتر» في النشاط الجنسي الذكوري ضار بالنساء على نطاق واسع. فالغالبية العظمى من النساء يجدن صعوبة في فصل العاطفة عن الجنس، ما يعني أن لقاءً مع رجل مستهتر لا يعاود الاتصال غالبًا ما يترك المرأة في حالة من الضيق النفسي، حتى لو حاولت كبت تلك المشاعر. فالنساء لم يتطورن بيولوجيًا على التعامل مع الجنس بوصفه أمرًا بلا معنى، ومحاولة التظاهر بعكس ذلك لا تنتهي على نحو جيد.

ثم هناك العواقب الجسدية للجنس، وهي عواقب غير متماثلة بطبيعتها، إذ تتحمل المرأة وحدها خطر الحمل غير المرغوب فيه وآلامه. وقد أثبتت وسائل منع الحمل الحديثة فعاليتها في معظم الأحيان — وبدرجة كافية، على الأقل، لإحداث تحول في العلاقات الجنسية في حقبة ما بعد ستينيات القرن العشرين — لكنها لا تزال تفشل بانتظام. ومهما يكن رأيك في الوضع الأخلاقي للجنين، ينبغي لنا جميعًا أن نتفق على أن الإجهاض ليس تجربة جيدة تمر بها المرأة، في ضوء المخاطر الطبية مثل تلف الرحم أو تسمم الدم، فضلًا عن العواقب العاطفية، التي ليست بالأمر الهيّن.

وخلاصة القول إن محاولة تقليد نمط «المستهتر» في النشاط الجنسي الذكوري، كما تشجع النسوية الليبرالية، لا تمثل تحررًا للنساء. فـ «هيو هيفنر» وأمثاله لا يرتعدون خوفًا من فكرة «نساء متحررات جنسيًا» — بل على العكس تمامًا. إنهم يسعدون بأن يجدوا أنفسهم أمام مائدة عامرة من النساء الشابات لالتهامها، وجميعهن، على ما يبدو، مستعدات لتحمل سوء المعاملة دون شكوى. وإذا نظرنا إلى الأمر بأشد صوره صراحة، لا يسعني إلا أن أوافق على الحكم القاتم الذي أطلقته جدتي عندما أخبرتها بأطروحة هذا الكتاب: «لقد خُدِعت النساء».

ومن ثم، فإن المهمة الملقاة على عاتق النسويات ذوات التوجه العملي هي ردع الرجال عن نمط «المستهتر». وثقافتنا الجنسية الحالية لا تفعل ذلك، لكنها تستطيع. ولتغيير بنية الحوافز، نحتاج إلى «تكنولوجيا» تثبط النزعة قصيرة الأمد في السلوك الجنسي الذكوري، وتحمي المصالح الاقتصادية للأمهات، وتخلق بيئة مستقرة لتربية الأطفال. ونحن نمتلك بالفعل مثل هذه التكنولوجيا، حتى لو كانت قديمة، ثقيلة، ومعرضة للفشل الدوري. اسمها: الزواج الأحادي.

وقبل أن أبدو مثالية أكثر من اللازم، ينبغي أن أوضح أمرًا واحدًا: الزواج الأحادي مدى الحياة ليس حالتنا الطبيعية. فحوالي ١٥٪ فقط من المجتمعات في السجل الأنثروبولوجي كانت

أحادية الزواج.[1] ويجب فرض الأحادية عبر القوانين والعادات، وحتى في المجتمعات التي تكون فيها متجذرة بعمق، يخرج كثير من الناس عليها. وحتى اليوم، لم تسد الأحادية إلا في نوعين من المجتمعات: جماعات صغيرة تعاني من حرمان بيئي شديد، وبعض أكثر الحضارات تعقيدًا التي وُجدت على الإطلاق، بما في ذلك حضارتنا.[2] أما الغالبية الساحقة من المجتمعات الأخرى فكانت متعددة الزوجات، تسمح للرجال ذوي المكانة العالية باتخاذ أكثر من زوجة.

ومع ذلك، فبينما قد يبدو نموذج الزواج الأحادي غير مألوف نسبيًا، فإنه ناجح على نحو لافت. فعندما تُفرض الأحادية على مجتمع ما، يميل ذلك المجتمع إلى أن يصبح أكثر ثراءً. وتنخفض معدلات إساءة معاملة الأطفال والعنف الأسري، إذ إن الصراع بين الزوجات المشتركات في زوج واحد يميل إلى توليد كليهما. كما تنخفض معدلات المواليد والجريمة، وهو ما يشجع التنمية الاقتصادية. ويضطر الرجال الأثرياء، بعد أن يُحرموا من فرصة توجيه مواردهم نحو اكتساب زوجات إضافيات، إلى استثمار تلك الموارد في مجالات أخرى: كالعقار، والأعمال التجارية، والموظفين، وسائر الأنشطة الإنتاجية.

وهذا، على ما يبدو، هو الحل لما يسميه علماء الأنثروبولوجيا «لغز الزواج الأحادي». كيف لنظام زواج لا يخدم مصالح أقوى أفراد المجتمع — أي الرجال ذوي المكانة العالية — أن يصبح، مع ذلك، مؤسسة راسخة في معظم أنحاء العالم؟ والإجابة هي أنه، رغم أن الأحادية أقل إرضاءً لهؤلاء الرجال، فإنها تُنتج مجتمعات غنية ومستقرة قادرة على البقاء.

يُعَدّ نظام الزواج الأحادي ناجحًا، جزئيًا، لأنه يدفع الرجال بعيدًا عن نمط «المستهتر»، ولا سيما عندما يكون الجنس قبل الزواج محظورًا أيضًا. ففي ظل هذه الظروف، إذا أراد الرجل أن يمارس الجنس بطريقة مقبولة اجتماعيًا، فلا بد له من أن يجعل نفسه صالحًا للزواج، أي أن يحافظ على وظيفة جيدة وأن يؤسس منزلًا مناسبًا لتربية الأطفال. وبعبارة أخرى، عليه أن يضبط نفسه. ثم تأتي الأبوة لتضيف أثرًا ترويضيًا إضافيًا، حتى على المستوى البيوكيميائي؛ فعندما يشارك الرجال في رعاية أطفالهم الصغار، تنخفض مستويات هرمون التستوستيرون لديهم،

1- D. R. White, L. Betzig, M. B. Mulder et al., ‘Rethinking polygyny: co-wives, codes, and cultural systems’ (and comments and reply), Current Anthropology 29 (1988): 529–72; www.jstor.org/stable/2743506.

2- Joseph Henrich, Robert Boyd and Peter J. Richerson, ‘The puzzle of monogamous marriage’ , Philosophical Transactions of the Royal Society B: Biological Sciences 367 (2012): 657–69.

بالتوازي مع انخفاض العدوانية والدافع الجنسي.[1] والمجتمع الذي يتكوّن من رجال منضبطين هو مجتمع أفضل للعيش، للرجال والنساء والأطفال على حد سواء.

ويُعد نموذج الزواج الأحادي أيضًا أفضل حل توصّلنا إليه حتى الآن للمشكلات التي تفرضها تربية الأطفال. فقد كان في النموذج التقليدي قدر من الحكمة، حين كان الأب يتحمّل المسؤولية الأساسية عن كسب المال، بينما كانت الأم تتحمّل المسؤولية الأساسية عن رعاية الأطفال في المنزل. فهذا النموذج يسمح للأمهات والأطفال بأن يكونوا معًا جسديًا، مع حصولهم في الوقت نفسه على الدعم المالي. وفي عصر الأجهزة الموفّرة للجهد، مثل الغسالات وسخّانات الغاز، أصبح تسيير شؤون المنزل أقل استهلاكًا للوقت، مما جعل من الممكن — بل من الشائع — أن تقوم الأمهات اللواتي لديهن أطفال صغار بعمل مدفوع الأجر خارج المنزل، كما يفعل معظمنا. غير أن محاولة الجمع بين أداء الدورين التقليديين للأم والأب في آن واحد — كما تُجبر الأمهات العازبات على ذلك — أمر يكاد يكون مستحيلًا.

وبالنسبة لبعض النساء، يُعد العمل المدفوع خارج المنزل مصدر متعة وامتياز. لكن بالنسبة لعدد أكبر بكثير، هو واجب ومسؤولية، وغالبًا ما يكون عبئًا ثقيلًا. وحتى النساء اللواتي يستمتعن بعملهن يكنّ عاجزات جسديًا عن أدائه خلال الأشهر الأولى من حياة الطفل. وأنا أعرف ذلك جيدًا؛ فقد بدأت كتابة هذا الكتاب في بداية حملي، وأنهيته عندما كان ابني في عمر ستة أشهر. وربما تكون الكتابة من أسهل الأعمال التي يمكن الجمع بينها وبين الأمومة، ومع ذلك مرّت عليّ أسابيع كاملة لم أكتب فيها كلمة واحدة لأنني كنت منشغلة تمامًا برعاية طفلي. وعلى الرغم من أنني كنت أتلقى دعمًا عمليًا من أشخاص آخرين، بمن فيهم زوجي، فإنني كنت غير قابلة للاستبدال بوصفي أمًّا — ليس فقط لأنني كنت الشخص الوحيد القادر على الإرضاع الطبيعي، بل أيضًا لأن الأطفال تربطهم بأمهاتهم علاقة تبدأ منذ لحظة الحمل، ولا يمكن نقل هذه العلاقة إلى شخص آخر من دون أن يترتب على ذلك ضيق لكل من الأم والطفل.

وإذا أردنا الحفاظ على تلك الرابطة الأمومية سليمة، فإن الحل الوحيد هو أن يتدخل شخص آخر خلال فترات الهشاشة هذه ليؤدي المهام اللازمة لإبقاء المنزل دافئًا ومطعَمًا. وربما يمكننا أن نسمّي هذا الشخص زوجًا. وربما يمكننا أن نسمّي رابطته القانونية والعاطفية زواجًا.

1- Lee Gettler, Thomas McDade, Alan Feranil and Christopher Kuzawa, 'Longitudinal evidence that fatherhood decreases testosterone in human males' , Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America 108 (2011): 16194–9.

الزواج مؤسسة تمتلك قدرة خاصة على إعادة اختراع نفسها. ففي عام ٢٠٢٠، بدأت مبادرة أطلقها مجموعة من الطلاب الأمريكيين تُدعى «مشروع الموافقة الإيجابية» (Affirmative Consent Project) بتسويق «عدة موافقة»، متاحة عبر الإنترنت مقابل ٢,٩٩ دولار. وكانت هذه العدة الصغيرة تحتوي على واقٍ ذكري، وقطعتين من حلوى إنعاش النفس، وعقد ينص على أن الموقّع أدناه قد وافق على ممارسة الجنس. وكان يُشجَّع الأزواج على التقاط صورة لأنفسهم وهم يحملون الورقة الموقَّعة. («لماذا لا تتم دعوة العائلة والأصدقاء ليشهدوا التوقيع؟» تساءل بعض الظرفاء. «ولِمَ لا يتم استئجار مصوّر محترف؟ وارتداء ملابس رسمية؟ وتحويل الأمر إلى مناسبة كاملة؟»)[1]

وبالمثل، في عام ٢٠٢١، كانت الصحفية «جوليا إيوفي» (Julia Ioffe) من بين العديد من النسويات اللواتي تفاعلن مع فرض قيود جديدة على حقوق الإجهاض في ولاية تكساس، عبر اقتراح أن يُجبَر الرجال على تقديم دعم مالي لشريكاتهم الجنسيات إذا أصبحن حوامل. وقد غرّدت «إيوفي»، على ما يبدو متوقعة أن يثير هذا الاقتراح المحافظ للغاية غضب المحافظين، قائلة: «إذا كنتَ مناهضًا لحرية الاختيار وتريد التأكد من أن النساء يُتممن كل حمل حتى نهايته، فلماذا لا تجعل الشخص الذي تسبّب في الحمل يساهم؟ لماذا لا تجعل الرجال يدفعون نفقة أطفال للنساء اللواتي حَبَّلوهن؟»[2] ولمَ لا فعلًا؟ بل أقول إن من الممكن تمامًا أن يكون المرء مؤيدًا لحرية الاختيار، وفي الوقت نفسه يُصرّ على أن يتحمّل الرجال مسؤولية الأطفال الذين يسهمون في إنجابهم. لقد كان لدينا في السابق نظام اجتماعي أُنشئ خصيصًا لهذا الغرض. وما زال من الممكن أن يكون لدينا.

ليس لديّ في هذا الفصل سوى نصيحة واحدة، وربما تكون قد خمّنتها بالفعل. ها هي: تزوّج. وابذل قصارى جهدك للبقاء متزوجًا. ولا سيما إذا كان لديك أطفال، وخصوصًا إذا كانوا لا يزالون صغارًا. وإذا وجدتَ نفسك في موقع الأمومة العازبة، فانتظر حتى يكبر أطفالك قبل أن تُدخل زوج أمّ إلى منزلهم.

1- http://www.cosmopolitan.com/uk/love-sex/sex/a31042298/sexual-consent-forms/
2- https://twitter.com/juliaioffe/status/1446113958650253313

لقد أصبحت هذه التوجيهات أصعب تنفيذًا اليوم مما كانت عليه في السابق، لأننا لم نعد نعيش في ثقافة تكافئ الصبر والمثابرة في الزواج. ومع ذلك، لا يزال بإمكان الأفراد أن يسيروا عكس التيار، وأن يُصرّوا على اختيار الطريق الأصعب والأقل رواجًا.

ومنتقدو الزواج محقّون حين يقولون إنه استُخدم تاريخيًا وسيلةً لسيطرة الرجال على النساء، وهم محقّون أيضًا في الإشارة إلى أن معظم الزيجات لا ترقى إلى المثال الرومانسي. وهم محقّون كذلك في القول إن الزواج الأحادي مدى الحياة «غير طبيعي» بمعنى أنه ليس القاعدة البشرية العامة. غير أن نظام الزواج الذي ساد في الغرب حتى وقت قريب لم يكن مثاليًا، ولم يكن سهل الالتزام به بالنسبة لمعظم الناس، لأنه كان يتطلب مستويات عالية من التسامح وضبط النفس. لكن حيث يخطئ المنتقدون هو في الزعم بوجود نظام أفضل. لا يوجد.

الخاتمة:

استمعي إلى أمك

إنني أسير على خطٍّ دقيق في هذا الكتاب. فمن جهة، أجادل ضد نوع ساذج من «نسوية حق حرية الاختيار» يفشل في الاعتراف بالبُنى التحفيزية، الدقيقة منها وغير الدقيقة، التي تؤثر في قرارات الأفراد. ومن جهة أخرى، أحاول أن أشجّع القرّاء على اتخاذ خيارات محددة، مع وعيٍ كامل بأن قدرتهم على الفعل مقيَّدة إلى حدٍّ كبير. وبعبارة أخرى، أقول لكِ إن خياراتك محدودة، لكنها لا تزال موجودة. «هناك مخارج»، كما يقول الشاعر «تشارلز بوكوفسكي» (Charles Bukowski)، «هناك ضوء في مكان ما؛ قد لا يكون ضوءًا كثيرًا، لكنه أفضل من الظلام».

ولهذا حاولت أن أقدّم ومضات من الضوء. لأنني أؤمن إيمانًا حقيقيًا، ليس فقط بأن هناك مجالًا للأفراد لأن يتصرفوا على نحو مختلف، بل أيضًا بأن هذه الأفعال الفردية يمكن أن تتسع وتتحول إلى شيء ذي شأن أكبر. فالأمور يمكن أن تتغير بسرعة كبيرة عندما يدرك الناس أن هناك آخرين يشعرون في الخفاء بالطريقة نفسها التي يشعرون بها.

لقد كانت صديقتي الكاتبة «كاثرين دي» (Katherine Dee) تتنبأ منذ مدة بحدوث تغيير. فقد كتبت العام الماضي: «أعتقد أن بندول الثقافة الجنسية على وشك أن يتأرجح بقوة... نحن نندفع رأسًا في شيء كان يغلي على نار هادئة في الخلفية منذ عامي ٢٠١٣–٢٠١٤... والقِدر على وشك أن يفيض». وتمتلك «كاثرين» موهبة خاصة في التقاط التحولات في الرياح الثقافية، وهي تلاحظ تزايد الإشارات إلى ردّ فعل قادم ضد إفراطات سردية التحرر الجنسي، ولا سيما من نساء الجيل Z اللواتي اختبرن أسوأ ما فيها.[1]

وأعتقد أن «كاثرين» محقّة في هذا. ومع أنني كتبت هذا الكتاب على أمل أن يقرأه الرجال والنساء من مختلف الأعمار، فإن أمنيتي الأعمق هي أن يُقرأ على وجه الخصوص من قِبل النساء

1- https://defaultfriend.substack.com/p/72-the-coming-wave-of-sex-negativity/comments

الشابات — تلك الفئة التي خذلتها النسوية الليبرالية خذلانًا تامًا، والتي لديها أكثر ما يمكن أن تكسبه من الارتداد ضد إفراطاتها.

ولهذا، وبينما تتضمن هذه الصفحات نصائح قد تكون مفيدة لأي قارئ، يجدر بي أن أكرّر هنا النقاط الأكثر صلة بهؤلاء النساء الشابات تحديدًا. وهذه هي النصيحة نفسها التي سأقدّمها لابنتي:

- لا تثقي بأي شخص أو أيديولوجيا تمارس ضغطًا عليكِ لتجاهل حدسك الأخلاقي.
- الفروسية والشهامة في حقيقتها أمرٌ جيد. فنحن جميعًا مطالبون بضبط رغباتنا الجنسية، وعلى الرجال على وجه الخصوص أن يفعلوا ذلك، نظرًا لقوتهم الجسدية الأكبر ومتوسط اندفاعهم الجنسي الأعلى.
- أحيانًا (وإن لم يكن دائمًا) يمكن تمييز الرجال العدوانيين جنسيًا بسهولة. وهناك مجموعة من السمات الشخصية الشائعة بينهم: الاندفاعية، والانحلال الجنسي، والذكورية المفرطة، وقلة التوافق. اجتماع هذه السمات ينبغي أن يضعكِ في حالة تأهّب وحذر.
- الرجل الذي يُثار بالعنف هو رجل ينبغي الابتعاد عنه تمامًا، سواء استخدم مفردات الجنس العنيف (BDSM) لتبرير سلوكه أم لا. فإذا كان قادرًا على الحفاظ على الانتصاب أثناء ضرب امرأة، فهو ليس شخصًا آمنًا للبقاء معه على انفراد.
- ورشات «الموافقة الجنسية» عديمة الجدوى في معظم الأحيان. فأفضل وسيلة لتقليل معدلات الاغتصاب هي تقليل الفرص المتاحة للمغتصبين المحتملين لارتكاب الجرائم. ويمكن تحقيق ذلك إما بإبقاء المدانين بالاغتصاب في السجن، أو بتقييد وصولهم إلى الضحايا المحتملات.
- الفئة الأكثر عرضة لأن تقع ضحية لهؤلاء الرجال هي النساء الشابات اللواتي تتراوح أعمارهن تقريبًا بين الثالثة عشرة والخامسة والعشرين. وينبغي لجميع الفتيات والنساء — ولا سيما في هذه الفئة العمرية — تجنّب البقاء على انفراد مع رجال لا يعرفنهم، أو مع رجال يثيرون لديهن شعورًا بالريبة. فحدس الفطرة لا ينبغي تجاهله؛ إذ غالبًا ما يكون قد استُثير حدسُك بإشارة تحذير (Red flag) يستحق الانتباه لها.

- تناوُل الكحول أو المخدرات ينبغي أن يكون في أماكن خاصة ومع صديقاتك، لا في الأماكن العامة أو في التجمعات المختلطة.
- لا تستخدمي تطبيقات المواعدة. فالأصدقاء المشتركون يستطيعون التحقق من السمعة والسوابق، ويمكنهم معاقبة السلوك السيئ اجتماعيًا. أما تطبيقات المواعدة فلا تملك هذه القدرة.
- تأجيل ممارسة الجنس مع حبيب جديد لبضعة أشهر على الأقل طريقة جيدة لاكتشاف ما إذا كان جادًا بشأنك أم أنه يبحث فقط عن علاقة عابرة.
- لا تمارسي الجنس مع رجل إلا إذا كنتِ تعتقدين أنه سيكون أبًا جيدًا لأطفالك —— لا لأنك تنوين بالضرورة إنجاب أطفال منه، بل لأن هذه قاعدة إرشادية جيدة لتقييم ما إذا كان جديرًا بثقتك أم لا.
- الزواج الأحادي هو، بفارق كبير، الأساس الأكثر استقرارًا وموثوقية يمكن بناء أسرة عليه.

كنتُ قد كتبتُ في الفصل الأول أن أيًا من نصائحي لن يكون صادمًا أو غير مسبوق، وما زلتُ متمسكةً بذلك. فكل ما أقدمه هنا يستند إلى أبحاث خضعت لمراجعة الأقران، لكن الحقيقة أن هذا لا ينبغي أن يكون ضروريًا، لأن ما أقوله هو في جوهره ما كانت ستقوله معظم الأمهات لبناتهن، لو كنّ فقط مستعدات للإصغاء.

وإذا أردنا أن نواجه التكاليف الاجتماعية للثورة الجنسية مواجهةً فعّالة، فلا يمكننا إعادة تصميم المجتمع على عجل أو بارتجال. علينا أن ننظر إلى البُنى الاجتماعية التي أثبتت بالفعل نجاحها في الماضي، وأن نقارن بينها، بدلًا من مقارنتها ببديل متخيَّل لم يوجد قط، ومن غير المرجح أن يوجد أصلًا. لقد أدت الصدمة التكنولوجية التي أحدثتها حبوب منع الحمل إلى أن يفترض الليبراليون الجنسيون، افتراضًا ينطوي على قدر كبير من الغرور، أن مجتمعنا يمكن أن يكون متحررًا على نحو فريد من قمع المعايير الجنسية، وأن يعمل بصورة طبيعية من دونها. غير أن الستين سنة الماضية أثبتت خطأ هذا الافتراض. نحن بحاجة إلى إعادة تشييد الحواجز الاجتماعية التي جرى هدمها. ولكي نفعل ذلك، لا بد أن نبدأ بتسمية الأمور الواضحة بأسمائها: يجب أن يُؤخذ الجنس على محمل الجد. الرجال والنساء مختلفون. بعض الرغبات سيئة. الموافقة

الجنسية وحدها لا تكفي. العنف ليس حبًا. الجنس الخالي من الحب ليس تمكينًا. البشر ليسوا منتجات. الزواج أمرٌ جيد.

وقبل كل شيء، استمعي إلى أمك. ففي عام ٢٠٢١، انتشر على الإنترنت مقطع فيديو على منصة (TikTok) لامرأة أمريكية شابة تُدعى «آبي» (Abby). وفي الفيديو، تخاطب آبي الكاميرا قائلة:

> أنا، مثل كثير من طلاب الجامعات الآخرين، شخص متورط في ثقافة العلاقات العابرة، وغالبًا ما تجعلني هذه الثقافة عاجزةً عن تحديد ما إذا كان ما أفعله جيدًا لي ولطيفًا مع نفسي أم لا. وكثيرًا ما ننقاد نحن النساء بعيدًا عمّا نستحقه فعلًا. لذلك، هذا ما بدأت أفعله مؤخرًا...

ثم تعرض على الشاشة سلسلة من صور طفولتها، وتشرح أن الرجال الذين ارتبطت بهم في علاقات عابرة في الماضي جعلوها تشعر في كثير من الأحيان بأنها غير مستحِقة، لا للحب فحسب، بل حتى للاحترام الأساسي. ولذلك تحاول أن تذكّر نفسها بقيمتها كإنسانة من خلال أداء دور الأم لطفلها الداخلي. «هل أنا موافقة على هذا لها؟» تسأل وهي تبكي، مشيرةً إلى صورتها الصغيرة. «هل كنت سأسمح لها بأن تكون خيارًا ثانيًا متأخرًا في الليل وهي ثملة؟ هل كنت سأسمح بحدوث هذا لها؟» ثم تهز رأسها، باكية: «من منظور شخص ثالث، من منظور القائم على الرعاية، لم أكن لأسمح أبدًا بحدوث أي من هذا لها».[١]

تحاول «آبي» أن تكون أمًّا لنفسها، مع أنها ليست متأكدة تمامًا من كيفية القيام بذلك. وآلاف النساء الشابات في التعليقات يحاولن أن يفعلن الشيء نفسه («أنا أبكي»، «كنت بحاجة فعلًا إلى هذا، شكرًا لك»، «هذا غيّر حياتي للتو»). لقد حُرمن من إرشاد الأمهات، لا لأن أمهاتهن الحقيقيات غير راغبات في تقديمه، بل بسبب نزعة «قتل الأم» الكامنة في النسوية الليبرالية، والتي تفصل النساء الشابات عن الجيل الأكبر «الإشكالي». وهذا لا يعني فقط أنهن محرومات من أصوات الخبرة، بل — وهو الأهم — أنهن محرومات أيضًا من الشخص الذي يحبهن أكثر من أي شخص آخر في العالم. تحتاج النسوية إلى إعادة اكتشاف الأم، بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

1- https://www.tiktok.com/@vyvansemommy/video/7005669146797100294

وإلى أن يحدث ذلك، ستضطر كل امرأة، بمفردها، إلى أن تتعلم كذبة وعد التحرر الجنسي — تلك الكذبة التي تقول لنا، كما عبّرت عنها «أندريا دوركين» (Andrea Dworkin)، إن «الممارسة الجنسية بحد ذاتها هي الحرية بحد ذاتها». لقد كانت كذبة منذ البداية. وقد حان الوقت، أخيرًا، لأن نقول ذلك صراحة.